اقرؤوا
هذه الرواية

وإن سُئلتم
عن نهايتها

اكذبوا!

إ. لوكهارت

مكتبة ٥٧٠

نحن الكذّابون

المركز الثقافي العربي

مكتبة 570

إ. لوكهارت

نحن الكذّابون

الكتاب
نحن الكذّابون
تأليف
إ. لوكهارت
ترجمة
معن عاقل
الطبعة
الأولى، 2019
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-912-8
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
E. Lockhart
We Were Liars
© E. Lockhart, 2014
All rights reserved

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠٢٠٦١

إ. لوكهارت

نحن الكذّابون

رواية

ترجمة: معن عاقل

مكتبة | 570

المركز الثقافي العربي

إلى دانييل

شجرة عائلة آل سنكلير

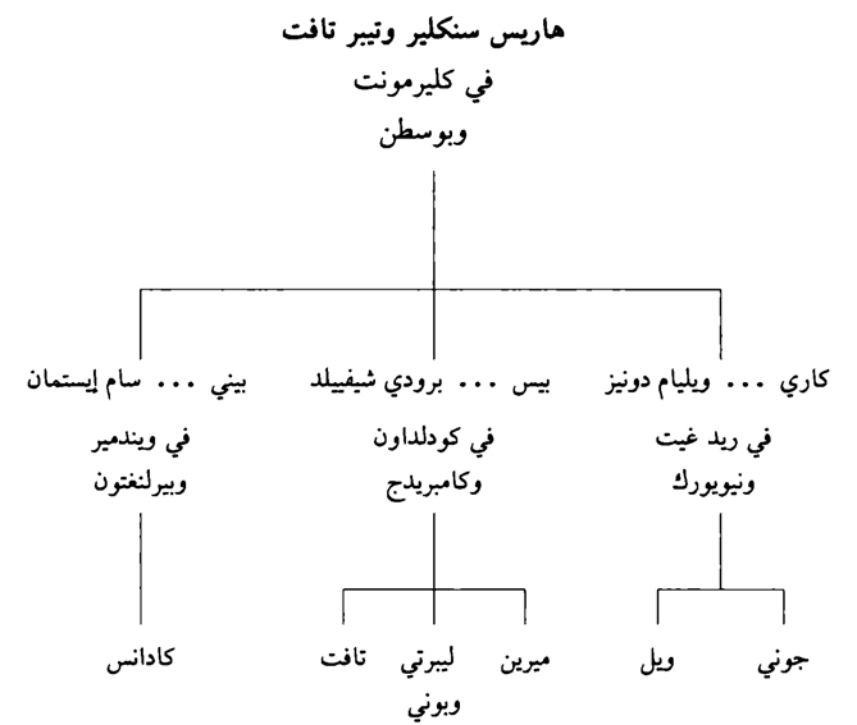

القسم الأول

أهلاً بكم

1

أهلاً بكم في عائلة سنكلير الرائعة.

عندنا، لا يوجد مجرمون.

مكتبة
t.me/t_pdf

ولا مدمنو مخدرات.

ولا فاشلون.

عائلة سنكلير رياضيون، وسيمون ورشيقون. نحن من علية القوم. ابتساماتنا مشرقة، وذقوننا عريضة، ونستهلُّ الكُرة في لعبة التنس بضربة هجومية.

سيان إن مزّق الطلاق نياط قلوبنا وجعل نبضنا يضطرب. سيان إن تضاءلت حساباتنا المصرفية؛ وإن تناثرت كشوف بطاقاتنا الائتمانية غير المدفوعة على طاولة المطبخ. وسيان إن تراكمت علب الأدوية على طاولة السرير.

سيان إن وقع أحدنا مغرماً بجنون ويأس.

مغرماً

إلى حدِّ أن

تدابير تحمّل القدر ذاته من اليأس

تفرض نفسها.

فنحن عائلة سنكلير.

لا أحد تابع عندنا.

ولا أحد مخطئ.

نقضي الصيف على الأقل فوق جزيرة صغيرة خاصة قبالة ماساتشوستس.

ولعلّ هذا كل ما تحتاجون إلى معرفته.

2

اسمي الكامل كادنس سنكلير إيستمان.

أعيش في بيرلنغتون بولاية فيرمونت، مع أمي وكلابنا الثلاثة.

سأبلغ قريباً الثامنة عشرة من عمري.

لدي بطاقة مكتبة مهترئة ولا شيء غيرها، في حين أنني أسكن منزلاً واسعاً مملوءاً بأشياء باهظة الثمن وغير ضرورية.

كنتُ شقراء فيما مضى، وشعري الآن أسود.

كنتُ قوية فيما مضى، والآن ضعيفة.

كنتُ جميلة فيما مضى، والآن أبدو مريضة.

صحيح أني أتحمّل حالات الصداع النصفي منذ الحادث الذي وقع لي.

صحيح أني لا أستطيع أن أتحمّل الحمقى.

أحب اللعب على الكلمات. هل تلاحظون؟ **تحمّل** الصداع النصفي. وعدم القدرة على **تحمّل** الحمقى. الكلمة تحمل المعنى ذاته تقريباً في الجملتين، لكن ليس تماماً.

التحمّل.

قد تكون كلمة المعاناة مرادفة لها، ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً.

بدأت قصتي قبل الحادث. في شهر يونيو من صيف عامي الخامس عشر، هجرنا أبي لأجل امرأة أحبها أكثر منا.

كان أبي أستاذاً للتاريخ العسكري في كلّية متواضعة نسبياً. كنت أعبده. يرتدي سترة من التويد. نحيف. يشرب الشاي بالحليب. يحب ألعاب اللوح ويتركني أربح، وركوب الزوارق ويعلّمني التجديف، والدراجات الهوائية، والكتب والمتاحف.

لكنه لم يكن يحب الكلاب، ولا شكّ أنه أحب أمي حبّاً جمّاً حتى سمح لكلاب الصيد الشقراء أن تنام على الأرائك وحتى ينزّهها كل صباح نحو خمسة كيلومترت. ولم يكن يحب أسرة جدّي أيضاً، ولا شكّ أنه أحبّني أنا وأمي حبّاً جمّاً ليوافق على قضاء جميع فصول الصيف في منزل ويندمير، على شاطئ بيتشوود آيلاند، وكان يمضيها في كتابة مقالات عن حروب انتهت منذ أمد بعيد وفي توزيع الابتسامات على المائدة ليشيع البهجة بين الجميع.

في شهر حزيران من صيف عامي الخامس عشر، أخبرنا أبي أنه سيهجرنا. وغادر بعد يومَين. شرح لأمي أنه ليس من عائلة سنكلير وأنه لم يعد يستطيع التظاهر بذلك. لم يعد يستطيع التبسّم والكذب، وأن يكون فرداً من هذه العائلة الرائعة في منازلها الفخمة.

لم يعد يطيق ذلك. ولم يعد يرغب بكل هذا.

كان قد استأجر سلفاً شاحنة النقل. واكترى منزلاً من قبل

أيضاً. وضع آخر حقيبة على المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس (واكتفت ماما بالاحتفاظ بسيارة الساب)، وأدار المحرك.

ثم أشهر مسدساً وصوّبه إلى صدري. وأنا واقفة على المرج الأخضر، تهاويتُ. اتّسع الثقب الذي أحدثته الرصاصة وتدحرج قلبي خارج القفص الصدري ليستقر في حوض أزهار. وراح الدم ينفر من جرحي البليغ،

ثم من عينَي،

ومن أذنَي،

ومن فمي.

طعم ملح وطعم خيبة. راح عار النبذ المخزي والقرمزي يغمر المرج وبلاط الممر ودرج المدخل. أخذ قلبي يختلج وسط أزهار الفاوانيا مثل سمكة ترويت أُخْرِجَتْ من الماء.

أمرتني ماما بلهجة صارمة أن أتماسك.

ابقي طبيعية، أعلنت. وحالاً.

لأنك كذلك. ولأنك بوسعك أن تكوني كذلك.

لا نريد فضيحة، أمرتني. خذي نفساً عميقاً وارفعي رأسك.

فأطعت.

لقد أصبحتْ من الآن فصاعداً كل ما تبقّى لي.

رفعنا أنا وأمي ذقنينا العريضَين بينما راحت سيارة بابا تنزل الهضبة. ثم دخلنا إلى البيت وحطّمنا كل الهدايا التي قدّمها لنا: الحلي، الملابس، الكُتب وكل شيء. وفي الأيام التالية، تخلّصنا من الأريكة والكراسي التي اشتروها معاً. ورمينا طقم بورسلان زواجهما، والأواني الفضّية والصور.

بدّلنا كل الأثاث. وتعاقدنا مع مهندس ديكور داخلي. طلبنا

أدوات مائدة فضية من متجر تيفاني. وأمضينا نهاراً في زيارة المعارض الفنية وشراء لوحات جديدة تشغل الأماكن الشاغرة على الجدران.

طلبنا من محامي جدي أن يحمي أملاك ماما العقارية.

وضّبنا أمتعتنا وغادرنا إلى بيتشوود آيلاند.

3

بيني وكاري وبيس هنّ بنات تيبر وهاريس سنكلير الثلاث. ورث هاريس ثروة عائلية وهو في الواحد والعشرين من عمره، حين تخرّج من هارفارد، وتوسّع في الأعمال. أية أعمال؟ لم أطرح هذا السؤال على نفسي قط. وألفى نفسه يمتلك أراضي ومنازلَ فاخرة. وكانت بصيرته نافذة في البورصة. تزوّج تيبر وحكم عليها أن تعيش في مطبخها وحديقتها. عرضها في أبهى حلّتها على زوارق شراعية جميلة. وبدت سعيدة في هذا الدور.

كان الإخفاق الوحيد للجد هو أنه لم يرزق بابن، لكن لا يهم. فقد باركت الشمس بنات سنكلير ولفحت بشرتهنّ. هنّ الممشوقات القوام والمرحات والثريّات، كُن أميرات قصص الجن. اشتهرن في أنحاء بوسطن، وحتى في هارفارد يارد ومارثاز فاينيارد بستراتهنّ من الكشمير وباحتفالاتهنّ الباذخة. خُلِقْن ليدخلن الأساطير. خُلقن لإغواء الأمراء، وارتياد أفضل الجامعات، وجمع تماثيل العاج، ولسكنى الفيلات الفخمة.

كان جدي هاريس وجدتي تيبر يحبان بناتهما الثلاث حبّاً جمّاً حتى ليصعب عليهما اختيار أيهنّ الأحب إليهما. في البداية كانت

كاري، ثم بيني، وبعدها بيس، ثم كاري من جديد. أقيمت حفلات الأعراس العظيمة العامرة بسمك السلمون المدخّن ومعزوفات القيثارة، قبل قدوم أحفاد شقر كالقمح وكلابٍ محبوبة ذات وبر زاهٍ. ولم يكن بالإمكان العثور على أبوين فخورين ببناتهما الأميركيات الرائعات أكثر من هاريس وتيبر، في تلك الفترة.

بنوا ثلاثة مساكن جديدة فوق جزيرتهم الخاصة ذات الشطآن الصخرية الوعرة، وأطلقوا على كل واحد منها اسماً: ويندمير من أجل بيني، ريد غيت من أجل كاري وكودلدوان من أجل بيس.

أنا البكر من بين أحفاد سنكلير. أنا وريثة الجزيرة، والثروة والآمال العائلية.

وبالمحصلة، ربما.

4

أنا، جوني، ميرين وغات. غات، ميرين، جوني وأنا.

لقّبتنا عائلتنا بالكذّابين، ونستحق هذا اللقب بلا شكّ. نحن متقاربين في السن وتصادف أعياد ميلادنا جميعاً في الخريف. ونمضي كل صيف تقريباً معاً على الجزيرة، وننشر الفوضى فيها.

بدأ غات يأتي إلى بيتشوود في العام الثامن من عمرنا. بمعنى آخر، في الصيف الثامن.

قبل ذلك، لم نكن أنا وميرين وجوني كذّابين. كنا مجرّد أبناء خالة ولم يكن جوني يُحْتَمَل لأنه لا يحب اللعب مع الفتيات.

جوني هو الحيوية والمثابرة والتهكّم. في ذلك الوقت، كان يشنق دمانا من العنق ويطلق علينا النار من مسدّسات الألعاب.

ميرين هي السكّر والفضول والمطر. في ذلك الوقت، كانت تمضي طوال العصر على الشاطئ مع تافت والبنتين التوأم بينما أنا أرسم على الورقة ذات المربعات وأقرأ في الأرجوحة على شرفة بيت كليرمونت.

ثم جاء غات ليقضي عطلة الصيف معنا.

كان زوج خالتي كاري قد هجرها وهي حامل بويل، شقيق جوني الصغير. لا أعرف ما حدث. فالعائلة لم تتحدّث عن ذلك قط. في الصيف الثامن، كان ويل رضيعاً ودخلت كاري في علاقة مع إيد.

إيد هنا هو تاجر لوحات ويعبد الأطفال. هذا كل ما نعرفه عنه حين أعلنت كاري أنه سيرافقها إلى بيتشوود مع جوني والرضيع.

كانوا آخر الواصلين ذاك الصيف، واجتمع معظمنا فوق الجسر ننتظرهم. رفعني جدي حتى أستطيع التلويح لجوني الذي يرتدي سترة نجاة برتقالية ويطلق صيحات همجية في مقدمة المركب.

كانت جدتي تيبر تقف بجانبنا. التفتت للحظات قليلة، وأدخلت يدها في جيبها وأخرجت منه علكة بالنعناع بيضاء اللون قشّرتها ودسّتها في فمها.

حين استدارت من جديد نحو المركب، تغيّرت ملامحها. شحذتُ نظري لأرى ما رأته.

نزلت كاري من المركب تحمل الرضيع ويل على وركها. لم يكن أكثر من خصلة شعر أشقر تبرز من سترة نجاته الصغيرة الصفراء. انطلقت صيحات الفرح عند ظهوره. هذه السترة التي

لبسناها جميعاً بعمره. شعره. كم كان مذهلاً أن يصبح هذا الرضيع الذي نكاد لا نعرفه من عائلة سنكلير بصورة صارخة.

قفز جوني من المركب وألقى سترته البرتقالية على الجسر. أول خطوة قام بها هو الركض نحو ميرين ليركلها بقدمه. ثم نحوي. ثم نحو البنتين التوأم. قبل أن يتقدم نحو جدينا ويقف باستعداد ليعلن لهما:

«أنا سعيد بلقائكما، يا جدي وجدتي. ويسرني أن نقضي الصيف معاً».

ضمّته تيبر بين ذراعيها.

«أمك هي من طلبت منك أن تقول هذا، أليس كذلك؟».

«أجل»، قال جوني. «ويجب أن أقول لكما أيضاً: ما أروع أن ألقاكما».

«أنت صبي لطيف».

«هل بوسعي الانصراف، الآن؟».

قبّلت تيبر خدّه المرصّع بالنمش.

«هيا، اذهب».

نزل إيد في الأخير، بعد أن ساعد الطاقم في إنزال الحقائب. كان طويلاً ونحيفاً. بشرته داكنة، سنعرف فيما بعد أنه ورثها عن أجداده الهنود. يضع نظارات ذات إطار أسود ويبدو بمظهر عصري لا تشوبه شائبة: بزّة من الكتان وقميص مخطّط. بنطاله مجعّد قليلاً من السفر.

وضعني جدي على الأرض.

كانت جدتي تيبر تحافظ على شفتيها مزمومتين. انتهت إلى إظهار أسنانها وتقدمت.

«لا بدَّ أنك إيد. يا للمفاجأة السارة».

صافح يدها.

«ألم تخبركم كاري بمجيئي؟».

«بلى، بالتأكيد».

تأمّل إيد عائلتنا البيضاء، الناصعة البياض. ثم التفت نحو كاري.

«أين ذهب غات؟».

نادوه. فقد صعد غات سطح المركب وراح يخلع سترة النجاة، وعيناه مطرقتان كي يفك العرى.

«بابا، ماما»، أعلنت كاري، «أحضرنا ابن أخت إيد ليرافق جوني. أقدّم لكما غات باتيل».

ربّت جدي على أعلى رأسه.

«طاب يومك، يا فتى».

«طاب يومك».

«توفي والده هذا العام»، شرحت كاري. «هو وجوني أفضل صديقين في العالم. وهذه أيضاً طريقة للتخفيف عن شقيقة إيد لبضعة أسابيع. غات؟ يمكنك أن تتنزه وتستفيد من الشاطئ كما اتفقنا، موافق؟».

لكن غات لم يجبها. كان مستغرقاً في النظر إلي.

أنفه رائعٌ وفمه رقيقٌ. بشرته سمراء داكنة، وشعره أسودٌ ومتماوجٌ. جسده مفعمٌ بالطاقة. كان غات يبدو كأنه جالس على نوابض. كأنه يبحث عن شيء ما. إنه يجسّد التأمُّل والحماس. الطموح والقهوة السوداء. كنتُ أستطيع النظر إليه حتى نهاية الزمان.

تجاذبت أنظارنا.

استدرت على أعقابي وهربت.

تبعني غات. سمعتُ وقع خطاه يتردّد صداها خلفي على طريق المنتزه الخشبي الذي يتعرج عبر الجزيرة.

لم أبطئ. ولا هو أيضاً.

اندفع جوني وراءه. وميرين وراء جوني.

بقي الراشدون يتحدّثون فوق الجسر، وهم يتحلّقون بتهذيب حول إيد ويناغون الرضيع ويل. أما الصغار فراحوا يقومون بحركاتهم المعتادة كصغار.

التقينا نحن الأربعة على الشاطئ الصغير تحت منزل كودلدوان. امتداد صغير من الرمل تحيط به جروف صخرية عالية. لم يكن أحد تقريباً يستعمله في تلك الفترة. وعلى الشاطئ الكبير، كان الرمل أنعم والأُشُن أقل.

خلعت ميرين حذاءها، وحذونا حذوها جميعاً. رمينا الحصى في الماء. وراحت مجموعتنا الصغيرة تتشكل بكل بساطة.

كتبنا أسماءنا على الرمال.

كادنس، ميرين، جوني وغات.

غات، جوني، ميرين وكادنس.

هكذا بدأ كل شيء بالنسبة إلينا.

أصرَّ جوني على أن يمدّد غات إقامته على الجزيرة.

وتحقّقت أمنيته.

وفي العام التالي، أراد أن يقضي فيها طوال مدة العطلة.

كان جوني حفيدهما الأول. ولم يكن جدايّ يرفضان له طلباً تقريباً.

5

في الصيف الرابع عشر، أبحرتُ أنا وغات لوحدنا على متن أصغر مركب له محرّك. كان ذلك بعد الإفطار مباشرة. كانت بيس قد اصطحبت ميرين للعب التنس مع تافت والبنتين التوأم. أما جوني الذي انهمك ذلك العام في سباق المشي، فقد نظّم جولات على طريق الجزيرة الدائري. وجدني غات في مطبخ كليرمونت وسألني إن كنتُ أرغب في القيام بنزهة بحرية.

«في الحقيقة لا».

كنت أرغب بشكلٍ خاص أن أستلقي بصحبة كتابي.

«وإن رجوتكِ؟».

نادراً ما كانت مثل هذه الكلمات تخرج من فمه.

«اذهب وتنزه لوحدك».

«لا يريحني أن أستعير المركب»، أجاب. «لن يكون هذا لائقاً».

«لكنه لائق بالتأكيد».

«ليس لائقاً دون أن يرافقني أحد من عائلتكم».

كان هذا مضحكاً.

«وأين تريد أن تذهب؟» سألْتُه.

«أرغب فقط أن أبتعد قليلاً. أحياناً، أشعر بالاختناق على هذه الجزيرة».

لم أستوعب حينها ما الذي يشعره بالاختناق إلى هذا الحدّ،

لكنني وافقت. اتجهنا إلى عرض البحر نرتدي سترات واقية من الريح فوق ملابس السباحة. وبعد لحظة، أطفأ غات المحرك. قضمنا الفستق ونحن نستنشق الهواء البحري العليل. كان سطح البحر يتلألأ تحت أشعة الشمس.

«هيّا بنا»، قلتُ.

قفز غات أولاً. وتبعته. كان الماء في عرض البحر أبرد بكثير من ماء الشاطئ لدرجة أن الصدمة الحرارية قطعت أنفاسنا. توارت الشمس وراء غيمة. ندّت عنا ضحكة عصبية وهتفنا أنها فكرة حمقاء لم نفكر بها من قبل. ما الذي جال في ذهننا؟ يوجد سمك قرش في عرض البحر، والجميع يعرف ذلك!

«لا تكلميني عن سمك قرش، أنتِ بلهاء!».

تشاجرنا داخل الماء حول من يتسلّق أولاً ويصعد السلَّم إلى متن المركب.

وبعد برهة، تنحّى غات وسمح لي بالمرور.

«ليس لأنكِ بنت، وإنما لأنني شخص طيب»، قال موضِّحاً.

«شكراً».

ومددتُ له لساني.

«ولكن إذا جاءت سمكة قرش وانتزعت ساقَي، عديني أن ترثيني في مأتمي وتلقي فيه خطاباً توضّحي كم كنت رائعاً».

«أعدك. كان غاتويك ماثيو باتيل يطبخ وجبات لذيذة».

وجدنا الأمر مضحكاً لأن شعورنا بالبرد لم يفارقنا. وحتى لم نحضر معنا المناشف. تشاركنا غطاءً من الصوف وجدناه بالصدفة في صندوقٍ تحت مقعدينا، والتصق كتفانا العاريان الواحد بالآخر. أقدامنا متجمّدة، ومتشابكة.

«هذا فقط حتى لا نموت بسبب انخفاض درجة حرارة الجسم»، أعلن غات. «لا تتصوري أنني أجدك جذّابة أو ما شابه».

«لا تتملكني أي أوهام».

«أنتِ تأخذين كل الغطاء».

«أنا آسفة».

صمتٌ.

استأنف الكلام:

«أجدكِ لطيفة جداً يا كادي. لم أكن أريد قول هذا. ولكن منذ متى أصبحتِ جميلة؟ هذا مربكٌ كما تعرفين».

«لم يزل شكلي على حاله كما كان من ذي قبل».

«لقد تغيّرتِ أثناء العام الدراسي. هذا يطيح باستراتيجيتي».

«وهل لديك استراتيجية؟».

أقرَّ بهيئة رصينة.

«هذا أغبى شيء سمعته. وما هي هذه الاستراتيجية؟».

«لا شيء يخترق درعي أبداً. ألم تلحظي؟».

أضحكني ردّه.

«لا لم ألاحظ البتة».

«اللعنة. كنت أظن أن الأمر يسير على ما يرام».

تحدّثنا في أمر آخر. عن اصطحاب الصغار إلى سينما إدغارتاون بعد الظهر. وعن سمك القرش هل يأكل البشر فعلاً أم لا. وعن **نباتات تقاوم الزومبي**.

ثم عدنا أدراجنا إلى الجزيرة.

بعد هذه الحادثة، بدأ غات يعيرني كُتبه ويأتي للقائي على

الشاطئ الصغير بداية السهرة. أو يبحث عني عندما أكون متمدّدة على مرج ويندمير مع كلابي.

أصبحنا نتنزه معاً على الدرب الضيق المحاذي للساحل، هو في الأمام وأنا وراءه. نتحدّث عن الكتب، ونختلق عوالم خيالية. كان يحدث لنا أحياناً أن ندور حول الجزيرة عدة مرات قبل أن نشعر بالجوع أو الملل.

كانت ورود يابانية تحفُّ بجانبَي ممشى المنتزه. وبتلاتها الأرجوانية تفوح برائحة عطرية خفيفة منعشة.

وذات يوم شاهدتُ غات يقرأ في أرجوحة كليرمونت، أحسستُ... كيف أقول... أنه يخصني. أنه خُلق من أجلي.

وبهدوء، اندسستُ بجانبه في الأرجوحة. أخذتُ قلم الحبر من بين أصابعه -فهو لا يقرأ إطلاقاً من دونه- ثم كتبتُ **غات** على يده اليسرى **وكادنس** على اليمنى.

أخذ القلم مني. وكتب **غات** على يدي اليسرى **وكادنس** على اليمنى.

لن أقول إنه القدر. فأنا لا أؤمن به، على كل حال. ولا أؤمن أيضاً بتوائم الأرواح ولا بخرافات ما وراء الطبيعية.

أقول فقط أننا تفاهمنا، أنا وهو. وكنا نحس الشعور ذاته.

لكننا كنا في سنّ الرابعة عشرة فقط. ولم أكن قد قبّلت فتى من قبل -مع أنني سأقبّل أكثر من فتى خلال العام الدراسي القادم- ولم يخطر ببالنا أن نسمّي ذلك حبّاً.

6

في الصيف الخامس عشر، وصلتُ بعد الآخرين بأسبوع. كان أبي قد هجرنا منذ فترة وجيزة وصار لدينا أنا وأمي أطنان من الأمور الواجب تسويتها، عدا عن مواعيدنا مع مصمِّم الديكور الداخلي وسواه.

استقبلنا جوني وميرين على الجسر الخشبي العائم، بخدود متورِّدة ورأسَين مترعَين بالمشاريع من أجل العطلة. كانا ينظّمان دوري تنس عائلي وجهّزا وصفات جميع أنواع المثلجات. وسيقومان بنزهات في القارب، ويضرمان نيران المشاعل.

هرع الصغار مطلقين الصيحات كالعادة. وراحت الخالات يبتسمن ابتسامات فاترة. وبعد لغط التئام الشمل، التقى الجميع في كليرمونت لتناول وجبة خفيفة.

توجّهتُ مباشرة إلى منزل ريد غيت، بحثاً عن غات. منزل ريد غيت أصغر بكثير من منزل كليرمونت، لكنه مجهّز بأربع غرف نوم في الطابق الأخير. وهناك يقضي جوني وغات وويل عطلتهم مع الخالة كاري، وأيضاً إيد، حين يأتي، وهذا لا يحصل غالباً.

ذهبتُ إلى باب المطبخ ونظرت من خلال المنخل. لم يرني غات. كان واقفاً قرب طاولة تحضير الطعام، يرتدي بنطال جينز وقميصاً رمادياً بالياً. بدت كتفاه أعرض ممّا في ذهني.

كان منهمكاً في تفكيك زهرة جافة معلّقة بالمقلوب بشريط على

النافذة فوق المجلى. إنها وردة يابانية، ذات بتلات أرجوانية مجعدة قليلاً، قطفها على الأرجح من شواطئ الجزيرة.

غات، حبيبي غات. كان قد قطف لي وردة أثناء نزهتنا المفضّلة. ووضعها بالمقلوب لكي يجفّفها وانتظر مجيئي ليقدّمها لي.

لقد قبّلتُ فتيْن أو ثلاثة خلال العام، ونسيتهم الآن.

وفقدتُ أبي.

وتركتُ ورائي منزلاً تملؤه الدموع والأكاذيب.

وحين رأيتُ غات،

مع وردة بيده

في هذه اللحظة بالذات، مع الشمس التي تدخل من النافذة،

والتفاح فوق طاولة المطبخ،

ورائحة الغابة والمحيط من حولنا،

أدركتُ أن هذا هو الحب.

أجل، إنه الحب. وهذه البديهة فرضت نفسها عليّ بقوة حتى اضطررتُ أن أستند إلى باب المنخل الذي يفصل بيننا، فقط كي لا أترنّح بالكامل. رغبتُ أن ألمسه مثل هريرة، أو أرنب، أو شيء صغير ناعم ومحبّب لا يقدر المرء أن يمنع نفسه عن مداعبته. كان الكون لطيفاً لأن غات موجود فيه. كنت أحب ثقب بنطاله الجينز وقذارة قدميه الحافيتين والقشرة على مرفقه والندبة التي تشطب حاجبه. غات، حبيبي غات.

أمام ناظريّ، وضع الوردة في مغلّف. بحث عن قلم حبر، وهو يفتح ويغلق الأدراج بصخب وعثر أخيراً على قلم في جيبه، وطفق يكتب شيئاً ما.

أدركتُ أنه كتب عنواناً فقط حين أخرج دفتر طوابع.

فتح غات المغلّف. ثم أضاف عنوان المرسِل.

لم تكن هذه الرسالة موجّهة إلي.

غادرتُ باب منزل ريد غيت دون أن يراني وهرعتُ حتى الدرب الدائري. نظرتُ وحدي إلى الشمس وهي تغيب.

انتزعتُ كل الأزهار من شجيرة ورد تعيسة ورميتها، واحدةً تلو الأخرى، في البحر الهائج.

7

في ذلك المساء، حدّثني جوني عن صديقة غات النيويوركية. تُدعى راكيل. لقد قابلها فعلاً. فجوني يعيش في نيويورك، مثل غات، لكن في أسفل مانهاتن مع كاري وإيد، أما غات فيسكن في أعلى مانهاتن مع أمه. شرح لي أن راكيل تزاول الرقص الحديث وترتدي الأسود بالكامل.

وأخبرني تافت، شقيق ميرين، أن راكيل أرسلت إلى غات طرداً بريدياً يحتوي كعكاً مصنوعاً في البيت. وأسرّت لي ليبرتي وبوني أنه يحتفظ بصور لها على هاتفه المحمول.

لم يتحدث غات عنها، لكنه راح يتهرّب من ملاقاة نظرتي.

في ذاك المساء الأول، بكيتُ، وعضضتُ على أصابعي، وشربتُ نبيذاً اختلسته من مؤونة منزل كليرمونت. حلّقتُ في السماء بعنف، مترعة بالغيظ، وصدمتُ النجوم لأُنزلها، وأنا أترنح وقلبي مضطرب.

لكمتُ جدار الحمّام بقبضتي. غسلتُ عاري وغضبي بالماء

البارد. ثم ارتعشتُ في فراشي مثل كلب أجرب مهجور، ورحت أرتجف مثل كومة عظام تصطك.

في صبيحة اليوم التالي، وجميع الأيام التي تلته، تصرّفتُ بشكل عادي. رفعت بشموخ ذقني العريض.

ركبنا الزورق وأنرنا مشاعل الفرح. وفزتُ في بطولة التنس.

حضرنا ليترات من المثلجات واستمتعنا بحمامات الشمس.

وذات مساء، تنزّهنا نحن الأربعة على الشاطئ الصغير. أعدّ لنا الخدم كل شيء، المحار المسلوق، وبطاطس وعرانيس ذرة بالفرن. أشياء لم أكن أعرف حتى أسماءها.

أحضر جوني وميرين الطعام في أطباق معدنية كبيرة. أكلنا حول نار المخيم، وساحت الزبدة على الرمل. أعدّ غات ساندوتشاً بثلاث طبقات للجميع. راقبت يديه على ضوء اللهب وهو يشكّ حلوى الخطمي على عود. وهناك حيث نقشنا اسمَينا فيما مضى على ساعديه، صار يدوّن من الآن فصاعداً عناوين الكتب التي يرغب بمطالعتها.

ذاك المساء، دَوَّن على يده اليسرى: **الوجود و**. وعلى اليمنى: **العدم**.

وكانت هنالك خربشات على يديّ، أنا أيضاً. عبارة أعجبتني بصورة خاصة. على اليسرى: **اغتنم**. على اليمنى: **الفرصة**.

«هل تريدون أن تعرفوا بماذا أفكر؟» سألنا.

«أجل»، أجبت.

«لا»، قال جوني.

«أتساءل كيف يمكن لجدكم أن يثبّت ملكيته لهذه الجزيرة. ليس بالمعنى القانوني، وإنما بشكل ملموس».

«رجاءً، لا تكرر علينا أسطوانة المستعمرين الأوائل»، تذمّر جوني.

«لا. ما أود معرفته، هو كيف يمكننا أن نثبت أن مكاناً ما هو ملك **لشخص ما؟**».

وأثناء نطقه بهذه الكلمات، أشار غات إلى الرمل والمحيط والسماء.

هزّت ميرين كتفيها.

«الناس يشترون ويبيعون الأراضي بلا توقف».

«أليس الأجدر بنا أن نتحدث عن الجنس أو حالات القتل؟»، قال جوني.

تجاهله غات. «لعلّ الأرض لا تخصّ أحداً. أو ربما لكان يجب وضع حدود لما يمكننا أن نمتلكه». انحنى إلى الأمام. «عندما ذهبت إلى الهند هذا الشتاء كعامل متطوّع، بنينا مراحيض. لماذا؟ لأن الناس هناك، في تلك القرية، ليس لديهم حتى مراحيض».

«هذا جيد، نعرف أنك ذهبتَ إلى الهند»، تنهّد جوني. «أخبرتنا ذلك سبعاً وأربعين مرة بالضبط».

أعشق هذه السمة الشخصية عند غات: يتمتع بمثل هذه الحماسة ومثل هذا الفضول الذي لا يكل تجاه العالم المحيط به، لدرجة أنه يشق عليه أن يدرك أن من شأن قصصه أن تضجر الآخرين. حتى حين يصارحه الآخرون بذلك. السمة الأخرى، هي أنه لا يُعْتِقُ مستمعه بسهولة. يُصرُّ على دفعنا للتفكُّر، حتى عندما لا نرغب بذلك.

مدّ عود حطب نحو ألسنة اللهب.

«كل ما أقوله هو أنه علينا أن نناقش الأمر. فليس جميع الناس

لديهم جزيرة خاصة. البعض يعملون فيها. والبعض يشتغلون في المصانع. وبعضهم عاطل عن العمل. وآخرون ليس لديهم ما يأكلونه».

«توقف عن هذا حالاً»، أمرت ميرين.

«توقف عن هذا إلى الأبد»، زاود جوني.

«نحمل رؤية مشوّهة عن الإنسانية على جزيرة بيتشوود»، أعلن غات. «أظن أنكم لا تدركون ذلك».

«اسكت»، نَهَرْتُه. «وإلا لن تحصل على شوكولاتة».

وصمتَ، لكن وجهه اكفهرّ. نهض فجأة، والتقط حصاة على الشاطئ وقذفها بعيداً بكل قواه. خلع قميصه وألقى حذاءه في الهواء. ثم ولج الماء ببنطال الجينز.

وبغضب.

نظرتُ إلى عضلات كتفيه في ضوء القمر، وإلى رذاذ الزبد المتناثر مع كل خطوة من خطواته. غطس فجأة، وفكّرتُ: إذا لم ألحق به حالاً، ستفوز راكيل. إذا لم ألحق به حالاً، سيرحل. بعيداً عن الكذّابين، بعيداً عن هذه الجزيرة، بعيداً عن عائلتنا وبعيداً عني.

خلعتُ كنزتي وتبعتُ غات في المحيط، وفستاني لم يزل على ظهري. ارتميتُ في الماء وسبحتُ إلى المكان الذي يسبح فيه على ظهره. شعره المبلّل، والمنكفئ إلى الخلف، أظهر الندبة على قوس حاجبه.

أمسكتُ ذراعه.

«غات».

انتفض. انتصب واقفاً، كان الماء يغمره حتى خصره.

«أنا آسفة»، تمتمتُ.

«لم آمرك أن تسكتي قط يا كادي. لم أستعمل قط تلك الكلمات معك».

«أعرف».

التزم الصمت.

«لا تسكتْ، أرجوك».

شعرتُ أن نظرته استقرت على جسدي واخترقت ثوبي المبلّل.

«أنا أتكلم أكثر ممّا ينبغي»، أعلن. «وأتطرق إلى السياسة في كل مكان».

«أحب كلامك»، أجبته.

لأن تلك هي الحقيقة. فحين أتوقف لأصغي إليه، أحب ما أسمعه.

«لأن كل شيء يجعلني...» فتش عن كلمات تناسبه، «العالم يسير على نحو خاطئ، هو ذاك».

«هذا واضح».

«لعله يجب عليَّ...» أمسك يديَّ وقلبهما ليقرأ ما كتبته عليهما... «**اغتنم الفرصة**، وتوقف عن إقلاقي بهذه الطريقة».

كانت يدي في يده.

شعرتُ بالقشعريرة. كانت ذراعاه عاريتَين ومبتلّتين. سبق أن تماسكت يدانا طوال الوقت، لكنه لم يلمسني بعد منذ وصولي.

«أنتَ محق في امتلاك نظرة خاصة بك عن العالم»، قلتُ له.

أفلتني وعاود السباحة على ظهره.

«جوني لم يعد يريدني أن أتكلم، وأنتِ وميرين تجداننني مضجراً».

نظرتُ إلى ملامحه. لم يكن غات وحسب. كان التأمل

والحماس. الطموح والقهوة السوداء. وكل ما يتوارى هناك، وراء عينيه البنيتين، وبشرته المخملية، وشفته السفلى المكتنزة... كان طاقة صرفة، على وشك الانفجار.

«سأبوح لكَ بسرٍّ»، همستُ له.

«ما هو؟».

وضعتُ من جديد يدي على ذراعه. فلم يحرّك ساكناً.

«عندما نقول **اسكتْ، يا غات** فهذا لا يعني إطلاقاً ما تظنه».

«آه، حقاً؟».

«أجل. هذا يعني أننا نحبك. وأنك تذكرنا إلى أي حدّ نحن جميعاً أنانيون قذرون. وأنك لستَ مثلنا، بكل معنى الكلمة».

طأطأ رأسه، وابتسم.

«وهذا رأيك أيضاً، يا كادي؟».

«أجل».

تركتُ أصابعي تسرح على طول ذراعيه الممدودين على السطح.

«كيف يسعكم أن تسبحوا هناك في الداخل؟».

كان جوني قد غامر ونزل في الماء حتى كاحليه، وقد شمَّر أسفل بنطاله الجينز.

«إنها منطقة القطب الشمالي. أشعرُ بأصابع قدميّ متجمِّدة!».

«حين تصبح في الداخل، سيكون الحال رائعاً!» قال له غات.

«هل أنتَ جاد؟».

«لا تجبن! كُن رجلاً وجابه هذا البحر المجنون!».

انفجر جوني بالضحك، واندفع. وسرعان ما قلّدته ميرين.

وكان هذا... رائعاً.

خيّم الليل الفسيح فوقنا. واعتلاج المحيط. وصيحات النوارس.

في تلك الليلة، جفاني النوم.

وبعيد منتصف الليل، سمعته يناديني باسمي.

نظرتُ من النافذة. كان غات مستلقياً على ظهره، وسط الممشى الخشبي المؤدّي إلى المنزل. وكلاب الصيد رقدت قربه، الكلاب الخمسة كلها: بوش، غرنديل، بوبّي، برنس فيليب وفاتي. وراحت أذيالها تضرب الأرض برقّة.

وكان ضياء القمر يغمرهم بنور أزرق.

«انزلي»، هتف لي.

وهو ما فعلته.

كانت أمي قد أطفأت النور في غرفتها. وأصبحت بقية الجزيرة غارقة في الظلام. وصرنا وحيدين، باستثناء وجود الكلاب.

«افسح لي مجالاً»، أمرتُه.

لم يكن الممشى الخشبي عريضاً. وحين تمددنا جنباً إلى جنب، تلامست ذراعانا، ذراعي العارية وذراعه داخل كُمِّ سترة الصيد الخضراء الكاكي.

تأمّلنا السماء. كانت مرصعة بالنجوم. خلناه احتفالاً، كأنه حفلة سرّية نظّمتها المجرّة بعد أن ذهب البشر للنوم أخيراً.

سرّني أنه لم يحاول إظهار معرفته في مجموعات النجوم. أو أنه

لم يتفوّه بتعليقات غير محببة عن الناس الذين يحبون إطلاق الأماني عند رؤيتهم شهباً. لكنني لم أعرف أيضاً كيف أفسّر صمته.

«هل يمكنني أن أمسك يدك؟»، سألني.

فاقت رغبتي رغبته.

«يبدو لي الكون فجأة كبيراً حتى أنني أشعر بالحاجة إلى التشبّث بشيء ما»، أضاف.

«أنا موجودة».

راح إبهامه يداعب راحة كفّي. فأصبح جهازي العصبي برمّته متنبّهاً إلى هذه النقطة المحددة، ومتحسّساً لأي حركة من بشرته على بشرتي.

«لستُ واثقاً أنني شخص صالح»، اعترف أخيراً.

«وأنا أيضاً. أتظاهر بهذا».

«أجل، هذا صحيح».

لزم الصمت لبرهة.

«هل تؤمنين بالله؟».

«جزئياً».

حاولتُ التفكير جدّياً بالسؤال. كنتُ أعرف أن غات لن يكتفي بإجابة مراوغة.

«حين يسوء حالي، أصلّي. أو أتخيّل أحداً يصغي إليّ ويعتني بي. عندما رحل والدي مثلاً، فكرتُ في الله خلال الأيام الأولى. لأشعر بالأمان. لكنني في بقية الأوقات، أتدبّر أمري بنفسي. لا أميل البتة إلى الروحانيات».

«أما أنا، فلم أعد أؤمن به»، أجاب. «رحلتي إلى الهند، وكل هذا الفقر... لا أظن أن إلهاً يسمح بأمر كهذا. وحين عدتُ، بدأتُ

ألاحظ ما يحدث في شوارع نيويورك. أناس مرضى، ليس لديهم ما يأكلونه في إحدى أكثر مدن العالم ثراءً. أنا... أنا لا أستطيع أن أؤمن أن أحداً يعتني بهؤلاء الناس. وهذا يعني أنه لا أحد يعتني بي أيضاً».

«لكن هذا لا يجعلك شخصاً سيئاً».

«أمي مؤمنة. تربّت على يد البوذيين، لكنها تتردد على كنيسة ميثودية. وقد فقدت الأمل مني».

قلما كان غات يتحدّث عن أمه.

«لكن لا يمكنك أن تؤمن بالله بذريعة أنها تطلب منك ذلك».

«لا. السؤال الأفضل هو: كيف يكون المرء صالحاً حين لا يعود يؤمن بكل هذا؟».

حدّقنا مطولاً في السماء. عادت الكلاب إلى ويندمير مارّةً من فتحة صمِّمت خصيصاً لمقاسها.

«أنت تشعرين بالبرد»، لاحظ غات. «خذي هذا».

لم أكن أشعر بالبرد، لكنني جلست. وجلس هو أيضاً. فكّ أزرار سترته وناولني إياها.

لم تزل دافئة من حرارة جسمه. وأعرض ممّا ينبغي عند مستوى الكتفين. أصبحت ذراعا المسكين عاريتَين الآن.

رغبتُ في تقبيلهما، بعد أن ارتديتُ سترته. لكنني أحجمتُ عن ذلك.

لعلّه يحب راكيل. وتلك الصور على هاتفه. وهذه الوردة المجفّفة في مغلّف.

٩

عند الفطور في صبيحة اليوم التالي، طلبت ماما أن أتفقّد أغراض بابا في السقيفة وأن آخذ منها ما يهمّني. وستتخلّص من الباقي.

ويندمير هو منزل جَمَلون، في جميع زواياه. غرفتان من أصل خمس غرف نوم تقعان تحت السطوح مباشرة، وهو الفيلّا الوحيدة في الجزيرة التي تتمتع بسقيفة حقيقية. وهو مزوّد أيضاً بمدخل عريض ومطبخ عصري، ومجهّز بطاولة تحضير طعام من الرخام تتنافر قليلاً مع البقية. حُجراته فسيحة، تحتلّها الكلاب على الدوام.

صعدنا أنا وغات إلى السقيفة مع زجاجات من الشاي المثلّج وجلسنا على الأرض مباشرة. كانت تفوح برائحة الخشب. ومربّعٌ من الضوء يسطع عبر زجاج النافذة.

سبق وذهبنا إلى هذه السقيفة.

ولم نذهب إليها من قبل قط.

كانت توجد فيها أطنان من الكُتب التي قرأها بابا خلال إجازاته الصيفية. سير ذاتية لرياضيين، روايات بوليسية شيّقة واعترافات مثيرة عن نجوم الروك كتبها أشخاص على الطراز القديم لم أسمع بهم قط. لم يهتم غات بكل هذا فعلاً. واستمتع في فرز الكُتب حسب ألوانها: كدسة حمراء، وزرقاء، وبيضاء، وكستنائية، وصفراء.

«ألا ترغب بقراءة شيء منها؟»، سألته.

«بلى، ربما».

«لماذا لا يكون كتاب **مذكرات عاشق المضرب؟**».

أضحكه هذا، لكنه هزّ رأسه بالرفض وأعاد ترتيب كدسة كتبه الزرقاء.

«**حكاية صبي شقي؟ بطل حلبة الرقص؟**».

ضحك من جديد. ثم صار جديّاً.

«كادنس؟».

«ماذا؟».

«اسكتي».

رحتُ أراقبه. كانت كل قسمة من قسمات وجهه مألوفة لي، وفي الوقت نفسه كنتُ كأنني أتأمّله للمرة الأولى.

ابتسم. مشرقاً. وخجولاً. جثا على ركبتيه، وراح يرمي بأكداس كُتبه الجميلة في الممرّ. مدّ يده وشعّث شعري.

«أحبكِ، كادي. إنها الحقيقة».

انحنيتُ لأقبّله.

لمس وجهي. ومسَّ مسّاً خفيفاً عنقي وكتفي. كنا نستحم في بركة ضوء يتسلّل من زجاج النافذة. وكانت قبلتنا في آن معاً متوترة ورقيقة،

متردّدة وواثقة،

مخيفة ورائعة.

شعرتُ بالحب يتدفق مني نحوه ومنه نحوي.

كنا دافئَين ومرتعشَين،

شابَّين وعجوزَين،

وعلى الأخص حيويين.

هذا صحيح، فكّرتُ، لقد تبادلنا الحب الآن.
هذا هو الحب فعلاً.

10

فاجأنا جدي بدخوله إلى السقيفة. قفز غات وتعثّر على نحو أخرق بالكُتب المبعثرة في كل مكان على الأرض.
«أزعجتكما»، قال جدي.
«لا، أؤكد لك».
«بلى، أرى ذلك بوضوح».
«آسفة بشأن الغبار»، صرّحتُ.
غريبٌ أن أقول هذا.
«تظن بيني أنني قد أجد السعادة بين هذه الكُتب».
سحب جدي كرسياً من الخيزران إلى وسط الحُجرة وجلس، وانحنى إلى الأمام ليقرأ الأغلفة.
ظلَّ غات واقفاً. اضطر أن يحني رأسه ليقف تحت السقف المائل.
«احذر أيها الشاب»، نبّهه جدي فجأة بنبرة جافة.
«عفواً؟»
«انتبه لرأسك، في الأعلى. قد تؤذي نفسك».
«معك حقّ»، أجاب غات. «كل الحق. أكاد أصدم رأسي».
«إذاً، احذر»، كرّر جدي.
نكص غات على عقبيه ونزل السلَّم دون أن ينبس ببنت شفة.

بقيتُ أنا وجدي جالسَين بصمت لبرهة.

«إنه يعشق المطالعة»، أوضحتُ أخيراً. «قلتُ لنفسي إنه قد يود الحصول على بعض كتب أبي».

«أنا مهتمٌ بك فعلاً يا كادي»، أجاب وهو يربّت على كتفي. «فأنتِ البكر بين أحفادي».

«وأنا أحبك أيضاً يا جدي».

«هل تتذكرين حين اصطحبتك لمشاهدة مباراة بيسبول؟ لم يكن عمرك سوى أربع سنين».

«أجل».

«لم تكوني قد أكلتِ الفشار من قبل».

«أعرف. وأنتَ اشتريتَ علبتين منه».

«واضطررتُ أن أجلسك على ركبتَي لتستطيعي مشاهدة شيء من المباراة. هل تتذكرين يا كادي؟».

تذكرتُ ذلك بمنتهى الوضوح.

«أخبريني».

كنتُ أعرف ما ينتظره جدي مني. إنه التماس اعتادَ عليه. كان يحب أن يحيي اللحظات العظيمة في تاريخ عائلة سنكلير وأن يضخّم أهميتها. كان يسألنا دوماً عمّا تثيره هذه الذكرى أو تلك فينا، وكان يفترض بنا أن نجيبه إجابة مفصّلة. مع صور دقيقة. وحتى أن نستخلص عبرة في نهاية المطاف.

عادةً، كنت أحب رواية هذه الحكايات وسماعها مراراً وتكراراً. أسطورة عائلة سنكلير، والحياة المدهشة التي هي حياتنا، وكم كنا رائعين. لكن في ذلك اليوم، لم يكن مزاجي يسمح بذلك.

«كانت تلك أول مباراة بيسبول تشاهدينها»، أصرَّ جدي. «وبعدها، اشتريتُ لكِ مضرباً من البلاستيك الأحمر. ورحتِ تتدربين فوق مرجنا في بوسطن».

هل كان جدي يعرف ماذا قطع علينا عند دخوله السقيفة؟ وهل كان سيغتاظ لو عرف ذلك؟

متى سأرى غات ثانية؟

هل سيقطع علاقته مع راكيل؟

ماذا سيحدث بيننا؟

«أنتِ أردتِ صنع الفشار في المنزل»، استطرد جدي مع أنه سبق لي أن حفظتُ القصة عن ظهر قلب. «وبيني ساعدتكِ. لكنكِ بكيتِ لأنه لم تتوفر عبوات صغيرة حمراء وبيضاء لتعبّئيه فيها. هل تذكرين؟».

«أجل، جدي». رضختُ في النهاية. «وعدتَ أنتَ إلى الملعب في اليوم ذاته لتشتري لي علبتين من الفشار. وأكلتهما في السيارة حتى تعطيني العلبتين الفارغتين. أتذكّر ذلك».

نهض مسروراً وغادرنا السقيفة معاً. راح جدي يترنّح بعض الشيء وهو ينزل الدرجات، فوضع يده على كتفي.

وجدتُ غات على الدرب الدائري وهرعتُ لملاقاته. كان نظره مركّزاً على المحيط. وكانت الريح تعصف بقوة وشعري يدخل في عينيّ. حين قبّلته، كان لشفتيه طعم الملح.

ماتت جدتي تيبر بأزمة قلبية في بيتشوود آيلاند قبل الصيف الخامس عشر بثمانية أشهر. كان جمالها يحبس الأنفاس، رغم كبر سنّها. سحابةٌ من الشعر الأشيب، وجنتان متورّدتان، قوام ممشوق وبارز التقاطيع. هي من نقلت حبّها للكلاب إلى أمي. كان لديها دوماً كلبان على الأقل، وأحياناً أربعة كلاب سلوقية شقراء حين كانت بناتها صغيرات، واستمرَّ هذا الحال حتى مماتها.

كانت تحكم على الآخرين بسرعة ولديها مشجّعون، لكن قلبها كان حنوناً أيضاً. في طفولتنا، حين كنا نستيقظ باكراً في بيتشوود، كان يحق لنا الذهاب إلى منزل كليرمونت لإيقاظها. ظلت دوماً تحتفظ بعجينة الكعك في الثلاجة وكانت تسكبها في قوالب صغيرة، ثم تدعنا نأكل قدر ما نشاء من الكعك الساخن قبل أن تستيقظ بقية الجزيرة. وتصطحبنا لنقطف الفراولة وبعد ذلك تساعدنا في صنع الحلوى أو معجنات من ابتكارها سمتها «سلامب»، نتلذّذ بها كتحلية في المساء نفسه.

من بين التزاماتها الخيرية العديدة، راحت تنظّم كل عام حفلاً لجمع التبرعات لصالح معهد فارم في مارثاز فاينيارد. وكنا نذهب إليه جميعاً. كان يقام في الهواء الطلق، تحت خيم بيضاء رائعة. كان الصغار يركضون على المرج الأخضر، حفاتٌ يرتدون أبهى ملابسهم. كنا أنا وغات وميرين وجوني نحتسي أقداح النبيذ سرّاً وننتشي بالقهقهة المجلجلة. كانت جدتي ترقص مع جوني، ثم مع

أبي، ثم مع جدي، وهي ترفع طرف فستانها بيدها. كنتُ أحتفظ فيما مضى بصورة لها التُقطت في أحد هذه الحفلات. كانت ترتدي فستان سهرة وتحتضن خنزيراً صغيراً بين ذراعيها.

في الصيف الخامس عشر، لم تعد إذاً جدتي تيبر موجودة بيننا وبدا لنا كليرمونت خاوياً تماماً.

منزل كليرمونت هو فيلّا رمادية مؤلّفة من طابقين، على الطراز الفيكتوري، يعلوها برج صغير وتحيط بها شرفة. يوجد في داخلها مجموعة رسومات أصلية منشورة في مجلة **نيويوركر**، وصور عائلية، ووسائد مطرّزة، وتماثيل صغيرة، وثقّالة ورق من العاج وأسماك محنّطة على صفائح. وأينما وقع نظر المرء، لن يجد إلا مقتنيات تنم عن الذوق انتقتها جدتي تيبر وجدي. وثمة طاولة منتزه كبيرة تستوعب ستة عشر شخصاً، تتصدّر فوق المرج، وأبعد منها بقليل، أرجوحة من إطار عجلة معلّقة بشجرة قيقب وارفة.

كانت جدتي تيبر منهمكة دوماً في مطبخها وتخطّط بنفسها لجميع النزهات. وكانت تصنع أغطية صوفية في غرفة الخياطة، وهدير آلتها يتردّد صداه في الطابق الأرضي. ولم تنفك تعطي تعليماتها للحرّاس المرتدين بناطيل جينز زرقاء، مع قفازات خاصة بالبستنة.

خيّم الصمت الآن على المنزل. لم تعد هناك كُتب طبخ مفتوحة على طاولة تحضير الطعام، ولا موسيقى كلاسيكية على المسجّل في المطبخ. لكننا لم نزل نجد مجموعة صابونها المفضّلة على كل حاملات الصابون. ونباتاتها المواظبة على النمو في الحديقة. وملاعقها الخشبية، ومناشفها.

يوم أصبح المنزل مقفراً، دفعتُ باب غرفة الخياطة الواقعة على

طرف الطابق الأرضي. تلمّستُ تشكيلة منسوجاتها، والأزرار البرّاقة، والخيوط الملوّنة.

انحنى رأسي وتهدّلت كتفاي أولاً، ثم خارت ركبتاي ووسطي. ورحت أذرف دموعاً غزيرة وسط أنسجتها الجميلة المزخرفة. فأغرقتُ الغطاء الصوفي الذي لم يسعفها الوقت لتنهيه وأحدثتُ صدأ في الأجزاء المعدنية لآلة الخياطة. جدتي، يا جدتي. لقد اختفَت إلى الأبد، لكنني لم أزل أشمُّ رائحة عطرها الشانيل على قصاصات النسيج.

وجدتني ماما هناك.

أمرتني أن أعود طبيعية. لأنني كنتُ هكذا. ولأنني أستطيع أن أكون هكذا. طلبت مني أن آخذ نفساً عميقاً وأقف.

وفعلتُ ما طلبته مني. مرة أخرى.

بدت قلقة على جدي. لم يعد يقف على ساقيه بشكل سليم منذ رحيل جدتي تيبر، وصار يضطر للتمسك بالطاولات والكراسي حتى لا يقع. إنه زعيم العائلة. ولم تكن ماما تريده بشكل خاص أن يفقد توازنه. وحرصت أن تجعله يشعر أن أولاده وأحفاده يحيطون به، وأنهم دوماً أقوياء وسعداء. هذا مهم، راحت تؤكّد؛ وهذا دليل على النبل تجاهه؛ وهذا ما يجب فعله. لا تحدثي ضجة، طلبت مني. لا تذكّري الناس بما افتقدوه.

«أتفهمين يا كادي؟ فالصمت هو طلاء يحمي من الألم».

كنتُ أفهم. ونجحتُ في محو جدتي تيبر من الأحاديث، تماماً مثلما فعلتُ مع أبي. ليس عن طيب خاطر، وإنما بدافع الواجب. على المائدة مع خالاتي، وفي المركب مع جدي، وحتى عندما أكون

بمفردي مع أمي. . . رحتُ أتصرّف كأن هؤلاء الأشخاص العزيزين لم يوجدوا قط. لقد شكّل باقي أفراد قبيلة سنكلير جبهة موحّدة. وحين كنا نجتمع معاً، راح الجميع يُظهرون ألطف ابتساماتهم. تماماً مثلما حدث حين هجرت بيس العم برودي، وعندما ترك العم ويليام كاري أو عندما بيبيرميل، أحد كلاب جدتي تيبر، نفق بالسرطان.

لم يلتزم غات بهذا الأمر قط. وغالباً ما راح يحدّثني عن أبي. لقد وجد بابا فيه خصماً نداً في الشطرنج ومستمعاً مجاملاً لقصصه المملة عن الحرب، وحتى أمضيا بعض الوقت معاً. «هل تذكرين حين التقط أبوك سرطاناً ضخماً في دلو؟»، كان يقول لي. أو يقول أيضاً لأمي: «أخبرني سام العام الماضي أنه توجد صنارة صيد سمك في مستودع القارب. هل تعرفين أين توجد؟».

وأثناء العشاء، كانت الأحاديث تتوقف فجأة حين يذكر جدتي تيبر. وذات مرة، استرسل في منتصف الوجبة: «لا يزال يتراءى لي أن تيبر تقف بجانب الطاولة تعد التحلية، ألم تتراءى لكم؟ إنها هي فعلاً». فاستطرد جوني على الفور معلّقاً على بطولة ويمبلدون بصوت مرتفع حتى يتلاشى الوجوم عن وجوهنا.

وكلما أطلق غات هذا النوع من التعليقات، بلا مبالاته وصراحته الفائقة، وفظاظته أيضاً. . . تفتّحت عروقي. وتمزّق معصماي. وسال دمي في راحتَيّ. وشعرتُ بدوار شديد. فأنهض عن المائدة مترنحة أو أنازع في الصمت والعار آملةً ألا يراني أحد. لا سيما ماما.

لكن غات لم يكن يُفَوِّتُ شيئاً. فحين يسيل الدم على قدميّ الحافيتيْن أو على الكتاب الذي أقرؤه، يبدي اهتمامه بي. يضمّد معصمَي بضمادات من الشاش الأبيض ويسألني عمّا حدث. يسألني

عن بابا وجدتي تيبر، كأن الكلام كفيل بإصلاح كل شيء. كأن الاهتمام بالجراح كفيل بشفائها.

وظلَّ غريباً وسط عائلتنا، حتى بعد مرور كل هذه السنين.

حين يتوقف نزف دمي، وحين يغادر جوني وميرين للغطس مع معدات الغوص أو حين يتشاجران مع الصغار، أو حين يسترخي الجميع على الأريكة يشاهدون فيلماً على شاشة تلفاز بلازما في كليرمونت، كنتُ أهرب أنا وغات. كنا نجلس على الأرجوحة في منتصف الليل، نشابك أذرعنا وسيقاننا، وشفاهنا دافئة في برودة الليل. وفي الصباح، ننزل إلى قبو كليرمونت حيث تُخزّن زجاجات النبيذ والموسوعات العلمية ونحن نتضاحك. هناك، نتبادل القبل كمحظوظَين متخفيَين وكل واحد منا مندهش لوجود الآخر. وفي بعض الأيام، كان يكتب لي رسائل قصيرة ويدسّها مع هدية تحت وسادتي.

كتب أحدهم أن أية رواية هي سلسلة دهشات صغيرة. يخالجني الشعور نفسه حين أمضي ساعة معكِ.

الجائزة هي فرشاة أسنان خضراء محاطة بشريطة.

إنها أفضل تعبير عن مشاعري نحوكِ.

أفضل من الشوكولاتة أيضاً: تلكَ اللحظة ساء البارحة معكِ.

وأنا من كنتُ أعتقد أن الشوكولاتة هي أفضل شيء في العالم.

بلفتةٍ عميقة ورمزية، أقدّم لكِ هذا اللوح من الشوكولاتة الفاخرة أحضرناه من نزهتنا في إدغارتاون. بوسعك أن تأكليه، أو أن تجلسي بجانبه وتشعري بالنامي.

لم أكتب له ردّاً قط. وعوضاً عن ذلك، رسمت له بأقلام التلوين رسوماً صغيرة تمثّل كلانا. أشخاص طيّبون على شكل خطوط هيكلية يلوّحون بأيديهم أسفل مدرّج الكولوسيوم، وعلى قمة برج إيفل أو من قمة جبل، وعلى ظهر تنين. راح يعلّقها فوق سريره.

كان يلمسني كلما أتيحت له الفرصة. تحت طاولة العشاء، في المطبخ الخالي. وخلسةً، بحبور، من وراء ظهر جدي حين يقود المركب ذا المحرك. لم أشعر بأي حاجز بيننا. وعندما تغفل أنظار الآخرين عنا، أنتهز الفرصة وأداعب وجنتيه أو ظهره. كنتُ أبحث عن يده، وأضغط إبهامي على باطن رسغه فأشعر بالدم يتدفق في شرايينه.

مكتبة
t.me/t_pdf

12

ذات مساء من أواخر تموز، في الصيف الخامس عشر، نزلتُ إلى الشاطئ الصغير. وحدي.

أين كان إذاً غات، جوني وميرين؟

ليس لدي أي فكرة.

كان شغف اللحظة الكبير هو لعبة السكرابل، وقد شكلنا لها

فِرَقاً نشطة في ريد غيت. لا شكّ كانوا هناك يلعبون. أو في كليرمونت، يستمعون إلى الخالات يتجادلن وهم مستغرقون في قضم رقائق البسكويت المغطّسة بمربى الخوخ.

على أي حال، ولجتُ الماء بلباس خفيف ضيّق، لباس سباحة بسيط. من الواضح أنني قصدتُ الشاطئ بهذا اللباس. لا توجد أي قطعة أخرى من ثيابي على الرمل. ولا أي منشفة أيضاً.

لماذا؟

وهنا أيضاً، ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك.

لا بدَّ أنني ابتعدتُ عن الشاطئ أكثر ممّا ينبغي. ثمة صخور سوداء ضخمة ومتفرّقة تنتصب في عرض البحر؛ خيالها يحملُ شيئاً من التهديد في العتمة. كنتُ أسبح تحت الماء بلا شكّ، وربما اصطدمت بإحداها صدمةً عنيفة.

وكما قلتُ، لا أعرف شيئاً.

لا أتذكر إلا أمراً واحداً: غصتُ في أعماق هذا المحيط.

حتى القاع الصخري في الأسفل، ورأيتُ قاعدة الجزيرة ولم أعد أحسُّ بذراعَي ولا ساقَي بينما تجمّدت أصابعي. وراحت تطفو من حولي نتف من الأُشْن كلما غصتُ.

عثرت عليّ ماما على الشاطئ، متكوّرة على نفسي، نصف مغمورة بالأمواج. كنتُ أرتعش ارتعاشات لا إرادية. دثّرني الراشدون بأغطية. حاولوا أن يدفئوني في كودلداون. سقوني شاياً وألبسوني ثياباً دافئة، ولكنهم تبيّنوا أنني مصابة بشلل وأن ارتعاشاتي قسرية، فأخذوني إلى مستشفى مارثاز فاينيارد وبقيتُ فيها أياماً عديدة تحت المراقبة. كنتُ أعاني من انخفاض حرارة الجسم، ومن

صعوبات تنفسية وعلى الأرجح من صدمة قحفية، مع أن تصوير الأشعة لم يظهر شيئاً من هذا القبيل.

مكثت ماما بجانب سريري وحجزت غرفةً في فندق مجاور. أتذكر الوجوه الحزينة والمتجهّمة لخالتي كاري وخالتي بيس وجدي. أتذكّر أنني شعرتُ برئتَي مملوءتَين بشيء ما فيما أكّد الأطباء أنهما سليمتَين. وأتذكّر أنني كنتُ أظن أنه لن يسعني الشعور بالدفء ثانية أبداً مع أن حرارتي طبيعية حسب زعمهم. وكانت يداي تؤلماني. وقدماي أيضاً.

أعادتني ماما إلى فيرمونت، في نقاهة. وبقيتُ طريحة الفراش في الظلام، واليأس. لأنني كنت مريضة، لكن على الأخص لأن غات لم يتصل بي هاتفياً ولا مرة.

لم يراسلني أيضاً.

ألم نكن عاشقَين؟

عاشقَين؟

أرسلتُ رسالتَين أو ثلاث رسائل إلكترونية مستعطفة إلى جوني أسأله فيها عمّا حدث مع غات.

أحسن جوني التقدير بتجاهلها. فنحن عائلة سنكلير على كل حال، وعائلة سنكلير لا يتصرّفون على هذا النحو.

توقفتُ عن الكتابة ومحوتُ جميع الرسائل من ملف «المرسل». كانت سخيفة، وتافهة للغاية.

الحقيقة هي أن غات هجرني وأنا في أوج ألمي.

الحقيقة هي أننا عشنا مجرّد حبّ عابر في عطلة.

الحقيقة هي أنه ربما كان عاشقاً لراكيل.

كنا نعيش بعيدَين للغاية أحدنا عن الآخر، على كل حال.

وكانت عائلتانا قريبتَين إحداهما من الأخرى، على كل حال.
لم أحصل قط على أي تفسير.
أعرف فقط أنه تركني.

13

أهلاً بكم داخل جمجمتي.
شاحنة تسحق عظام رقبتي ورأسي. تتكسر فقراتي، ومخي يخرج. مليار مصباح يدوي يعمون بصري. العالم يترنّح حولي.
أتقيّأ. أفقد الوعي.
هذا ما آلت إليه حياتي. بالنسبة إلي، هذا نهار شبيه بالنهارات الأخرى.
ظهر الألم أول مرة بعد الحادث بستة أسابيع. لم يكن أحد يعرف هل توجد علاقة بين الاثنين، لكنهم لم يستطيعوا إنكار شدّة حالات التقيؤ، وانخفاض وزني والتردّي المريع لحالتي العامة.
أخذتني ماما لإجراء صور رنين مغناطيسي وصور أشعة. حقن، وآلات. ثم أيضاً أكثر من الحقن والآلات. أجريتُ مجموعة فحوصات لأتأكّد إن كنتُ مصابة بورم في الدماغ أو التهاب سحايا، أو شيء من هذا القبيل. ولتهدئة الألم، وصفوا لي دواءً، ثم اثنين، ثم ثلاثة، لأن الأول لم ينجح ولا الثاني أيضاً. كتبوا لي الوصفة تلو الوصفة دون أن يعرفوا حتى الخلل. مجرد قصة تخفيف الألم.
كادنس، كان الأطباء يقولون لا تكثري من تناول الأقراص.
كادنس، كان الأطباء يقولون انتبهي حتى لا تصبحي مدمنة.

لكن رغم ذلك، احرصي يا كادنس أن تأخذي علاجك.

حدّدوا لي مواعيد كثيرة لم أعد أتذكرها حتى. وأخيراً، توصّلت هيئة الأطباء إلى تشخيص. كادنس سنكلير إيستمان: حالات صداع نصفي ناجمة عن الصدمة. بمعنى آخر، آلام حادة في الرأس سبّبتها صدمة في قحف الرأس.

سيُعالج هذا، أكّدوا لي.

لن تموتي.

ستتألمين كثيراً فقط.

14

وبعد سنة في كولورادو، رغب بابا فجأة برؤيتي. في الحقيقة، أصرّ أن يصحبني لزيارة إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، واسكتلندا. رحلة سياحية لعشرة أسابيع يُفترض أن تبدأ منتصف حزيران، ما يعني أنني لن أقضي الصيف السادس عشر في بيتشوود.

«جاءت هذه الرحلة في أوانها»، قالت ماما بحماس وهي توضّب حقيبتي.

«لماذا؟».

كنتُ متمددةً على الأرض، في غرفتي، بينما هي تهتم بكل شيء. كنتُ أشعر بألم في رأسي.

«جدك يقوم بترميم كليرمونت».

كانت تلفُّ أزواجاً من الجوارب على شكل كُرة.

«سبق وأخبرتك بهذا مليون مرة».

لم أتذكر شيئاً من ذلك.

«لماذا؟».

«هذا ما خطر له. سيسكن في ويندمير طوال الصيف».

«معكِ كمرافقة له؟».

هزّت ماما رأسها.

«لا يمكنه البقاء مع بيس، ولا مع كاري. وأنت تعرفين أنه بحاجة إلى من يهتم به. أما أنتِ، ستكتشفين أشياء رائعة في أوروبا».

«أفضّل الذهاب إلى بيتشوود».

«بالتأكيد لا»، أنهت بنبرة حازمة.

في أوروبا، رحتُ أتقيّأ في دِلاء صغيرة وأنظّف أسناني مرات عديدة في اليوم بمعجون أسنان إنكليزي كلسي. بقيتُ ممدّدة على الأرض في مراحيض أكثر من متحف، أستمتع بالملمس البارد للبلاط على خدي بينما دماغي يسيل وينزّ من أذنَي. كانت نوبات الصداع تترك آثار دماء على أسرّة غُرف الفندق، قطرات دم تسقط على الأرض وتبرقع السجاد، وحتى بقايا الكرواسان والبسكويت الإيطالي المتروك على الطاولات.

كنتُ أسمع أبي يناديني لكنني أنتظر حتى تأخذ الأدوية مفعولها لأردّ عليه.

غلبني الشوق إلى الكذّابين في ذاك الصيف.

لم نتواصل قط خلال العام الدراسي. أو على كل حال قلّما تواصلنا، مع أننا بذلنا بعض الجهود حين كنا أصغر سنّاً. كنا نرسل رسائل قصيرة بالهواتف المحمولة، ونضع إشعارات مشاركة على

صورنا في العطلة، لا سيما عند العودة إلى المدرسة، لكن علاقاتنا تنتهي دوماً إلى التلاشي بعد بضعة أسابيع. وعلى نحو غريب، كان سحر بيتشوود يبقى خارج حياتنا اليومية. لم تكن تراودنا أية رغبة للتحدث فيما بيننا عن رفاقنا في الصف، وعن نوادينا المدرسية وفرقنا الرياضية. كنا نعرف أن صداقتنا تتجدد حين يلتئم شملنا على الجسر الخشبي العائم في شهر حزيران التالي، مع هبوب الريح البحرية وضوء الشمس الشاحب المتلألئ على سطح المحيط.

لكنني في العام الذي تلا حادثتي، خسرتُ أياماً وأسابيع دراسية كاملة. رسبتُ في امتحانات جميع المواد وأخبرني المدير أن عليّ إعادة الصف الحادي عشر. فتوقفت عن لعب كرة القدم والتنس. لم يعد بوسعي العمل كجليسة أطفال. ولا حتى قيادة سيارة. وأصبح أصدقائي مجرد معارف.

أرسلتُ رسائل هاتفية قصيرة إلى ميرين. اتصلتُ بها، وتركتُ لها رسائل صوتية ندمتُ عليها لاحقاً، لأنها كانت مأساوية ويائسة.

اتصلتُ بجوني أيضاً، لكن بريده الصوتي كان مملوءاً.

قررتُ ألّا أتصل بهم هاتفياً. لم تعد لدي رغبة في الحديث عن أمور تُشعرني بالخجل.

حين اصطحبني أبي إلى أوروبا، كنتُ أعرف أن الكذّابين اجتمعوا على الجزيرة. لأن الهواتف المحمولة لا تعمل، فرحتُ أرسل لهم رسائل إلكترونية. وعلى عكس من رسائلي الصوتية المنتحبة، كانت رسائل مرحة وشيّقة، كأن شخصاً بكامل صحته كتبها.

وأخيراً، هذه بعض منها.

ميرين!

تحياتي من برشلونة، حيث شرب أبي حساء الحلزون.

كل شيء ذهبي في فندقنا. حتى الملّاحات. إنه ابتذال لا يوصف.

اكتبي لي لتخبريني عن حماقات الصغار، وإلى أية كلية ستذهبين وهل وجدتِ حبك الكبير.

كادنس

* * *

جوني!

بونجور من باريس، حيث أكل أبي ضفدعة.

شاهدتُ مجسّم آلهة ساموتراس. جسد مذهل. بلا ذراعين.

أفتقدكم جميعاً. كيف حال غات؟

كادنس

* * *

ميرين!

تحياتي من قصري في اسكتلندا حيث أكل أبي كرشة الخروف. وبالتحديد، التهمَ قلب وكبد ورئتَي نعجة مخلوطة بجريش الشوفان المطبوخ في كرشها.

باختصار، أبي هو شخص يأكل القلب.

كادنس

* * *

جوني!

أنا في برلين، حيث أكل أبي السجق الأسود.

اغطسوا من أجلي. وكلوا فطيرة التوت. العبوا التنس. أوقدوا نار المخيّم. ثم أخبروني. أنا أضجر حتى الموت وأنوي أن أخترع كل أنواع العقوبات الجسدية غير المألوفة لأجلك إن لم تنفّذ تعليماتي.

كادنس

لم أكن أتفاجأ فعلاً من عدم ردّهم. فعلاوة على أنه كان يجب الذهاب إلى مارثاز فاينيارد للدخول إلى شبكة الإنترنت، كانت بيتشوود عالماً صغيراً منغلقاً على نفسه. حين يصل المرء إليها، يغدو باقي العالم بالنسبة إليه حلماً مزعجاً.

وقد لا توجد أوروبا حين توجد بيتشوود.

15

أهلاً بكم في عائلة سنكلير الرائعة، مكرّر.

نحن نؤمن بمزايا النشاطات في الهواء الطلق.

نحن نؤمن، وإن لم نعترف بذلك صراحةً قط، بمزايا المهدِّئات في الوصفة الطبية والكوكتيلات في بداية السهرة.

نحن لا نناقش مشاكلنا في المطعم. ونكاد لا نتحمّل مظاهر الحزن. شفاهنا دوماً مزمومة، وقد يبدي الناس فضولاً تجاهنا لأننا لا نفتح لهم قلوبنا إطلاقاً.

وقد يشرّفنا فضولهم أيضاً.

هنا، في بيرلنغتون، لم يعد يوجد سوى ماما والكلاب وأنا. لم

يعد علينا أن نتحمل عبء جدي في بوسطن أو العائلة بكاملها في بيتشوود، لكنني أعرفُ حقّ المعرفة كيف يرانا الآخرون. أنا وأمي كائنان منفصلان، معزولتان عن البقية في منزلنا الفسيح بشرفته الواسعة على قمّة التلة. الأم ممشوقة والبنت عليلة. أكتافنا عريضة، ووجناتنا بارزة. وفي المدينة، نُظهر أجمل ابتساماتنا حين نتسوّق حاجياتنا.

البنت العليلة ليست ثرثارة. ومن يعرفونها في الثانوية يفضّلون الابتعاد عنها. وعلى كل حال، لم يكونوا يعرفونها حقّ المعرفة قبل حادثها. آنذاك، في تلك الفترة، لم تكن تتكلم كثيراً.

من الآن فصاعداً، أصبحت غائبة نصف الوقت. حين تكون موجودة، سحنتها الشاحبة وعيناها الباهتتان يعطونها وجهاً تراجيدياً وفاتناً لبطلة رواية مصابة بالتهاب رئوي. أحياناً، تنهار باكيةً. تخيف رفاقها. حتى الأكثر إخلاصاً بينهم يضجرون من اصطحابها إلى المستوصف.

لكن هالةً غامضة ستكتنفها وتحميها من الأذى والسخريات. أمها من عائلة سنكلير.

صدّقوني، أشعر بكل شيء ما عدا الغموض حين أحتسي علبة حساء في وقت متأخّر من المساء أو حين أبقى ممدّدة تحت نيونات مستوصف الثانوية. ولم يكن هنالك ما يجذب في جدالاتي مع أمي منذ رحيل بابا.

أستيقظ وأجدها واقفةً على عتبة بابي، وهي تحدق بي أثناء نومي.

«كفّي عن التجسس عليّ».

«أنا أحبك. أسهر على راحتك»، تجيبني، ويدها على قلبها.

«إذاً، توقفي».

لو كنتُ أستطيع أن أصفق الباب في وجهها، لفعلت. لكنني لا أقوى حتى على النهوض.

أجد في كل مكان تقريباً قوائم مكتوبة بيدها تحدِّد ما أكلته في يوم ما: *خبز بالمربى، النصف فقط؛ تفاح وفشار؛ سلطة مكونة من الزبيب؛ لوح شوكولاتة؛ معجنات. والمرطبات؟ والبروتينات؟ إفراط في تناول البيرة بالزنجبيل.*

لا شيء جذاب في عدم القدرة على القيادة. لا شيء غامض في البقاء منعزلاً في بيتك مساء السبت تطالع وسط كلاب كريهة الرائحة. مع ذلك، أعرف أنني مُرَاقَبة ككائن غامض، كفتاة من عائلة سنكلير، كعضوٍ في طائفة مميزة واستثنائية، كشخص تُكْتَبُ حياته فوراً في الأسطورة، لسبب بسيط هو أنني من هذه القبيلة الخرافية.

أمي تعرف ذلك، هي أيضاً.

لأنهم هكذا ربّونا.

مثل عائلة سنكلير. ومن عائلة سنكلير.

القسم الثاني

فيرمونت

16

حين كنتُ في سنّ الثامنة، أهداني أبي مجموعةً من كتب الحكايات في عيد الميلاد. كان كل واحد منها بلون مختلف: **الكتاب الكبير الأصفر، الكتاب الكبير الأزرق، الأحمر، الأخضر، الرمادي، الكستنائي والبرتقالي**. تتضمن صفحاتها حكايات مستقاة من العالم بأسره، حكايات شديدة التنوع كنتُ أعرفها سلفاً.

وأنتم تقرؤونها، ستسمعون بدايةً صدى القصة المتضمنة داخل القصة، ثم أصداء قصص أخرى أكثر بُعداً. يبدأ عدد منها بالديباجة نفسها: «كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان ثلاثة...».

دوماً ثلاثة من شيء ما:

ثلاثة خنازير صغار،

ثلاثة دببة،

ثلاثة جنود،

ثلاث عنزات صغيرات،

ثلاث أميرات.

بعد عودتي من أوروبا، أخذتُ أكتب حكاياتي الخاصة. رواياتي أنا.

لدي الكثير من وقت الفراغ، لذلك أودُّ أن أروي لكم واحدة منها. رواية مختلفة، كما أخبرتكم، لقصة تعرفونها من قبل.

كان يا ما كان في سالف العصر والآوان، عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال.

حين تقدّمت به السنّ، احتار في أمر توريث مملكته، لأن لم يكن له وريث. لذلك قرّر أن يطلب من كل أميرة أن تبرهن عن عظمة حبّها له.

سألَ البكر:

«أخبريني، إلى أي درجة تحبينني؟».

كانت تحبّه بقدر حبّها لكنوز المملكة.

وسأل الثانية:

«أخبريني، إلى أي درجة تحبينني؟».

كانت تحبّه بقدر ما للحديد من قوة.

وسأل الأصغر سناً:

«أخبريني، إلى أي درجة تحبينني؟».

فكّرت الابنة الصغرى ملياً. وأجابته أخيراً أنها تحبّه كما يحب اللحمُ الملحَ.

«هذا يعني أنك لا تحبيني إطلاقاً»، ردّ الملك.

طردها من القصر ورفع الجسر المتحرِّك حتى لا تستطيع أن تعود أبداً.

وجدت الأميرة الصغيرة نفسها عندئذ في الغابة، دون معطف أو

كسرة خبز. هامت على وجهها تحتمي تحت الأشجار لتتقي برد الشتاء القارس. ثم وصلت إلى نُزُلٍ شغّلوها فيه كمساعدة طاهية. وعلى مرّ الأيام والأسابيع، عملت الأميرة بمشقة وتعلمت مهنتها، وتفوقت في النهاية على معلمتها. وذاع صيت موهبتها في الطبخ في كل أنحاء البلاد.

مرّت السنين، وتزوجت الأميرة البكر أخيراً. ومن أجل وليمة الزواج، طلبوا من طاهية النزل أن تحضّر أكلاتها الخاصة.

طهت خنزيراً مشوياً. كان هذا طبق الملك المفضّل، ولكنها طبخته هذه المرة دون ملح.

تذوّق الملك اللحم.

أول لقمة، ثم ثاني لقمة.

«منْ تجرّأ على تقديم شواء بهذه الرداءة في وليمة زفاف ملكة المستقبل؟»، جأر من الغضب.

مثلت الأميرة الطباخة عندئذ بين يدي والدها، لكنه لم يعرفها إطلاقاً لأن شكلها تغيَّر تغيُّراً كبيراً.

«لم أرغب أن أطعم جلالتكم الملح. ألم تطردوا بنفسكم أصغر بناتكم لأنها صرّحت أنه ثمين؟».

عند سماعه هذه الكلمات، لم يتأكّد الملك أنها ابنته وحسب، وإنما تأكّد أيضاً أنها أكثر أميرة تحبّه من بين الأميرات الثلاث.

وماذا حدث بعد ذلك؟

كانت الأختان الأخريان قد عاشتا في كنف أبيهما الملك كل تلك السنين. وراح يفضّل إحداهما على الأخرى بالتناوب، حسب الأسابيع. صارتا ممزقتين بسبب هوسه الدائم للمقارنة بينهما. أما الآن بعد عودة الابنة الصغرى، فقد أقصى ابنته البكر عن العرش،

وهي لم تكد تتزوج. لن تغدو ملكةً أبداً، في نهاية المطاف. وصارت هي وأختها الوسطى شريرتَين.

في البداية، استمتعت الصغرى باستعادة حبّ والدها. لكنها سرعان ما أدركت أن السلطة جعلته مجنوناً. بالتأكيد، ستتبوّأ العرش، لكن هذا يعني أن تظل محبوسة عند طاغية عجوز خرف إلى آخر عمره. لن تتركه أبداً، مهما اشتدّ جنونه أو مرضه.

هل بقيت لأنها تحبّه كما يحب اللحمُ الملحَ؟

أم لأنه وعدها بالمملكة؟

صعب عليها أن تُفرّق.

17

في الخريف بعد رحلتي إلى أوروبا، أوكلتُ لنفسي مهمّةً: أن أتخلّص من ممتلكاتي يومياً.

أرسلتُ إلى ميرين دميتي القديمة ذات الشعر الطويل التي كنا نتشاجر عليها طوال الوقت حين كنا صغيرتين. وإلى جوني وشاحاً مقلّماً كنت أرتديه غالباً في فترة من الفترات. فهو يعشق الملابس المقلّمة.

كان الراشدون من العائلة -أمي، خالاتي، جدي- مهووسين بفكرة تجميع المقتنيات. ومن تموت أو يموت ومعه الكثير من الأشياء حوله فقد فاز.

فاز بماذا؟ وددتُ فعلاً لو أعرف ذلك.

كنتُ أحب الأشياء الجميلة في الأيام الخوالي. مثل أمي، ومثل كل عائلة سنكلير. لكنني لم أعد أحبها الآن.

ملأت ماما بيتنا في بيرلنغتون بمقتنيات فاخرة من الفضّة والكريستال، وكُتُب جميلة وأغطية من الكشمير. غطّت الأرضيات بسجاد سميك، والجدران بلوحات بعض الفنانين المحليين الذين تباهت بإعانتهم. تحبُّ البورسلان القديم وتعرض كنوزها في صالة الطعام. واستبدلت سيارة الساب وهي في حالة ممتازة بسيارة بي إم دبليو.

لم يكن لهذه الرموز المعبِّرة عن الذوق الرفيع والرخاء أدنى فائدة.

«بالتأكيد للجمال فائدة»، تحتجّ. «إنه يُحدّد معالم فضائنا الحميم وهويتنا. وحتى رفاهيتنا. هل سبق وسمعتِ بمفهوم الرفاهية يا كادنس؟».

لكنني أظنها تكذب على نفسها وعلى الآخرين بشأن السبب الحقيقي لهذا التجميع المحموم. فرعشة مشترى جديد، مهما كانت عابرة، تمنحها شعوراً بالقوة. وأعتقد أن موضوع امتلاك منزل مملوء بالمقتنيات الجميلة وشراء لوحات نفيسة من الأصداف من أصدقائها الفنانين وملاعق فضّية صغيرة من عند تيفاني هو قبل كل شيء مبدأ أساسي في نظرها. فمقتنياتها الأثرية وسجّادها الشرقي يحملون رسالة: قد تكون مربّية كلاب بعد أن تركت دراستها في جامعة رفيعة المستوى لكنها قوية، ما دامت تملك المال.

للتخلّي: وسادتي. حملتها معي وأنا ذاهبة للتسوّق.

فتاةٌ تتسوّل قرب مدخل المكتبة. عند قدميها، وضعَت كوباً من الورق المقوى مع بعض القطع النقدية. لا تكاد تكبرني سنّاً.

«هل تحتاجين وسادة؟»، قلتُ. «غسلتُ غطاءها».

أخذتَها وجلسَت فوقها.

بدا لي سريري تلك الليلة أقل راحة، ولكن بسبب عمل خيري.

للتخلّي: **الملك لير** ككتاب جيب، يُدَرَّسُ في المرحلة الثانوية وعثرت عليه تحت سريري.

أهديته لمكتبة البلدية.

لا أحتاج إلى إعادة مطالعته.

للتخلّي: صورة جدتي تيبر في حفل معهد فارم، مرتدية ثوب سهرة مع خنزير صغير بين ذراعَيها.

أتوقف عند غودويل على طريق المنزل.

«صباح الخير، كادنس»، تقول لي باتي من وراء طاولتها. «هل معك شيء جديد لي؟».

«صورة جدتي».

«يا لها من امرأة رائعة. هل أنتِ متأكّدة أنك لا تريدين الاحتفاظ بالصورة؟».

«أجل، أنا متأكدة من هذا».

جدتي تيبر ماتت. ولن يغيّر الاحتفاظ بصورتها شيئاً.

«هل مررتِ أيضاً إلى غودويل؟»، تسألني ماما عند عودتي.

كانت تقطّع الدرّاق إلى شرائح بسكين الفواكه.

«أجل».

«ممَّ تخلّصتِ هذه المرة؟».

«من صورة جدتي تيبر القديمة»..

«صورتها مع الخنزير الصغير؟»، يرتجف فمها. «أوه، كادي...».

«كانت تخصّني. وأنا حرّة أفعل بها ما أشاء».

تتنهّد أمي.

«إن وهبتِ أحد الكلاب، تكونين أطعتني».

أجثو على مستوى ارتفاعهم. استقبلني بوش وغرنديل وبوبّي بنباح رزين من الداخل. إنها كلاب نبيلة في العائلة، تلقت تغذية وتدريباً جيدَين. كلاب سلوقية شقراء من سلالة أصيلة. وضعت بوبّي دفعات عديدة من الصغار لتربّيها أمي، لكن الجراء كما الكلاب المروّضة الأخرى تعيش عند شريكتها، في مزرعة في ضواحي بيرلنغتون.

«لن أفعل شيئاً كهذا أبداً»، قلتُ.

وهمستُ في آذانهم الناعمة إلى أي درجة أحبهم.

18

حين أكتب على غوغل «صدمة قحفية»، تشرح معظم المواقع التي أقع عليها أن إحدى نتائجها هو فقدان الذاكرة الانتقائي. فإذا أصيب الدماغ، من الشائع أن تعاني الضحية من حالات فقدان ذاكرة

وتجد نفسها على سبيل المثال عاجزة عن صياغة سرد مترابط للحادث الذي وقع معها.

لكنني لا أريدهم أن يعرفوا ذلك. ودوماً لم يُسجّل أي تحسن ملحوظ، رغم المواعيد، وصور الأشعة والأدوية.

لا أريد أن يعاملوني كمعاقة. ولم أعد أريد أدوية جديدة. لم أعد أطيق الأطباء والأساتذة وهم يتظاهرون بالاهتمام. اكتفيت من الأطباء، كما رأيتم.

هذا ما أتذكر، من صيف حادثتي:

أنا، وقعتُ في غرام غات وراء باب مطبخ ريد غيت.

وردته اليابانية من أجل راكيل. ثملي في المساء نفسه، غيظي الشديد.

لا مبالاتي المصطنعة. وصفات تحضير المثلجات. مبارياتنا بالتنس.

السندويتشات ذات الطبقات الثلاث وغضب غات حين قلتُ له أن يسكت.

سباحتنا منتصف الليل.

قبلتي مع غات في السقيفة.

حكاية الفشار وجدي يتكئ عليّ لينزل السلَّم.

العجلة الأرجوحة، القبو، الدرب الدائري. أنا وغات متحاضنان.

غات يراني مدماة. يطرح عليّ أسئلة. يضمّد جراحي.

لا أتذكر شيئاً آخر مهماً.

يد ميرين، بطلاء أظافرها الذهبي والمتقشّر، تحمل صفيحة بنزين إلى المركب.

ماما، قسماتها مكفهرّة، تسأل: «اللآلئ السوداء؟».

قدما جوني الحافيتان تنزلان الدرجات من كليرمونت نحو مرفأ المركب.

جدي يقف مستنداً إلى شجرة، تضيء وجهه ألسنة نار الفرح.

نحن الكذّابون مستغرقون في الضحك حتى أمسكنا خواصرنا وقلوبنا. ولكن ماذا كان يضحكنا إلى هذه الدرجة؟

ماذا كان يحدث، وأين كنا؟

ليس لدي أدنى فكرة.

في البداية، اعتدتُ أن أسأل ماما حين لا أعود أتذكّر تفاصيل الصيف الخامس عشر. كانت حالات فقدان الذاكرة ترعبني. كنت أقول لها إنه ربما حان وقت التوقف عن تناول الأدوية، وتجريب أدوية جديدة أو تغيير الدكتور. كنتُ أتوسل إليها لتخبرني ما نسيته. ثم، ذات يوم من أواخر الخريف -الخريف الذي قضيته في الخضوع لفحوص من أجل اكتشاف أمراض مميتة محتملة- انفجرت ماما بالنحيب.

«أنتِ تطرحين عليّ بلا توقف الأسئلة ذاتها. لا تتذكرين إطلاقاً ما أخبركِ به».

«أنا آسفة».

صبّت لنفسها قدح نبيذ.

«لقد طرحتِ عليّ أسئلة منذ استيقاظكِ في المستشفى. «ماذا حدث لي؟ ماذا أفعل هنا؟» وأخبرتكِ الحقيقة يا كادنس. بقية الأيام مثل ذاك اليوم. وكنتِ تكررين هذه الكلمات ورائي. ولكنك تعودين في اليوم التالي وتطرحين عليّ الأسئلة نفسها».

«أنا آسفة».

«تفعلين ذلك باستمرار، كل يوم تقريباً».

هذا صحيح: لا أتذكر شيئاً عن حادثتي. لا أتذكر ما حدث، لا قبل، ولا بعد. لا أتذكر مواعيدي عند الطبيب. أعرف أنني ذهبتُ إليها بالتأكيد -قدّم تشخيصاً، وعلاجاً يجب متابعته- لكن لدي ثقب أسود تماماً فيما يتعلق بتفاصيل هذه الاستشارات.

راقبتُ أمي. وجهها المهموم يثير أعصابي، عيناها الدامعتان، فمها الجاف بسبب الكحول.

«يجب أن تتوقفي عن طرح أسئلة»، أعلنتْ. «على كل حال، يعتقد الأطباء أنه من الأفضل أن ترجع الذاكرة إليك بشكل طبيعي».

طلبتُ منها أن تروي لي كل شيء لآخر مرة، ودوّنتُ إجاباتها حتى أتمكّن من إعادة قراءتها عند الحاجة. لذلك أستطيع أن أحدّثكم عن حادثة السباحة في منتصف الليل، والصخور، وانخفاض حرارة الجسم، وصعوبات التنفس وفرضية الصدمة القحفية غير المثبتة.

لم أعد أطرح عليها أسئلة على الإطلاق. لم تزل هنالك أمور كثيرة لا أفهمها، ولكن هذا يجنّبها شرب الكحول على الأقل.

19

ينوي بابا اصطحابي إلى أستراليا ونيوزيلندا خلال فترة الصيف السابع عشر بكامله.

لا أرغب في الذهاب إلى هناك.

أريد العودة إلى بيتشوود. أريد أن أرى ميرين وأتمدد في الشمس حتى نتحدث عن مشاريعنا المستقبلية. أريد أن أتشاجر مع

جوني، وأغطس وأُحَضِّرَ المثلجات. أريد أن أوقد نيران المخيم على الشاطئ الصغير. أريد أن ننحشر في أرجوحة شرفة منزل كليرمونت ونصبح من جديد الكذّابين، كما في السابق، إن كان لا يزال ذلك ممكناً.

أريد أن أتذكر حادثتي.

أريد أن أعرف لماذا تبخّر غات. فأنا أجهل سبب عدم مجيئه للسباحة معي. أجهل سبب نزولي وحيدة إلى الشاطئ الصغير. ولماذا كنت بالملابس الداخلية. ولماذا هجرني وأنا في حالة خطيرة للغاية.

أتساءل هل كان يحبني. أم كان يحب راكيل.

كان يفترض بنا، أنا وبابا، أن نطير إلى أستراليا بعد خمسة أيام.

ولم يكن مطلوباً مني أن أوافق إطلاقاً.

أشعر أنني بائسة، وينفطر قلبي من فرط البكاء. أخبرُ ماما أنني لا أحتاج زيارة العالم. أحتاج فقط إلى رؤية عائلتي. مشتاقة لجدي. لا.

سأتألم خلال الرحلة حتى أستراليا. سينفجر رأسي، ويجب ألا أستقل الطائرة. يجب ألا أتناول طعاماً غريباً. يجب ألا أعرّض نفسي لإعياء السفر المديد. وإذا أضعتُ أدويتي؟

كفّي عن النقاش. دفعنا تكاليف كل شيء.

سأنزّه الكلاب في الصباح الباكر. وأملأ غسالة الأطباق وأفرغها عند الانتهاء. وأرتدي فستاناً وأضع مسحوقاً أحمر على وجنتَي. وآكل كل ما في صحني. وأدع ماما تدلّلني وتداعب شعري. أقول لها إنني أودُّ قضاء الصيف معها، وليس مع بابا.

أتوسّلُ إليها.

في اليوم التالي، يأتي جدي لزيارتنا في بيرلنغتون وينام في غرفة الضيوف. كان في بيتشوود منذ منتصف أيار واضطرّ أن يستقل مركباً وسيارة أجرة وطائرة للمجيء إلى منزلنا. لم يأتِ لرؤيتنا منذ زمن طويل قبل وفاة جدتي تيبر.

تذهب ماما لتحضره من المطار. وأثناء ذلك، أبقى في البيت وأجهّز مائدة العشاء. اشترت دجاجة مشوية وملحقاتها من أحد المطاعم الراقية في المدينة.

أصبح جدي نحيفاً منذ آخر مرة رأيته فيها. لديه خصلات شعر بيضاء مشعّثة حول أذنيه؛ كأنه فرخ عصفور. جلده متهدِّل على عظامه، وكرشه صغير طري وظهره مقوّس، ولا يشبه على الإطلاق جدي المختزن في ذاكرتي. هو من بدا لي دوماً لا يُقهر، بمنكبَيه العريضَين المستقيمَين تماماً وأسنانه الناصعة البياض.

جدي هو شخص يعشق المواعظ. «**يجب أن نتقدم إلى الأمام دوماً**»، كان يردّد علينا. و: «**المقاعد الأخيرة للخاسرين. أما الفائزون فيجلسون دوماً في الصف الأول**».

كنا نحن الكذّابون نقلب أعيننا ونحن نسمعه ينطق بأحكَامه -«**يجب أن تعرفوا الثبات؛ فالمترددون لا يهمون أحداً**»؛ «**لا تتذمروا أبداً، ولا تبرّروا أبداً**»- لكنه كان يمارس أيضاً سلطته على الأشخاص الراشدين أمام أعيننا.

يرتدي جدي سروالاً قطنياً قصيراً وينتعل خفّاً. ساقاه ساقا عجوز هزيلتان. يربّت على ظهري وطلب مني أن أقدِّم له ويسكي مع الصودا.

وأثناء الوجبة، يحدّثني عن أصدقائه في بوسطن. وعن مطبخه

الجديد في منزله في بيتشوود. وعن أمور أخرى ليست بالأهمية ذاتها. وبعد ذلك، ترفع ماما المائدة بينما أصحبه للقيام بجولة في الحديقة. لم تغب الشمس بعد بالكامل.

يقطف زهرة عود الصليب ويناولني إياها.

«هذه لبكر أحفادي».

«تجنّب قطف الأزهار، اتفقنا؟».

«لن تقول بيني شيئاً».

«أنتَ لا تعرفها».

«كانت كادنس الأولى»، يعلن ملتفتاً إلى السماء بدل أن يتوجه نحوي. «أتذكر كل زيارتها الأولى لمنزلنا في بوسطن. كانت ترتدي ثوباً ورديا وشعرها مرفوع على رأسها. لم يولد جوني إلا بعد ثلاثة أسابيع».

«أنا هنا يا جدي».

«كانت كادنس الأولى، ومسألة أنها بنت لم يكن بأي حال مخيّباً للأمل في رأينا. كنت مستعداً لأقدّم لها كل شيء. تماماً كما كنت لأفعل هذا مع صبي. رقصت معها وهي في أحضاني. كانت مستقبل عائلتنا».

أومئ برأسي.

«رأينا على الفور أنها واحدة من عائلة سنكلير. كان شعرها مثل شعرهم بالتأكيد، لكن ليس هذا فحسب. كانت تشبههم بذقنها ويديها الصغيرتين. كنا نعرف أنها ستصبح طويلة. فنحن جميعاً طوال القامة في العائلة حتى تزوجت بيس ذاك القصير. وحتى ارتكبت كاري الخطأ ذاته».

«هل تريد الحديث عن برودي ووليام؟»

«بئس المصير، أليس كذلك؟»، يبتسم. «كان جميع أفراد عائلتنا طوالاً. هل تعرفين أن أجدادنا، أقرباء أمي، كانوا من أوائل المهاجرين الوافدين إلى أميركا على متن سفينة **ماي فلاور**؟ وقد عبروا المحيط الأطلسي ليستقروا في القارة الجديدة».

أعرف أنه لا أهمية لوصول أجدادي على متن سفينة **ماي فلاور**. ولا أهمية لأن أكون طويلة. أو شقراء. ولهذا السبب بالذات صبغت شعري: لا أرغب أن أكون البكر. وريثة الجزيرة، والثروة، والآمال العائلية.

ولكن ربما بلى، في نهاية المطاف.

أفرط جدي في الشرب بعد يوم سفر طويل.

«ما رأيك أن نعود؟»، أقول. «ألا تريد الجلوس؟».

يقطف عود زهرة صليب أخرى ويناولني إياها.

«وهذه لأستميحك العذر يا حسنائي».

أربّتُ على ظهره المقوّس.

«هذا يكفي، اتفقنا؟».

ينحني ويداعب زهرة خزامى بيضاء.

«فعلاً يا جدي. أنا لا أمزح».

يقطف زهرة ثالثة بحركة فظة، واستخفاف. ويقدّمها لي.

«أنتِ حفيدتي كادنس. البكر».

«نعم».

«ماذا حدث لشعرك؟».

«صبغته».

«لم أعرفك لدى وصولي».

«لا يهم».

يشير جدي إلى زهرات عود الصليب الثلاث، المضمومة بشدة في يدي.

«ثلاث زهرات لك. تكفينا ثلاث منها فعلاً».

يبدو مثيراً للشفقة، وجبّاراً.

أحبُّ حبَّه، لكنني لستُ متأكدة من أنني أحبُّ صداقته. أمسك يده لأعيده إلى الداخل.

20

كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال. كان حنوناً على كل واحدة منهنّ. وذات يوم، حين صارت الأميرات في سنّ الزواج، هاجم المملكة تنين مرعب له ثلاثة رؤوس، وأحال كل قراها إلى رماد. خرّب محاصيلها وأحرق كنائسها. قتل الرضّع والمسنين، وكل من صادفهم في طريقه.

وعدَ الملك بتزويج إحدى بناته لأي شخص يقضي على هذا التنين. وتقدّم الأبطال والمحاربون المدجّجين بالسلاح، وامتطوا صهوات جيادهم بشموخ مشرعين السهام والسيوف.

وراح التنين يقتل هؤلاء الرجال ويلتهمهم واحداً بعد الآخر.

وأخيراً، قال الملك في سره لعلّ فتاة عذراء تستطيع أن تهدئ قلب التنين. فأرسل بكر بناته إلى هذا الوحش لتتوسّل إليه، ولكنه لم يشأ الاستماع إليها. ابتلعها حية.

ثم أرسل الملك ابنته الثانية إلى التنين لتتوسل إليه، لكنه فعل

فيها الشيء عينه. وابتلعها حية قبل أن تتمكن من التفوه بكلمة واحدة.

أرسل الملك عندئذ ابنته الثالثة والأخيرة إلى التنين لتتوسل إليه؛ وكانت من الجمال والذكاء بحيث لم يراوده أدنى شكّ في نجاحها في المهمّة التي فشل فيها الآخرون جميعاً.

ولكن لا. التهمها التنين أيضاً.

جُنَّ الملك من الألم. ووجد نفسه وحيداً في العالم.

دعوني الآن أسألكم سؤالاً: من قتل الأميرات؟

التنين، أم الأب؟

في اليوم التالي لمغادرة جدي، تتصل ماما بأبي لتلغي سفري إلى أستراليا. أسمع صياحاً. ومفاوضات.

وأخيراً، يتفقان أن أذهب لقضاء أربعة أسابيع في بيتشوود هذا الصيف قبل أن أذهب إلى منزله في كولورادو التي لم يسبق لي أن ذهبت إليها بعد. يُصرّ. يريد أن يراني خلال العطلة، وإلّا سيلجأ إلى المحامين.

تتصل ماما بشقيقتيها. تتحدث معهنّ مطوّلاً، كلاً على حِدة تحت شرفة البيت. لا أسمع شيئاً ممّا تقوله، باستثناء شذرات من جملة عابرة: لم تزل كادنس ضعيفة للغاية، بحاجة ماسة إلى الراحة... أربعة أسابيع فقط، وليس الصيف كله... لا نريد انفعالات شديدة. تتماثل للشفاء ببطء.

وأيضاً: نبيذ بينوت غريجيو، ونبيذ سانسر، وقليلٌ من نبيذ ريسلنغ ربما؛ وحذاري من نبيذ كاردوناي.

21

غرفتي شبه فارغة الآن. لدي أغطية ولحاف على سريري. وهناك حاسوب محمول على طاولة مكتبي. وبعض أقلام الحبر. وكرسي.

لدي بنطال جينز ومثلهما من السراويل القصيرة. وكنزات وقمصان ذات مربعات، وبضع سترات شتوية؛ ومايو سباحة، وحذاء رياضي، وآخر بلاستيكي وجزمة قصيرة الساق. وفستانان وأحذية بكعب عالٍ. ومعطف شتوي، وسترة صيد ومعطف قماشي.

رفوفي فارغة. لا ملصقات، ولا صور. ولا أية لعبة قديمة.

للتخلّي: طقم فرشاة أسنان سفاري جديد اشترته أمي البارحة.

لدي فرشاة أسنان. ولا أعرف لماذا أحضرت لي هذا الطقم. تشتري الأشياء لمجرد التمتع بإنفاق النقود. وهذا يثير اشمئزازي.

أقصد المكتبة سيراً على الأقدام وأصادف الفتاة التي أخذت وسادتي. تقف دوماً في المكان ذاته. أضع طقم فرشاة الأسنان السفاري في كوبها.

للتخلّي: سترة صيد بلون أخضر زيتوني تخصُّ غات. سترة ارتديتها في المساء الذي أمسك كل واحد منا يد الآخر ونحن ننظر إلى النجوم ونتحدث عن الله. لم أُعدها له.

إنه الشيء الذي كان يجب عليّ أن أهبه أولاً. أعي ذلك. لكنني لم أستطع. فهي كل ما تبقّى منه.

كنتُ غبية وضعيفة. غات لا يحبّني.

وأنا أيضاً. لم أحبه قط، على أي حال.

سألتقيه ثانية بعد غدٍ، لا أحبه ولا أريد سترته.

22

يرنُّ الهاتف عند الساعة العاشرة مساء، العشية التي سبقت مغادرتنا إلى بيتشوود. ماما تستحم. أرفع السماعة.

لهاث على الطرف الآخر من الخط. ثم ضحكة مجلجلة.

«من على الهاتف؟».

«كادي؟».

إنه صوت طفل.

«أجل؟».

«أنا تافت».

شقيق ميرين. ظلَّ دوماً وقحاً بإفراط.

«ما يبقيك صاحياً حتى هذه الساعة؟».

«هل صحيح أنك مخدّرة؟»، يسألني.

«لا».

«أنتِ واثقة من هذا؟».

«هل تتصل فقط لتسألني هذا السؤال؟».

لم أتحدث إلى تافت منذ حادثتي.

«نحن في بيتشوود»، يقول. «وصلنا هذا الصباح».

لا يسوؤني أنه غيّر الموضوع. أبادر بنبرة فرحة.

«ونحن سنصل غداً. هذا رائع، أليس كذلك؟ هل سبحتم؟».

«لا».

«وهل لعبتم بالأرجوحة العجلة؟».

«لا»، يجيب تافت. «هل أنتِ واثقة أنكِ لستِ مخدّرة؟».

«من أخبرك بمثل هذا الأمر؟».

«بوني. تظن أن عليّ أن أراقبكِ».

«لا تستمع إليها»، أقول. «الأفضل أن تستمع إلى ميرين».

«أعرف. لكن بوني هي الوحيدة التي تصدّقني فيما يتعلق بكودلداون. تراودني الرغبة في الاتصال بك. ولكن بشرط ألا تتعاطي المخدرات، لأن المخدَّرين يعيشون في عالم آخر».

«لا أتعاطى المخدرات، أيها الغبي»، أقول.

مع أنه من المحتمل أنني أكذب.

«إن كودلداون تسكنها الأشباح»، يشرح تافت. «هل يمكنني المجيء والنوم معك في ويندمير؟».

أشعر بالعطف على ابن خالتي. فهو مضطرب بعض الشيء، وتغطيه بقع النمش، ولم تزل ميرين تحبه أكثر ممّا تحب البنتين التوأم.

«كودلداون ليست مسكونة بالأشباح. هذا فقط صوت الريح التي تهب عبر المنزل»، أقول. «كما في منزل ويندمير. وهذا يجعل زجاج النوافذ تهتز».

«ولكن منزل ويندمير مسكون أيضاً»، يصرُّ تافت. «ماما لا تصدقني، ولا ليبرتي أيضاً».

حين كان صغيراً، كان دوماً يخاف من الأشباح في خزانته. وفيما بعد، أصبح متيقّناً من وجود وحش بحري تحت الجسر الخشبي العائم.

«اطلب من ميرين أن تساعدك»، أقول له. «ستقرأ لك قصة حتى تنام أو تغني لك أغنية».

«هل أنت واثقة؟».

«كل الثقة. وحين سأكون عندكم، سنذهب للغطس مع معدّات الغوص وسنمضي صيفاً رائعاً يا تافت».

«اتفقنا».

«لا تخف من هذا الكوخ القديم السخيف. دعه يرى من هو الزعيم، وسنلتقي غداً».

يغلق السماعة حتى دون أن يقول إلى اللقاء.

القسم الثالث

الصيف السابع عشر

23

في مدينة وودز هول الساحلية الصغيرة، نترك أنا وماما كلاب الصيد السلوقية الشقراء تنزل من السيارة ونجرُّ حقائبنا لنذهب للقاء خالتي كاري التي تنتظرنا على الرصيف البحري.

تضم كاري مطولاً شقيقتها في أحضانها قبل أن تساعدنا في رفع أمتعتنا والكلاب إلى المركب الكبير ذي المحرك.

«أصبحتِ أجمل من ذي قبل»، تقول لأمي. «توقعتُ حضورك!».

«أوه، لا تبالغي»، تحتجّ.

«أعرف أنك كنتِ مريضة»، تستطرد كاري وهي تلتفت نحوي.

إنها أطول خالاتي، والبكر بين بنات سنكلير. ترتدي كنزة طويلة من الكشمير. ثمة تجاعيد عميقة تنطلق من زاويتَي شفتيها. حليها من حجر اليشب القديم كانت سابقاً لجدتي تيبر.

«قرص مهدّئ مع رشفة فودكا وسيكون كل شيء على ما يرام»، أقول.

تقهقه كاري، لكن ماما تميل نحوها وتهمس لها:

«هي ليست تحت تأثير مهدّئ على الإطلاق. إنها تتعاطى فقط مسكّناً وصفه لها طبيبها ولا يسبب الإدمان».

هذا كذب. فالأقراص التي لا تسبب الإدمان ليست فعّالة.

«إنها نحيفة جداً»، تلاحظ كاري.

«بسبب الفودكا»، أقول. «إنها تملأ المعدة جيداً».

«لا تقوى على الأكل حين تأتيها النوبات»، تصحّح ماما.

«حالات الصداع النصفي تسبب لها الغثيان».

«صنعتْ لكِ بيس فطيرتكِ المفضّلة بالتوت»، تقول لي كاري.

تضمّ من جديد ماما بين أحضانها.

«أنتما حساستان للغاية، كلتاكما»، أقول. «لم تقبّل إحداكما الأخرى على هذا النحو من قبل».

تعانقني خالتي كاري أيضاً. كانت تفوح بعطرٍ له رائحة الليمون وباهظ الثمن. لم أرَها منذ وقت مديد للغاية.

كانت رحلة الخروج من المرفأ شديدة البرودة والبحر هائج. جلستُ في مؤخّرة المركب، وبقيت ماما واقفةً بجانب شقيقتها خلف المقود. أترك يدي تنغمس في الماء، فتثير أكاليل زبدٍ يتدفق إلى كُم معطفي.

سأرى غات بعد قليل.

غات، حبيبي غات، الذي ليس حبيبي.

والمنازل. والصغار، والخالات، والكذّابون.

سأسمع صيحات النوارس، وأتمرّغ في الطين وألتهم فطائر الفاكهة وأتناول مثلجات منزلية. سأسمع صوت ارتطام كرات التنس، ونباح الكلاب، وصدى تنفسي في جهاز الغطس. سنوقد نيران المخيم التي ستفوح برائحة الرماد.

هل سأشعر أنني لم أزل في بيتي؟

وها هي معالم بيتشوود المألوفة ترتسم أمامنا منبثقةً من البحر.

أول بيت يتبدّى لنا هو ويندمير، بسطوحه المدبّبة. النافذة الواقعة إلى أقصى اليمين هي نافذة غرفة ماما، بستائرها الأزلية الزرقاء الشاحبة. وغرفتي الخاصة تطل على الداخل.

تلتف كاري حول الساحل وألمح حينئذٍ منزل كودلداون، المشيّد على أخفض جزء من الجزيرة، باستداراته المتصلة على الجوانب. خليج رملي صغير وشديد الانحدار -الشاطئ الصغير- يعشعش في الأسفل، عند قاعدة درج خشبي طويل.

يتحوّل المنظر كلما سرنا على امتداد الضفة الغربية للجزيرة. يصعب عليّ أن أرى ريد غيت بين الأشجار، لكنني أميّز هنا وهناك البقع الحمراء لديكوراته الخارجية. يأتي بعد ذلك الشاطئ الكبير، المزوّد بدرج خشبي ثانٍ.

يتبوّأ كليرمونت قمة الجزيرة ويطلُّ على البحر من ثلاث جهات. أمط رقبتي لأرى برجه الصغير المألوف، لكنه لم يعد موجوداً هناك. وكذلك الأشجار التي كانت تظلّل مرجه الفسيح المنحدر، اختفت هي أيضاً. وبدلاً من الفيلّا المهيبة على النمط الفيكتوري بغرف نومها الست، وشرفتها ومطبخها الريفي، وبدلاً من البيت الذي يقضي فيه جدي كل فصول صيفه دوماً، أكتشف نوعاً من البناء الحديث المصقول، يجثم فوق تلّة صخرية. لا يوجد سوى حديقة يابانية واحدة من جهة، وصخور من الجهة الأخرى. بناء من المعدن والزجاج. بارد.

توقف كاري المحرك، وهو ما يسهّل المحادثة.

«هذا منزل كليرمونت الجديد»، تعلن خالتي.

«لم يتبقَّ منه إلّا هيكله في العام الماضي. لم أتصور أنه سيزيل المرج»، تعلّق ماما.

«انتظري لتري داخله. جدرانه جرداء. حين جئنا البارحة، كانت ثلاجته فارغة، ما خلا بضع تفاحات وشريحة ثخينة من جبنة هافارتي».

«منذ متى يحب هذه الجبنة؟»، تبدي ماما استغرابها. «وحتى هذا النوع من الجبن ليس لذيذاً».

«إنه لا يعرف التسوّق. جيني ولوسيل، الطاهية الجديدة، تطيعان تعليماته بدقة. يقتصر في طعامه على رقائق الخبز بالجبن. لكنني كتبت لهما البارحة قائمة بطول ذراع، وذهبتا إلى سوق إدغارتاون. لدينا الآن ما يكفينا لعدة أيام».

ترتعش ماما.

«يسرني أننا عدنا، أنا وأنت».

أراقب المنزل الجديد وهما تتابعان ثرثرتهما. كنتُ أعرف أن جدي قد باشر أعمال الترميم؛ وقد تطرّق هو وماما إلى مطبخه الجديد عند زيارته الأخيرة لنا. البراد والثلاجة، وجرار التسخين، ورفّ التوابل.

لم أفهم أنه هدم الفيلا القديمة. وأن المرج اختفى. والأشجار، خاصةً شجرة القيقب المعمِّرة مع أرجوحتها. لا بدَّ أن عمرها مئة عام.

ترتفع موجة أمامنا، زرقاء داكنة، تنبثق فجأة من البحر مثل حوت. تنتصب أمامي. أشعر بقذالي يتشنّج، وحلقي يغص. أتكوّر على نفسي تحت ثقل الماء. ويتدفق الدم إلى رأسي. إنّي أغرق.

وأثناء ذلك، يملأني التفكير بشجرة القيقب المعمِّرة والأثيرة وأرجوحتها ذات العجلة بحزن غامر لا يُحتمل. لم نخبر قط تلك

الشجرة عن مقدار حبنا لها. لم نطلق عليها قط اسماً، ولم نفعل قط شيئاً من أجلها. كان بوسعها أن تظل لزمن أطول بيننا.

أشعر بالبرد. ببرد شديد للغاية.

«كادنس؟».

تنحني ماما نحوي.

أتشبّثُ بيدها.

«كوني طبيعية. وفي الحال».

«ماذا؟».

«لأنك أنتِ هكذا. ولأن بوسعكِ أن تكوني هكذا».

حسنٌ. حسنٌ. كانت مجرد شجرة.

مجرد شجرة بأرجوحة ذات عجلة كنتُ أعشقها.

«لا نريد فضائح»، تهمس لي ماما. «خذي نفساً عميقاً وانتصبي».

أُذعنُ حين أشعر أن جسدي يطاوعني على القيام بذلك، مثلما فعلتُ هذا دائماً.

تحوّل خالتي كاري انتباهنا مستأنفة كلامها بصوت مرح:

«الحديقة الجديدة رائعة، حسبنا أن نعتاد عليها. فيها ركن مجهّز خصّيصاً لتناول الوجبات الخفيفة. يعثر فيها تافت وويل على حصى فريدة يضيفانها إلى مجموعتهما».

تدير المركب نحو الشاطئ، وأرى فجأةً أصدقائي الكذّابين ينتظرونني. ليس على الجسر الخشبي العائم، وإنما قرب سياج متهدّم يحاذي الدرب الدائري.

ميرين، تسند قدمها على الحاجز بلا مبالاة، وتلوّح لي بيدها تلويحات كبيرة فرحة، وشعرها يتطاير في الهواء.

ميرين. السكّر. الفضول والمطر.

جوني يقفز في مكانه وهو يتشقلب.

جوني. الحيوية. المثابرة والتهكم.

غات، حبيبي غات، من حياة سابقة، جاء هو أيضاً يستقبلني. يمكث بعيداً عن أوتاد السياج، على التلة الصخرية المفضية من الآن فصاعداً إلى منزل كليرمونت الجديد. يخاطبني بحركات معقّدة من ذراعيه كأنه يُفترض بي أن أكتشف فيها رموز رسالة مشفّرة. إنه التأمل والحماس. الطموح والقهوة السوداء.

أهلاً بكِ، يقولون لي. ها قد عدتِ إلى بيتك.

24

لم ينزل الكذّابون إلى الجسر العائم حين رسونا، ولا خالتي بيس وجدي. لا يوجد سوى الصغار: ويل وتافت، ليبرتي وبوني.

ابنا الخالة، البالغان سنّ العشر سنوات الآن، يتشاجران ويتبادلان الركلات. يهرع تافت نحوي ويتشبّث بذراعي. أرفعه وألوح به في الهواء. خفّته مدهشة، كأن جسده الصغير المرقّط بالنمش يضمُّ عظام عصفور.

«إذاً، حالكَ على ما يرام؟»، أقول.

«عندنا قطع مثلجات في الثلاجة!»، يهتف. «ثلاثة أنواع مختلفة!».

«حقاً يا تافت. كنتَ تبدو مذعوراً على الهاتف مساء البارحة».

«ولكن لا».

«لكن بلى».

«قرأتْ لي ميرين قصةً. ثم نمتُ. لكن دون خوف».

أشعث شعره العسلي.

«ليس سوى كوخ قديم. يمكن للكثير من البيوت أن تُخيف في الليل، لكنها تغدو لطيفة عند الصباح».

«لم نعد ننام في كودلداون على كل حال»، يشرح لي تافت. «نسكن الآن في منزل كليرمونت الجديد مع جدي».

«حقاً؟».

«يجب ألّا نحدث فوضى ونرتكب حماقات. سبق أن نقلنا حوائجنا. التقط ويل ثلاثة قناديل بحر على الشاطئ الكبير، وسرطاناً بحرياً ميتاً أيضاً. هل ترغبين بالذهاب لرؤيتهم؟».

«بالتأكيد».

«يحمل السرطان في جيبه، أما القناديل في دلو ماء»، يقول لي قبل أن ينطلق راكضاً.

أجتازُ الجزيرة حتى ويندمير مع أمي، مسافة بضع دقائق سيراً على الأقدام على طول طريق النزهة الخشبي. تساعدنا البنتان التوأم على نقل حقائبنا.

جدي والخالة بيس في المطبخ. ثمة باقات زهور برية في مزهريات، وبيس منهمكة في تنظيف المجلى بإسفنجة معدنية فيما يستغرق جدي في قراءة صحيفة **مارثاز فاينيارد تايمز**.

بيس ألطف من شقيقتيها، وأكثر شقرةً أيضاً، لكنها مسبوكة ولا شكّ في القالب نفسه. ترتدي بنطال جينز أبيض، وصدرية زرقاء بحرية قطنية وتتقلّد حلياً من الألماس. تنزع قفازَيها المطاطيَّين قبل

أن تقبّل ماما وتضمّني إليها مطولاً وبقوة، وكأنها تتشبّث بنوع من رسالة سرّية مدفونة في أعماقي. كانت تفوح برائحة المنظّفات والخمر.

ينهض جدي، لكنه ينتظر حتى تنهي بيس عواطفها الجيّاشة قبل أن يأتي لموافاتنا.

«مرحباً، مرحباً يا ميرين»، يقول بنبرة مرحة. «تسرني رؤيتك».

«يفعل هذا طوال الوقت»، تشرح كاري. «يطلق اسم ميرين على أشخاص ليسوا ميرين».

«أعرف أنها ليست ميرين»، يردّ جدي.

يتناقش الراشدون فيما بينهم، وأجدُ نفسي وحيدة مع البنتين التوأم. بدتا غير مرتاحتين بخفوفهم البلاستيكية وأثواب الشاطئ. إنهما في الرابعة عشرة من عمرهما الآن. سيقانهم بارزة العضلات وعيونهم زرقاء كعينَي ميرين، لكن قسماتهما متوترة.

«شعركِ أسود»، تعلّق بيني. «مثل مصاص دماء ميت».

«اسكتي!»، تقمعها ليبرتي.

«في النهاية، لا فائدة من هذا على كل حال ما دام مصاصو الدماء أموات»، تتابع بوني. «ولكن تطوق عيونهم هالات سوداء وبشرتهم بيضاء مثلك».

«كوني لطيفة مع كادي»، تسرُّ لها شقيقتها همساً. «هذا ما طلبته منا ماما».

«ولكن ما أقوله لطيف. غالباً ما يكون مصاصو الدماء مثيرين. هذا معروف جداً».

«قلتُ لكِ إنني لم أعد أريد أن أسمع قصصك التافهة هذا

الصيف. سبق ووضعنا حدّاً لهذا مساء البارحة». تستدير ليبرتي نحوي. «بوني مهووسة بالأموات. لا تقرأ سوى الكتب التي تتحدث عنهم، وبعد ذلك تشتكي من عدم قدرتها على النوم. هذا يرهقني حين أشاركها الغرفة».

تشرح لي كل هذا دون أن تنظر إليّ ولو مرة واحدة.

«كنت أريد فقط أن أتحدّث عن شعر كادي»، تتنهّد شقيقتها.

«لستِ مضطرة أن تقولي لها أنها تبدو ميتة».

«اطمئني»، أقول لبوني. «لا يضيرني ما تعتقدين، لذلك كل شيء على ما يرام».

25

تنطلق العائلة نحو منزل كليرمونت الجديد، بينما أبقى أنا وماما وحيدتين في ويندمير لنوضّب حقائبنا. ألقي حقيبتي في ركن وغادرتُ بحثاً عن الكذّابين.

فجأة، يرتمون فوقي مثل مجموعة جراء صغيرة. تمسكني ميرين من يديّ وتلوحني بشكل دائري. يمسك جوني ميرين، ويمسك غات جوني، يمسك كل واحد منا الآخر ونقفز في الهواء. ثم نفلت أيدينا وندخل منزل كودلداون.

تشرح لي ميرين مقدار سعادتها لأن بيس والصغار يسكنون مع الجد هذا الصيف. فهو لم يعد يستطيع العيش وحده. وصار هوس بيس في ترتيب المنزل لا يُحتمل. ولكن هذا يعني بصورة خاصة أن كودلداون سيكون من نصيب الكذّابين وحدهم. يعلن غات أنه سيعدُّ

الشاي الساخن، شرابه الجديد المفضّل. ينعته جوني بالمغرور. نتبع غات إلى المطبخ. يضع الماء ليسخن.

إنها دوّامة، الجميع يتكلمون في آن معاً ويتشاحنون بفرح، كما في الزمن الجميل القديم. مع ذلك لم يرمقني غات بأي نظرة.

وأنا، لا أستطيع رفع بصري عنه.

إنه وسيم للغاية. وغات للغاية. أحفظ عن ظهر قلب انحناءة شفته السفلى، وصلابة منكبيه. كنزته المدكوكة على عجل في بنطاله الجينز، كعب حذائه المهترئ، وعادته الغريبة في العبث لا شعورياً بندبته الظاهرة على قوس حاجبيه.

إنني في غاية الغيظ. وفي غاية السعادة لرؤيته ثانية.

أظن أنه قَلَبَ الصفحة، كما يمكن لأي شخص طبيعي ومتوازن أن يفعل. لم يمضِ غات العامَين الأخيرَين من حياته يعاني حالات صداع نصفي وشفقة على الذات. خرج مع فتيات نيويوركيات ينتعلن صنادل، واصطحبهنّ لتناول المأكولات الصينية وحضور حفلات موسيقية. وإذا لم يعد بصحبة راكيل، فلأنه ولا شكّ وجد لنفسه رفيقة أخرى، إن لم يكن اثنتين أو ثلاث.

«تغيّر شعركِ»، يقول لي جوني.

«أجل».

«هذا يناسبك»، تعلّق ميرين بنبرة محبّبة.

«ما أطولها»، يقول غات وهو منشغل بين عبوات الشاي بالياسمين، إيرل غراي وأخريات. «هل كنتِ طويلة هكذا، من قبل، يا كادي؟».

«هذا ما يُدعى بالنمو»، أقول. «لا يد لي في هذا الأمر».

منذ عامين، كان غات أطول مني بعدة سنتيمترات. واليوم، أصبحنا تقريباً بالطول ذاته.

«ليس لدي اعتراض»، يقول مرغماً نفسه على عدم النظر إلي. «ما دمتِ لستِ أطول مني».

ألم يكن يتغزل بي إلى حدٍّ ما؟

بلى.

«جوني يسمح لي أن أصبح أطول منه»، يتابع. «لا يفتعل من ذلك مشكلة».

«وكأن لي خيار في الأمر»، يدمدم الشخص المقصود.

«ومع ذلك هذه حبيبتنا كادي»، تتدخل ميرين. «لا بدَّ أنها تجدنا مختلفين نحن أيضاً».

على الإطلاق. لم يتغيّروا البتة. غات وكنزته المعتادة الخضراء ناصلة اللون، هي ذاتها منذ عامين. ابتسامته الحيوية، طريقته في الانحناء إلى الأمام، وأنفه المقدود على عجل.

جوني، لم يزل عريض المنكبين، ببنطاله الجينز وقميصه الزهري ذي المربعات المهترئ حتى نسلت خيوط حواشيه؛ أظافره مقضومة، وشعره مقصوص قصة فرشاة.

وميرين، الخليقة بلوحة تنتمي إلى ما قبل الرافائيلية، بذقنها العريض المميز لعائلة سنكلير. شعرها الطويل الكثيف يلتفُّ بشكل كعكة وترتدي سروالاً قصيراً تكمله حمالة صدر للسباحة.

هذا مطمئن. أحبهم حبّاً جمّاً.

هل سيزعجهم أنني لم أعد أتذكّر شيئاً، حتى التفاصيل الأكثر جوهرية المتعلقة بحادثتي؟ نسيتُ معظم أحداث الصيف الخامس عشر. وأتساءل هل أخبرتهم خالتاي عن حالتي.

لا أريدهم أن يعتبروننى شخصاً مريضاً. أو شخصاً لم يعد بكامل وعيه.

«حدّثينا عن الكلية»، يقول جوني، وهو جالس على طاولة تحضير الطعام. «أين ستذهبين، عند العودة إلى الجامعة؟».

«ولا إلى أي مكان».

كانت تلك الحقيقة، ويستحيل إخفاؤها. يدهشني أنهم لا يعرفون.

«ماذا؟».

«ولماذا هذا؟».

«اضطررت أن أعيد سنتي الأولى في الثانوية. فاتني الكثير من الدروس بعد حادثتي».

«يا للحظ العاثر!»، يهتف جوني. «حظ سيّئ حقاً. ألا يسعك أن تأخذي دروس تعويض خلال العطلة؟».

«إما أن أفعل ذلك، وإما آتي إلى هنا. على كل حال، سأحظى بأكثر من فرصة للدخول إلى الكلية حين أسجّل بعد المصادقة على كل موادي من خلال نشاطي خلال العام».

«ما هي الدراسة التي تودّين متابعتها؟»، يسألني غات.

«لنتكلم في أمر آخر».

«لكننا نريد أن نعرف»، تلحّ ميرين. «هيا، ما هي؟».

«أنا جادة»، أقول. «لنغيّر الموضوع. كيف حال حياتك الغرامية يا جوني؟».

«هي أيضاً، تواجه الحظ العاثر».

أقطب حاجبَي.

«ببنية جسدية متميّزة مثل بنيتي، يكون الأمر معقداً دوماً»، يقول ساخراً.

«عندي حبيب يدعى دريك لوغرهيد»، تصرّح ميرين فجأةً. «يدرس في جامعة بومونا، مثلي. يقدّم لي ورود صفراء كل أسبوع وله عضلات بارزة».

يبخّ جوني شايه. أنفجر أنا وغات ضاحكَين.

«دريك لوغرهيد؟»، يسأل جوني.

«أجل»، تقول ميرين. «ما المضحك إلى هذا الحدّ؟».

«لا شيء».

يهزُّ جوني رأسه.

«منذ خمسة أشهر ونحن نخرج معاً»، تتابع. «ذهب للالتحاق بمعسكر رياضي طوال الصيف، لذلك ستكون عضلاته أكثر بروزاً عند لقائنا!».

«أنتِ لستِ جدية في هذا»، يقول غات.

«حسنٌ، أبالغ قليلاً»، تعترف ميرين. «لكنني أحبه».

أضغط على يدها. يسرّني أنها وقعت في الغرام.

«من الأفضل لكِ أن تطلعيني على مسار العلاقات الرومانسية»، أقول لها بنبرة تهديد.

«حين نصبح لوحدنا»، تعدني. «ستعرفين كل شيء».

نترك أكواب الشاي على طاولة تحضير الطعام وننزل إلى الشاطئ الصغير. نخلع أحذيتنا ونحرّك أصابع أقدامنا في الرمل المرصع بأصداف صغيرة.

«أرفض العشاء في منزل كليرمونت الجديد»، تعلن ميرين. «وأرفض أيضاً تناول الفطور فيه. طوال الصيف».

«لماذا؟»، أقول.

«هذا فوق احتمالي. الخالات. الصغار. وجدي. لقد فقد رشده، كما تعرفين».

أؤيدها.

«يوجد فيه أشخاصٌ كثر. أرغب فقط في قضاء الوقت هنا، معكم. لن أطأ هذا الحصن الجديد البارد. يمكنهم الاستغناء عني».

«وأنا أيضاً»، يقول جوني.

«وأنا أيضاً»، يقول غات.

أدرك أنهم اتخذوا قرارهم حتى قبل وصولي.

26

يلجُ جوني وميرين الماء بمعدّات الغطس وشباك الصيد. يبحثان عن جراد البحر. بالتأكيد لا يكاد يوجد إلا سراطين وقناديل بحر، لكن ذلك لم يمنعنا قط من الغطس على الشاطئ الصغير.

يجلس غات بجانبي على غطاء من الباتيك. نراقب الآخرين دون أن نقول شيئاً.

لا أعرف كيف أحدّثه.

أحبه.

لقد تصرّف كشخص فظّ.

يجب عليّ ألا أحبه. أنا غبية لأنني لم أزل أحبه. سيكون من الأفضل لي أن أنساه.

ربما لم يزل يجدني جميلة. رغم شعري الأسود وعينَي المطوقة بهالات سوداء. ربما.

تتصلّب عضلات ظهره تحت كنزته. قذاله المقوّس، استدارة أذنه الدقيقة. شامة صغيرة متوارية في تجويف عنقه، على الجانب. شكل الهلال عند جذور أظافره. أشربه بنظري بعد انفصالنا المديد.

«لا تنظري إلى قدمَي المشوّهتَين»، يصرّح فجأة.

«عفواً؟».

«إنهما قبيحتان. انسلّ مسخ إلى غرفتي أثناء الليل، وسرق قدمَي الآدميتَين وترك مكانهما قدميه الكبيرتَين المشعرتَين».

يدس قدميه تحت منشفة كي يخبئهما.

«الآن، أنتِ تعرفين الحقيقة».

يريحني أننا نستطيع التحدث ببساطة عن أمور بهذه التفاهة.

«ما عليكَ إلا انتعال حذاء».

«ليس على الشاطئ أبداً».

يخرج قدميه من تحت المنشفة. إنهما طبيعيتان تماماً.

«يجب أن أتصرف وكأن شيئاً لم يحدث حتى أقبض على هذا المسخ. حينئذ، سأقتله وأسترد قدميّ. ألديكِ أسلحة؟».

«لا».

«هيا، حاولي».

«هيه... يوجد محراك جمر قرب مدفأة الحطب في ويندمير».

«ممتاز. حين نصادف المسخ، نقتله بمحراك الجمر».

«كما تشاء».

أستلقي على الغطاء وأضع ذراعي على عينَي. يخيم الصمت علينا ثانية لبضع لحظات.

«المسوخ كائنات ليلية»، أضيفُ أخيراً.

«كادي؟»، يهمس غات.

ألتفتُ نحوه، تتلاقى نظراتنا.

«نعم؟».

«كنتُ أفقد الأمل في أننا سنلتقي يوماً».

«عفواً؟».

إنه قريب مني حتى أنه كان بمقدورنا تبادل القُبل.

«ظننتُ أنني لن أراك ثانية أبداً. بسبب ما حدث، ونظراً إلى أنك لم تكوني هنا العام الماضي...».

لماذا لم تراسلني؟ أرغب أن أردّ عليه. لماذا لم تتصل بي طوال هذه المدة؟

يداعب وجهي.

«يسعدني أنكِ هنا. أنا محظوظ جداً».

لا أفهم ما يحدث بيننا. فعلاً لا أفهم. يا له من صعلوك قذر.

«أعطني يدكِ»، يقول.

لستُ واثقة أنني أريد هذا.

لكنني في الوقت نفسه، أتحرق رغبةً لذلك.

بشرته حارة، رملية. نشبك أصابعنا ونغمض أعيننا لنحتمي من الشمس.

نمكث هناك بلا حراك. أيدينا متماسكة. يداعب راحة يدي بإبهامه كما داعبها منذ عامَين، تحت النجوم.

وأشعر أنني أذوب.

٢٧

كانت غرفتي في ويندمير مكسوّة من الداخل بخشب السنديان، ومطلية بلون الكريم. ثمة لحاف أخضر مبرقع يقوم مقام غطاء سرير. وعلى الأرض حصيرة قطنية بسيطة تشبه الحصر في النزُل الريفية.

كنتِ موجودة هنا منذ عامين، أقول في سرّي. هنا بالتحديد، في هذه الغرفة. وكنتِ تنامين كل مساء. وكل صباح تستيقظين.

وبلا شكّ كنتِ تقرئين، وتلعبين على حاسوبك الصغير، وتختارين ملابسك. فماذا تتذكرين؟

لا شيء.

كانت صور النباتات الساحرة المعلّقة على الجدران تحاذي بعض رسومات طفولتي: لوحة بالألوان المائية لشجرة القيقب التي كانت تتبوّأ قديماً وسط مرج كليرمونت، وصورتان شخصيتان بأقلام التلوين، واحدة لجدتي تيبر برفقة كلبيها، برنس فيليب وفاتي، والأخرى لأبي. أخرج سلة الغسيل من خزانتي الجدارية، وأنتزع جميع الرسومات عن الجدران وأرميها في سلة الخيزران.

لدي رفوف كاملة من كتب الجيب، وروايات خيالية أو مراهقة كنت أطالعها بشراهة منذ بعض السنين. قصص للصغار قرأتها وأعدتُ قراءتها مئات المرات. آخذها وأكدّسها في الممشى.

«هل ستهبين كتبك؟ وأنتِ من تعشقين المطالعة؟»، تعترض ماما وهي تخرج من غرفتها.

بَدَّلَتْ ملابسها من أجل العشاء. ووضعتْ أحمر الشفاه.

«يمكننا أن نهديها إلى إحدى مكتبات مارثاز فاينيارد. أو إلى غودويل».

تنحني ماما وتتصفّح أحد كتبي القديمة.

«قرأنا **أختي ساحرة** معاً، ألا تتذكرين؟».

وافقتُ بإيماءة من رأسي.

«وهذا أيضاً: **حيوات الساحر التسع**. كنتِ في سنّ الثامنة. كنتِ ترغبين بقراءة كل شيء، ولكنك لم تكوني تجيدين القراءة بعد، لذلك رحت أقرأ لكما حينذاك، لكِ ولغات، لساعات».

«وجوني وميرين؟».

«كانا يتحركان ويقفزان باستمرار»، تتذكر ماما. «ألا ترغبين بالاحتفاظ بهذه الكتب؟».

تلمس خدي. فأتراجع إلى الخلف.

«أريد لهذه الأشياء أن تجد مسكناً أفضل»، أقول.

«كنت آمل أن تغيّري مزاجك عند عودتنا إلى هنا».

«أنتِ أيضاً تخلّصتِ من أمتعة بابا. اشتريتِ أريكة جديدة، وصحوناً جديدة، وحلياً جديدة!».

«كادي».

«لم يعد يوجد أي أثر له في بيتنا... ما عداي. لماذا يحق لك أن تمحي أبي ولا يحق لي أنا أن...».

«تمحي نفسكِ؟»، تلقي ماما بسؤالها.

«من شأن هذه الروايات أن تفيد آخرين»، أقول بنبرة جافة وأنا أشير إليها. «أناسٌ يحتاجونها فعلاً. ألا ترغبين أبداً أن تفعلي الخير حولك، من حين إلى آخر؟».

وفي اللحظة نفسها، يتسلق بوبّي وبوش وغرنديل على عجل السلَّم وينطلقون بكل سرعتهم في الممشى ليأتوا ويتشمّموا أيدينا، وهم يهزون بفرح أذيالهم على ركبنا.

توقفتُ أنا وماما عن الكلام.

إلى أن صرّحت أخيراً:

«إذا أحببتِ أن تُمضي فترات العصر في الاستغراق بأحلام اليقظة على الشاطئ الصغير، فليكن. وإذا شعرتِ بحاجة ملحة إلى أن تهبي كتبك في سبيل فعل الخير، فليكن. لكنني أعتمد عليكِ على العشاء بعد ساعة في منزل كليرمونت الجديد مع ابتسامتك الجميلة لتسعدي جدك. لا أريد أن أسمع أي اعتراض. ولن أقبل أي عذر. هل كلامي مفهوم؟».

أشرتُ برأسي بالإيجاب.

عثرتُ على كومة أوراق مؤرّخة منذ عامين، حين كنا أنا وغات في مرحلة استخدام الأوراق المسطّرة. كنا نرسم لساعات ونحن نملأ المربعات الصغيرة بأقلام تلوين خشبية حتى نتسلى في صنع بورتريهات منقّطة.

ألتقط قلم حبر وأبدأ في تدوين كل ما أتذكره من الصيف الخامس عشر.

السندويتشات ذات الطبقات الثلاث، السباحة. السقيفة، وقطع خلوتنا.

يد ميرين، بطلاء أظافرها الذهبي والمتقشّر، تحمل صفيحة بنزين إلى المركب.

ماما، قسماتها مكفهرة، تسأل: «اللآلئ السوداء؟».

قدما جوني الحافيتان تنزلان الدرجات من كليرمونت نحو مرفأ المركب.

جدي يقف مستنداً إلى شجرة، تضيء وجهه ألسنة نار الفرح.

نحن الكذّابون مستغرقون في الضحك حتى أمسكنا خواصرنا وقلوبنا. ولكن ماذا كان يضحكنا إلى هذه الدرجة؟

كرّستُ صفحة منفصلة للحادثة ذاتها. لما أخبرتني به ماما، ولفرضياتي الشخصية. لا بدَّ أنني ذهبتُ للسباحة وحدي على الشاطئ الصغير. لا بدَّ أن رأسي ارتطم بصخرة. لا بدَّ أنني نجحتُ بصعوبة في العودة إلى الشاطئ. أعدّت خالتي بيس وماما الشاي لي. شخّصوا حالتي بأنها انخفاض عام لحرارة الجسم، صعوبات تنفسية وصدمة قحفية لكنها لم تظهر في أي صورة أشعة.

ألصقُ الورقة على الجدار فوق سريري. وأضيفُ قصاصات من الملاحظات مع أسئلة.

لماذا ذهبتُ للسباحة وحدي في عزّ الليل؟

أين ذهبت ملابسي؟

هل صدمتُ رأسي فعلاً وأنا أسبح، أم حدث لي شيء آخر؟

هل ضربني أحد قبل أن أذهب للسباحة؟ هل كنتُ ضحية فعل عنيف؟

وماذا حدث بيني وبين غات؟ هل تشاجرنا؟ هل أخطأتُ بحقه؟

هل توقف عن حبي ليعود إلى راكيل؟

أقرّر جدياً أن أدوّن هنا كل الدلائل التي سأكتشفها خلال

الأسابيع الأربعة القادمة. سأنام تحت ملاحظاتي وسأدرسها كل صباح عند الاستيقاظ.

لعلّ صورة ما ستنبثق من النقاط.

كانت ساحرة تقف ورائي منذ برهة، تترصد لحظة ضعفي. تمسك بيدها تمثالاً من العاج يمثّل إوزّة. تفاصيله منحوتة بدقة. ألتفتُ ولا أكاد أتملاه حتى تلوح الساحرة به بقوة مذهلة لتضربه على رأسي. يصيبني في وسط جبيني. أشعر بعظامي تتشقق. ترفع الساحرة من جديد التمثال، وتضربني فوق أذني اليمنى وتهشّم جمجمتي. تستمر في ضربي مرات ومرات، حتى تتناثر آلاف النتف من العظام والعاج على سريري.

أعثر على أقراصي وأنا أتلمّس في الظلام وأشعل الضوء.

«كادنس؟».

تناديني ماما من الممشى.

«العشاء جاهز في منزل كليرمونت الجديد».

لا أقوى على الذهاب إلى هناك.

لا. لن أذهب.

تعدني ماما بفنجان قهوة لتساعدني على الخروج من الضباب الناجم عن الأقراص. تقول لي أن أفكر بخالاتي اللواتي لم يريني منذ وقت طويل، وبالصغار الذين هم أيضاً أولاد خالاتي. لدي التزامات عائلية.

لا أشعر إلا بتصدّع في قفصي القحفي وبألم ينتشر في دماغي. وكل ما تبقّى يبدو لي ديكوراً غامضاً لخلفية هذا الواقع.

وأخيراً تذهب ماما إلى العشاء من دوني.

٩

في منتصف الليل، يبدأ المنزل بالارتجاج والاهتزاز، مثلما كان هذا يرعب تافت في كودلداون. كل منازل الجزيرة تُحدث هذا الضجيج. فهي قديمة، وتهبُّ عليها رياح عرض البحر.

أحاول العودة إلى النوم.

مستحيل.

أنزلُ السلَّم لأجلس تحت رواق الشرفة. تحسّن حال رأسي الآن.

تمشي خالتي كاري بعيداً فوق طريق النزهة الخشبي، مرتدية قميص نوم وجزمة فرو. تبدو نحيفة جداً، عظام الترقوة بارزة، وخداها غائران.

تنعطف وتبتعد باتجاه ريد غيت.

أبقى في مكاني دون حراك، أتابعها بنظري. أتنشّق هواء الليل وأصغي لهدير الأمواج. وبعد بضع دقائق، تظهر كاري من جديد على طريق النزهة، قادمة هذه المرة من كودلداون.

«كادي»، تقول وهي تتوقف فجأة، عاقدة ذراعيها. «هل أنت بخير؟».

«آسفة لأنني لم آتي إلى العشاء. كنتُ أعاني من الصداع».

«سيكون هناك فرص أخرى للعشاء، كل مساء، أثناء الصيف».

«ألا تنامين؟».

«أوه، كما تعرفين. . .»، تحكّ رقبتها. «يصعب عليّ النوم دون إيد. هذه حماقة، أليس كذلك؟».

«لا أبداً».

«لذلك، أتنزّه على الجزيرة. هذا يجعلني أتنشّق هواءً عليلاً. ألم تري جوني؟».

«ليس في عزّ الليل».

«يظل أحياناً مستيقظاً مثلي حتى هذا الوقت. هل رأيتِه؟».

«ما عليك إلا أن تتأكدي هل نور غرفته مضاء».

«يعاني ويل كوابيس رهيبة»، تتابع كاري. «يستيقظ وهو يصرخ، ولا يعود يقوى على النوم ثانية بعد ذلك».

أرتعش في كنزتي السميكة.

«هل تريدين مصباح جيب؟ يوجد واحد خلف الباب».

«أوه، لا. أحب العتمة».

انطلقتْ من جديد نحو قمة التلّة.

30

ماما بصحبة جدي في مطبخ منزل كليرمونت الجديد. أراهما من خلال أبواب الواجهة الزجاجية.

«تستيقظين في ساعة مبكّرة»، تقول لي أمي عند وصولي. «هل تحسّن حالك؟».

جدي متدثّر بثوب حمّام ذي مربعات. ماما ترتدي ثوب حمّام شمسي عليه جرادات بحرية صغيرة زهرية. تُحضّر القهوة.

«هل تريدين كعكاً؟ أعدت الطاهية لحم خنزير مقدّد أيضاً. كل شيء في جرّار التسخين».

تجتاز المطبخ وتذهب لتفتح للكلاب. يحرّك بوش وغرنديل وبوبي أذيالهم ولعابهم يسيل. تنحني ماما لتنشّف قوائمها بخرقة رطبة قبل أن تنظّف آلياً طبعات أرجلهم الموحلة على البلاط. يظلون جالسين هناك، هيئتهم بلهاء وودودة في آنٍ واحد.

«أين فاتي؟ وبرنس فيليب؟»، أقول.

«رحلا، تجيبني ماما».

«كوني لطيفة مع ابنتك»، ينهرها جدي. يلتفت نحوي. «لقد ماتا».

«كلاهما؟».

يؤكّد بهزّ رأسه.

«كم هذا محزن».

أنضم إليهما على الطاولة.

«وهل تألّما؟».

«ليس لوقت طويل».

تجلب ماما لي بضع كعكات بالتوت، ولحم خنزير مقدّد. أتناول كعكةً، وأدهنها بالزبدة والعسل.

«أعتقد أنها كانت فتاة شقراء فيما مضى. فتاة حقيقية من عائلة سنكلير، من رأسها حتى قدميها»، يتذمّر جدي.

«سبق وتكلمنا في هذا الأمر حين جئتَ لرؤيتنا»، أقول. «لا أطلب منك أن تحب مظهري الجديد. الأجداد لا يعجبهم الشعر المصبوغ، هذا أمر معروف».

«أنتِ أمها»، يقول لماما. «عليكِ أن تلحّي على ميرين حتى

تعود إلى لونها الطبيعي. أين ذهبت الفتيات الصغيرات الشقراوات اللواتي كنّ يتقافزن على هذه الجزيرة؟».

تتنهّد ماما.

«لقد كبرنا يا بابا. هذا كل ما في الأمر».

31

للتخلّي: أعمال فنية طفولية ولوحات نباتات.

أحمل سلة الغسيل وأقصدُ كودلداون. تستقبلني ميرين تحت رواق الشرفة وهي تحجل.

«رائع جداً أنك على الجزيرة!»، تهتف متعجِّبة. «لا أصدّق أنك عدتِ!».

«هل كنتِ هنا العام الماضي؟».

«كان صيفاً مختلفاً. لا علاقة له بفصول صيفنا الفردوسية المعتادة. كانت أعمال الترميم قائمة على قدم وساق في منزل كليرمونت الجديد. وكان الجميع محبطين فترقّبتُ قدومك بلا جدوى».

«أخبرتكِ أنني كنتُ في رحلة إلى أوروبا».

«أجل، أعرف».

«كتبتُ لك مرّات كثيرة»، أقول.

تخرج هذه الكلمات رغماً عني بنبرة عتاب.

«أكره رسائل البريد الإلكتروني، تغمغم ميرين. قرأت كل رسائلك، كما تعرفين. لا تلوميني لأنني لم أرد. بالنسبة إلي، كتابة

ردّ يشبه الواجبات المدرسية. الكتابة والتحديق في الشاشة الغبية لهاتفي المحمول أو لحاسوبي. . . ».

«هل تلقيتِ الدمية التي أرسلتها لكِ؟».

تتأبّط ذراعي.

«اشتقتُ لك شوقاً مبرحاً. لا تتصوري كم عانيت تباريحه».

«أرسلتُ لك دميتي. الدمية ذات الشعر الطويل التي كنا نتشاجر عليها باستمرار».

«أميرة الزر الذهبي؟».

«أجل».

«كنت أعشقها».

«ضربتِني بها، ذات مرة».

«وبحثتِ عنها طويلاً!».

تقفز قفزات فرح صغيرة.

«هل هي في ويندمير؟».

«هل أنتِ جادة؟ بالتأكيد لا. أرسلتها لك بالبريد. الشتاء الماضي».

تقطّب ميرين حاجبيها.

«لم أتلقّها قط يا كادنس».

«لكن أحدهم وقّع على إشعار الاستلام. ما عساها أمك تكون فعلت بالطرد؟».

هل رمته في أسفل الخزانة دون حتى أن تفتحه؟

أقول لنضحك، لكن ميرين توافق.

«لعل هذا ما حدث. ردود فعلها قهرية أحياناً. على سبيل المثال، تغسل يديها بلا توقف. وترغم تافت والبنتين التوأم أن

يفعلوا مثلها. تقضي وقتها في تدبير المنزل، كأن عليها أن تنظف البلاط حتى تستحق دخول الجنة. وازداد ميلها إلى الإفراط في الشرب».

«وأمي أيضاً».

تهزّ رأسها.

«لا أستطيع حتى النظر إليها».

«هل فاتني أمر ما على العشاء، مساء البارحة؟».

«لم أذهب إلى هناك».

تتجه ميرين نحو طريق النزهة المؤدّي من كودلداون إلى الشاطئ الصغير. أتجه في إثرها.

«أخبرتكِ أنني لم أكن أنوي أن أطأ المكان طوال الصيف. لماذا لم تأتِ العام الماضي؟».

«كنتُ مريضة جداً».

«أعرف أنك تعانين من حالات صداع»، تقول. «تحدّثت الخالات عنه مراراً وتكراراً».

أرتعد.

«لا تبدئي بالإشفاق عليّ، اتفقنا؟ إيّاكِ ثم إيّاكِ. يرعبني هذا».

«ألم تأخذي أدويتك، مساء أمس؟».

«بلى، وهذا أرهقني».

ها قد وصلنا إلى الشاطئ الصغير. نمشي حافيتَين على الرمل الرطب. تلمس ميرين قشرة سرطان ميت منذ أمد طويل.

وددتُ أن أشرح لها أن ذاكرتي مشتتة، وأني أصبتُ بصدمة قحفية. وأن أطلب منها أن تخبرني بما حدث في الصيف الخامس

عشر. وأن تحكي لي كل ما تجهله ماما أو ترفض إخباري به. لكن هذه ميرين، المتألّقة للغاية. ولا أريدها أن تشفق علي أكثر.

علاوة على ذلك، أعترف أنني لم أزل عاتبة عليها لأنها لم ترد على أيّ من رسائلي، ناهيك عن هذه الدمية السخيفة المفقودة في هرج ومرج، مع أنها لم تُفقد دون سبب بلا شكّ.

«هل يسكن جوني وغات في ريد غيت، أم ناما في كودلداون؟»، أقول.

«في كودلداون. يا لهما من أخرقين. أشعر أنني أسكن مع عفريتين».

«ما عليكِ سوى طردهما إلى ريد غيت».

«مستحيل»، تقول ضاحكة. «أما بالنسبة إليك... وداعاً ويندمير، اتفقنا؟ تأتين وتسكنين معنا».

أهزُّ رأسي.

«ماما غير موافقة. سألتها هذا الصباح».

«أصري، يجب أن تقبل!».

«إنها تلازمني دوماً منذ أن وقعتُ مريضة».

«ولكن مضى على هذا عامان تقريباً!».

«أعرف. وهي تراقبني وأنا نائمة. أمرتني أيضاً أن أقضي الوقت مع جدي والصغار. يجب عليّ أن أعيد الروابط مع العائلة. وأن أظهر ابتسامتي الودودة».

«كلام فارغ».

تريني ميرين حفنة من الحصة الصغيرة البنفسجية التقطتها للتو.

«خذي، هذا لكِ».

«لا، شكراً. لم أعد أريد أن أربك نفسي بأشياء غير مفيدة».

«خذيها، أرجوكِ. أتذكّر أنك كنتِ تبحثين دوماً عن حصى بنفسجية عندما كنا صغيرات».

تمدُّ لي راحة يدها.

«حتى تغفري لي ضياع أميرة الزر الذهبي».

تلتمعُ الدموع في عينيها.

«ورسائلك الإلكترونية»، تضيف. «أنا مصرّة أن أقدِّم لك هدية يا كادي».

«في هذه الحالة، لا بأس».

أصنع كأساً من يديّ وأترك ميرين تضع فيهما الحصى. ثم أدسّها في الجيب الأمامي لسترتي ذات القبعة.

«أوه، أحبكِ!»، تهتف قبل أن تستدير نحو المحيط. «أحبُّ ابنة خالتي، كادنس سنكلير إيستمان!».

«ألا تبالغين قليلاً في هذا؟».

إنه جوني الذي ينزل الدرجات، حافي القدمين، مرتدياً منامته القديمة المقلّمة. يضع نظارات شمسية جذّابة وواقياً سميكاً فوق أنفه، على طريقة معلم سباحة.

يكفهرّ وجه ميرين، ولكن لبضع ثوانٍ فقط.

«أعبّر عن مشاعري، يا جوني. مثل أي كائن بشري طبيعي! هذا حقي، أم لا؟».

«حسنٌ، يا كائن بشري طبيعي»، يجيب وهو يضرب بخفة كتفها. «لكن لا جدوى أن تفعلي هذا بأعلى صوتك عند طلوع الفجر. أمامنا الصيف بكامله».

تعبس ميرين.

«لن تمكث كادي هنا إلا لأربعة أسابيع».

«أرفض أن أتشاجر معك في ساعة مبكّرة»، يعلن جوني. «لم أحتسِ بعد الشاي المفضّل».

ينحني ويلاحظ السلة الموضوعة عند قدميّ.

«ماذا يوجد في داخلها؟».

«لوحات نباتات. وبعض أعمالي القديمة في الطفولة».

«لماذا؟».

يذهب ليجلس على صخرة. ألحق به.

«أهبُ كل ما أملك»، أقول. «منذ شهر أيلول. هل تذكر الوشاح المقلّم الذي أرسلته لك؟».

«آه، أجل».

أشرح لهما معنى خطوتي: توزيع الأشياء على من يحتاجونها، وإيجاد مراكز استقبال جديدة لها ملائمة أكثر. أتحدّث عن الكرم والإحسان، وعن إدراكي للنزعة المادية العقيمة عند أمي.

أريدهما أن يفهماني. أنا لستُ مسكينة صغيرة تستحق الشفقة، تعاني اضطراباً عقلياً وآلاماً مجهولة السبب. أنا مسؤولة عن حياتي. أطبّق قيمي الأخلاقية. أتصرّف وأقدّم تضحيات.

«ألا ترغبين، بنوع من... بأن تمتلكي أشياء لكِ أنتِ؟»، يسأل جوني باندهاش.

«ماذا، مثلاً؟».

«أنا، أرغب بأشياء جديدة في كل وقت!»، يتابع وهو يباعد ذراعيه. «سيارات. ألعاب فيديو. معاطف صوفية باهظة الثمن. أعشق ساعات اليد، لا سيما القديمة. أرغب في أعمال فنية حقيقية لتزيين غرفتي، بلوحات رسامين مشهورين لن يسعني اقتناؤها حتى بعد مليون سنة. يسيل لعابي أمام قوالب الكعك الكبيرة داخل

واجهات محلات المعجنات. أعشق الكنزات والأوشحة. وكل ما هو من الصوف المقلّم».

«عساك ترغبين فقط بالاحتفاظ برسوماتك الجميلة التي رسمتِها إبّان طفولتك»، تضيف ميرين وهي تجثو أمام السلة. «بأشياء لها قيمة عاطفية».

ترفع لوحة صورة جدتي تيبر.

«انظري، فاتي وبرنس فيليب!».

«هل تعرفيهما؟».

«بالتأكيد. كان لفاتي خطم كبير مستدير ووجه عريض».

«آخ. ماذا يمكنك أن تجني حين تبذلين هذا الجهد»، يتنهّد جوني.

يناديني غات بينما أصعد طريق النزهة باتجاه منزل كليرمونت الجديد. ألتفتُ وأراه يهرع نحوي، جذعه عارٍ يرتدي بنطال منامة.

غات. حبيبي غات.

هل سيصبح ثانية حبيباً لي؟

يتوقف أمامي، وهو يلهث. شعره مشعّث مثل شخص خرج تواً من فراشه. عضلات بطنه تخفق، وينتابني إحساس أنه أكثر عرياً ممّا لو كان يرتدي لباس السباحة.

«أخبرني جوني أنكِ على الشاطئ الصغير»، يقول لاهثاً. «فانطلقت أبحث عنكِ هناك».

«هل استيقظتَ لتوّك؟».

يحكّ قذاله. يخفض نظره نحو ملابسه.

«إن شئتِ. كان يجب أن أراك».

«لماذا؟».

«هيا نمشي».

ندرك الدرب الدائري الضيّق ونقوم بدورة حول الجزيرة، كما فعلنا قديماً، هو في الأمام وأنا وراءه. نجتاز مرتفعاً صغيراً، ثم ننزل خلف الملحقات، بالضبط قبالة ميناء مارثاز فاينيارد الذي يبدو لنا في عرض البحر، قرب مرفأ المركب.

يلتفت غات نحوي دون سابق إنذار، وأكاد أصطدم به. قبل أن يسنح لي الوقت للتراجع، يحتضنني ويضمني إليه، موارياً وجهه في عنقي. أطوّق ظهره بذراعي العاريتَين. ويحتكُّ باطن معصمَي بعموده الفقري. بشرته حارة.

«لم تتح لي الفرصة لأضمّك بين أحضاني أمس»، يهمس. «الجميع فعلوا ذلك، إلا أنا».

يعطيني عناقه إحساساً مألوفاً ومجهولاً في آنٍ واحد.

سبق أن جئنا إلى هذا المكان.

ولم نأتِ إليه قط.

وفي غضون لحظة،

وحفنة دقائق

أو ساعات، ربما،

أشعر ببساطة أنني سعيدة، هنا، مع غات يضمني. مع هدير الأمواج وأنفاسه في أذني. سعيدة لأنه يرغب بوجودي.

«هل تذكرين حين جئنا إلى هنا؟»، يسألني. «عندما ذهبنا إلى تلك الصخرة المسطّحة؟».

أنفصل عنه وأتراجع خطوة إلى الوراء. لأنني لا أتذكر شيئاً عن ذلك.

أكره دماغي اللعين الفاسد، وحالات الصداع التي تهاجمني باستمرار، وحياتي المدمّرة. أكره نفسي لأنني أصبحتُ قبيحة، ولأنني فوّتُ عاماً دراسياً، وتوقفتُ عن الرياضة وصرتُ فظّة مع أمي. وأكره نفسي لأنني لم أزل أشعر برغبة شديدة حياله بعد عامَين.

لعله يريد صادقاً أن نتصالح. أجل، ربما. لكنني أظنه يأمل بشكل خاص أن أقول له إنه لم يؤذني بشيء حين تخلّى عني منذ عامين. يأمل أن أقول له إنني لا ألومه على ذلك. وأنني لم أزل أجده رائعاً.

لكن كيف أغفر له دون أن أعرف ما ارتكبه بحقّي؟

«لا»، أقول. «لا بدَّ أنني نسيت».

«كنا... أنتِ وأنا، أعني... كانت لحظة خاصة جداً».

«لقد نسيت، لذلك لا أبالي. على كل حال، بالنظر إلى النتيجة، لا بدَّ أن ذلك لم يكن مهماً، أليس صحيحاً؟».

يحدّق بإمعان في يديه.

«حسنٌ. أنا آسف. كان هذا مخيِّباً للأمل من جهتي. هل أنت غاضبة؟».

«طبعاً غاضبة. مرَّ عامان دون أن تعطيني إشارة أنك على قيد الحياة. لا اتصال هاتفي، ولا رسالة، فقط غياب. لم تفعل سوى تحريك السكين في الجرح. والآن، تلعب دوراً تقول فيه أووه،

كنتُ أعتقد أني لن أراكِ ثانيةً أبداً وأنتَ تمسك يدي، وتتباكى لأن الجميع أخذكَ في الأحضان ما عداي، وتصطحبني وأنتَ نصف عار في نزهة على الدرب الدائري. هذا أكثر من مخيِّب للأمل يا غات، إذا استعدتُ العبارة التي استخدمتها لتوك».

تكفهر قسماته.

«أمر سخيف أن تقدّمي الأمر على هذا النحو».

«حقاً؟ هكذا أراه».

يمرر يده في شعره.

«لقد خذلتكِ في كل شيء. ما رأيكِ لو طلبت منكِ أن نبدأ من الصفر؟».

«تباً لك، غات...».

«ماذا؟».

«هيا، اطلب مني ذلك. ولا تسألني ما سيكون رأيي إن عرضتَ علي هذا».

«حسنٌ، إذاً أطلب منك هذا: ما رأيك أن نبدأ من الصفر؟ هل تتكرمين بذلك يا كادي؟ لنبدأ بعد الغداء مباشرة. سيكون الأمر مذهلاً. سأروي طرائف مسلية وستضحكين. سنذهب لاصطياد العفاريت. وسنكون سعداء بلقائنا الجديد. سأكون شخصاً رائعاً، أعدك بهذا».

«هذا وعد مقدّس، على أي حال».

«حسنٌ، قد لا أكون رائعاً، لكن لنقل إنني... سأكون أقل مدعاة للخيبة».

«لماذا هذه التورية؟ لماذا لا تصف نفسك كما هي حقيقةً: طائش وغير مستقرّ ومراوغ؟».

«ليس صحيحاً . . .».

يبدأ بالقفز في مكانه، ويغدو عصبياً فجأة.

«كادنس! أحتاج فعلاً أن نعيد الأمور إلى نصابها. لم يعد هذا مخيِّباً للآمال فقط، إنه جنون مطبق».

يركل في الهواء مثل صبي صغير غاضب.

تجعلني قفزاته أبتسم.

«لا بأس»، أقول. «سنمحو كل شيء ونبدأ من جديد. بعد الغداء».

«عظيم».

يتوقف أخيراً عن القفز.

«بعد الغداء».

نتبادل التحديق أحدنا بالآخر دون أن نحرّك ساكناً.

«سأغادر الآن راكضاً»، يخطرني. «لا تأخذي ذلك على محمل السوء».

«لا بأس».

«من الأفضل لكلينا أن أغادر راكضاً. سيبدو الأمر غريباً جداً إن مشيت».

«أخبرتكَ أني موافقة».

«إذاً، اتفقنا».

وعند هذه الكلمات، يختفي.

بعد ساعة، أذهب إلى منزل كليرمونت الجديد من أجل الغداء. أعرف أن ماما لن تسامحني على ثانية تغيُّب واحدة بعد حادثة عشاء مساء البارحة. يريني جدي المنزل بينما تجلب الطاهية الأطباق إلى المائدة وتجمع الخالات الصغار.

إنه راقٍ وعصري. أرضيات ملساء، نوافذ واسعة، وفي كل مكان أثاث واطئ. فيما مضى، كانت ممرات كليرمونت مغطاة بصور عائلية بالأبيض والأسود، وبلوحات لكلابنا، ورفوف كتب ورسوم هزلية من مجلة **نيويوركر**. أما ممرات منزل كليرمونت الجديد، فهي زجاجية من جهة وجرداء من جهة الأخرى.

يفتح لي جدي أبواب غرف الضيوف الأربع في الطابق الأول. تحتوي كل واحدة منها على سرير وخزانة كبيرة واطئة فقط. النوافذ مزدوجة ذات ستائر بيضاء تسمح بتسرّب جزء من ضوء النهار. لا توجد عناصر تزيينات على أغطية السرير؛ إنها ذات اتّساق أنيق، في تدرّجات زرقاء أو سوداء.

غرف الصغار أكثر حيوية بقليل. تافت عنده حلبة قتال باكوغان مبسوطة على الأرض، وكُرة قدم، وكتب تروي حكايات عن الساحرات والأيتام. اشترت ليبرتي وبوني مجلات وقارئ أقراص. ويبدو أن بوني جَمَّعَتْ أكداس كتيبات عن متعقبي الأشباح، والوسطاء الروحيين والملائكة الأشرار. مساحيق تجميل وزجاجات عطر مبعثرة على الخزانة الصغيرة. مضارب تنس مركونة في زاوية.

يشغل جدي أكبر غرفة، ويستفيد من أفضل إطلالة. يصطحبني ليريني حمامه المجهّز بمقابض جدارية في مقصورة الاستحمام. مقابض خاصة بشخص عجوز لتمنعه من السقوط.

«أين رسوماتك في مجلة **نيويوركر**؟»، أسأله.

«انتزعها أخصائي الديكور».

«والوسائد؟».

«أية وسائد؟».

«الوسائد، كان يوجد منها الكثير. ومطرّز عليها كلاب».

يهزّ رأسه.

«هل احتفظت بالسمكة، على الأقل؟».

«ماذا، سمكة السيّاف؟».

ننزل إلى الطابق الأرضي. يتقدم جدي بخطى بطيئة، وأمشي في إثره.

«هذا المنزل هو بداية جديدة بالنسبة إلي»، يعلن ببساطة. «والماضي ينتمي إلى الماضي».

يفتح باب مكتبه. ديكوره الجديد بسيط مثل بقية المنزل. حاسوب محمول يتربع وسط طاولة كبيرة. نافذة واسعة تطلُّ على الحديقة اليابانية. ثمة أريكة. جدار برفوف فارغة تماماً.

الحُجرة نظيفة ومضاءة، بلا تقشف، لأن كل ما فيها أنيق وفاخر.

يشبه جدي ماما أكثر ممّا يشبهني. محا حياته القديمة بإنفاق المال ليشتري حياةً أخرى.

«أين الشاب؟»، يسألني فجأة، بهيئة مذعورة.

«جوني؟».

يهزّ رأسه.

«لا، لا».

«غات؟».

«أجل، الشاب».

يتشبّث للحظات قليلة بطاولة مكتبه، كأن دواراً أصابه.

«جدي، هل أنت بخير؟».

«لا بأس».

«غات في كودلداون مع ميرين وجوني»، أقول.

«أبقيتُ له كتاباً جانباً...».

«معظم كتبك لم تعد هنا».

«توقفي عن قول عبارة لم يعد هنا!»، يحتدُّ مسترداً قوته فجأة.

«هل أحوالكما على ما يرام، أنتما الاثنان؟».

ها هي خالتي كاري، واقفة على عتبة الباب.

«أجل، كل شيء على ما يرام»، يجيبها جدي.

ترمقني كاري بنظرة تحمل الكثير من المعاني وتأخذه من ذراعه.

«تعالا. الغداء جاهز».

«هل استطعتِ أن تنامي، أخيراً؟»، أقولُ لخالتي في الطريق إلى المطبخ. «تلك الليلة، بعد أن بحثتِ عن جوني؟».

«لا أفهم إطلاقاً عمّا تتكلمين»، تجيبني.

34

طاهية جدي هي من تتسوّق وتعدُّ لنا الوجبات، لكن الخالات هنّ من يضعن قوائم الطعام. اليوم، دجاج بارد، سلطة بندورة بالحبق، جبن كاميمبير، خبز طازج وشراب ليمون بالفريز، في صالة الطعام. تريني ليبرتي فتيةً وسيمين في إحدى المجلات. وملابس في مجلة أخرى. بوني مستغرقة في مطالعة كتاب عنوانه **ظواهر مجتمعية: الأساطير والحقيقة**. تافت وويل يريدان أن أصطحبهما لممارسة لعبة العوامة، وأنا وراء مقود المركب ذي المحرك، سأجرّهما ورائي وهما في طوافة كبيرة.

تردُّ ماما أنه لا يُسمح لي بقيادة المركب بسبب أدويتي.

تردُّ الخالة كاري أن الأمر غير مهم لأن ممارسة ويل للعبة العوامة غير مطروحة للنقاش على كل حال.

تضيف الخالة بيس أن لديها الرأي ذاته ولذلك لا جدوى أن يطلب تافت إذنها.

تسأل البنتان التوأم إن كان بوسعهما ممارسة لعبة العوامة.

«لماذا أذنتِ لميرين ونحن لا؟»، تصرُّ ليبرتي. «صحيح، لماذا!».

تسكب ويل شراب الليمون على قطعة الخبز.

تبلّل بنطال جدي.

يرفع تافت بقية الخبزة المبتلة ويضرب ابن خالته بها.

تنظف ماما هذه الفوضى بينما تهرع بيس إلى الطابق الأول بحثاً عن بنطال نظيف لجدي.

توبّخ كاري الصبيين.

بعد انتهاء الوجبة، يهرعُ ويل وتافت إلى الصالون هرباً من عبء تنظيف المائدة. ويبدآن بالقفز كمجنونَين فوق أريكة جدي الجلدية الجديدة. ألحق بهما.

ويل قصير القامة ذو بشرة وردية، كشقيقه جوني. شعره شبه أبيض لشدة شقرته. تافت أطول وأنحف، بشرته ذهبية، مذرورة ببقع النمش، عيناه مطوّقتان برموش طويلة سوداء وعلى أسنانه جهاز تقويم.

«إذاً، أنتما»، أقول، «كيف كان الصيف الماضي؟».

«هل تعرف كيف تحصل على تنين رماد في لعبة **دراغون فيل**؟»، يسأل ويل.

«أعرف كيف أحصل على تنين نار»، يجيب تافت.

«حين تحصل على تنين نار، بوسعك أن تحصل على تنين رماد»، يقول ويل.

عشر سنوات: حقاً هو سنّ الغباء.

«هيا. الصيف الماضي»، أُلِحُّ. «أخبراني. هل لعبتما التنس؟».

«طبعاً».

«هل سبحتما؟».

«أجل»، يقول تافت.

«وهل ركبتما القارب مع غات وجوني؟».

يتوقف كلاهما عن القفز.

«لا».

«هل حدّثكما غات عني؟».

«لا يفترض بي أن أحدّثك عن المرة التي وجدتِ نفسك فيها داخل الماء وكل شيء»، يرد ويل. «وعدتُ الخالة بيني ألّا أقول شيئاً».

«لماذا؟».

«هذا يفاقم حالات الصداع النصفي لديك وممنوعٌ الحديث فيه».

يهز تافت رأسه.

«قالت إنها ستربطنا من أصابع قدمينا وستصادر ألواحنا الإلكترونية إن فاقمنا حالات الصداع عندك. فرضت علينا أن نبدو فرحين وألّا نرتكب حماقات».

«لا أحدّثكما عن حادثي»، أقول. «أحدّثكما عن الصيف الذي ذهبتُ فيه إلى أوروبا».

«كادي؟»، يضع تافت يده على كتفي. «وجدت بوني أقراصاً في غرفتك».

يتراجع ويل إلى الخلف ويجلس على المتكأ، في الطرف الآخر للأريكة.

«هل فتشت بوني أغراضي؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«وليبرتي أيضاً».

«ماذا؟».

«قلتِ لي إنك لا تتعاطين المخدرات، ولكن لديكِ أقراص فوق طاولة سريرك».

يبدو تافت غاضباً.

«قولي لهما ألا تطآ غرفتك ثانية أبداً».

«إن كنتِ تتعاطين المخدرات»، يلحُّ تافت، «ثمة أمر يجب أن تعرفيه».

«ما هو؟».

«المخدرات ليست صديقتك»، يقول بنبرة رصينة، «الناس هم أصدقاؤك».

«لا ولكن هل أحلم؟ أنتما لا تريدان ببساطة إخباري ماذا فعلتم الصيف الماضي؟».

يشرع ويل بالكلام:

«نريد أن نلعب لعبة **أنغري بيردز**. لم نعد نرغب في التحدث معك».

«هكذا إذاً»، أقول. «هيا، انصرفا من أمامي».

أخرج تحت رواق الشرفة وأنظر إلى الصبيَّين يتسابقان على طريق النزهة المؤدّي إلى ريد غيت.

35

كانت جميع نوافذ كودلداون مفتوحة حين نزلتُ إليها بعد الغداء. غات يستمع إلى الموسيقى على قرص مدمج قديم. تناثرت رسوماتي القديمة بأقلام التلوين على باب البراد، وقد أُلصقتْ بواسطة مغناطيسات: بابا في الأعلى، جدتي تيبر وكلابها الشقراء في الأسفل. رسمي المائي مثبتٌ بشريط على باب إحدى خزائن المطبخ. سلَّم وعلبة ورق مقوّى تحتوي بكرات شرائط عديدة يتربعان وسط الصالون الكبير.

تدفع ميرين أريكة عبر الحُجرة.

«لم أحب قط طريقة أمي في تزيين هذا المنزل»، تشرح.

أساعد غات وجوني في نقل الأثاث حتى ترضى ميرين عن الترتيب الجديد. ننتزع لوحات بيس عن الجدران ونلفُّ السجّاد. ننهبُ غرف الصغار بحثاً عن أشياء مسلية. وحين انتهينا، أصبح الصالون الكبير مزيجاً مبهجاً من حصالات نقود على شكل خنازير، وأغطية مزخرفة بالرقع، مع أكداس من كُتُب الأطفال ومصباح على شكل بومة. وشرائط زينة براقة تتدلّى من السقف.

«ألن تغضب بيس حين ترى ما فعلتموه؟».

«أستطيع أن أؤكد لكِ أنها لن تطأ كودلداون طوال الصيف. منذ سنوات وهي تريد الهرب من هذا البيت المهمل».

«كيف هذا؟».

«أوه»، تتذمر ميرين بلهجة خفيفة، «أنتِ تعرفين الأغنية: **واوا واوا**، أنا المضطهدة في العائلة، هذا المطبخ مزرٍ لكن جدي يرفض ترميمه، هراء هراء».

«هل طلبتْ منه أن يرمِّم المطبخ؟».

ينظر جوني إلي بغرابة.

«ألا تتذكرين ذلك؟».

«إنها فاقدة الذاكرة، يا جوني!»، تهتف ميرين متعجِّبة. «نسيَتْ نصف الصيف الخامس عشر!».

«حقاً؟»، يقول. «كنت أعتقد أن...».

«لا، اسكت!»، تحتدُّ ميرين. «أقسم أنك لم تسمع كلمة واحدة ممّا قلته؟».

«متى هذا؟».

يبدو مشوشاً.

«المساء الماضي. أعدتُ عليك ما قالته الخالة بيني».

«حسنٌ، اهدئي»، يتنهد جوني وهو يرميها بوسادة.

«لكن هذا مهم، هيا! كيف استطعت أن تظهر هذا القدر من اللامبالاة حيال موضوع كهذا؟».

تبدو ميرين مضطربة، وتوشك أن تنفجر بالبكاء.

«أعتذر، اتفقنا؟»، يقول جوني. «غات، هل كنت تعرف أن كادنس نسيت تقريباً كل الصيف الخامس عشر؟».

«أجل».

«هل رأيت؟»، تستنتج ميرين. «استمع غات، هو أيضاً».

يمتقع وجهي. أنظر إلى الأرض. لم يتفوّه أحد بشيء لأكثر من دقيقة.

«طبيعي أن يفقد المرء الذاكرة حين يتعرض لصدمة في الرأس»، أصرّح أخيراً. «هل أخبرتكم أمي؟».

يفلت جوني ضحكة انفعالية.

«إنها تدهشني»، أضيف. «تكره التحدّث في هذا الأمر».

«قالت إنه يُفترض بكِ أن ترتاحي وتستعيدي ذاكرتك على راحتك. والخالات يعرفن»، تؤكد ميرين. «والجد أيضاً. والصغار. وحتى الخدم. جميع من في الجزيرة يعرفون ما حدث، ما عدا جوني على ما يبدو».

«بلى أعرف»، يعترض هذا الأخير. «كنت أحتاج فقط إلى إنعاش ذاكرتي، هذا كل شيء».

«لا تكن مضحكاً»، تقول ميرين. «ليست هذه اللحظة المناسبة فعلاً».

«لا تقلق»، أقول لجوني. «لست مضحكاً. فقط... مخيّب للأمل بعض الشيء. أنا واثقة أنك ستبذل مزيداً من الجهد بدءاً من الآن».

«أبذله كل الوقت»، يحتجّ جوني. «لكن ليس كما تريد ميرين».

يبتسم غات حين يسمعني أنطق كلمة **مخيّب للأمل** ويربّت على كتفي.

ها نحن ننطلق من الصفر.

نلعب مباراة تنس. أفوز أنا وجوني بالشوط، لكن ليس بفضل لعبي طبعاً، فهو لم يعد إطلاقاً كما كان. يلعب ابن خالتي مثل إله وميرين مهووسة بالرقص في مكانها حين تضرب الكُرة، دون أن تهتم بمعرفة إن كان خصمها سيردّها لها. يسخر منها غات لدرجة أنه يصعب عليها التركيز.

«كيف كانت أوروبا؟»، يسألني أثناء عودتنا إلى كودلداون.

«أكل أبي حبر الحبّار».

«وغير هذا؟».

نجتاز الحديقة ونلقي جميعاً مضاربنا تحت الشرفة قبل أن نذهب للاستلقاء على المرج.

«بشرفي لا شيء ذو شأن لأرويه لك»، أقول. «هل تعرف ماذا فعلتُ بينما كان أبي يزور مدرج الكولوسيوم؟».

«لا».

«بقيتُ ممددة على الأرض في حُجرة الحمام، ووجهي على البلاط. أحدّق بمراحيض من البورسلان الأزرق».

«كانت المراحيض زرقاء؟»، يسأل جوني وهو يجلس على العشب.

«لا يوجد سواك يهتم بلون المراحيض أكثر من الصروح الأثرية»، يدمدم غات.

«كادنس. . .»، تبدأ ميرين بالقول.

«ماذا؟».

«لا، لا شيء».

«كيف لا شيء؟».

«لا تريدين أن نشفق عليكِ، لكنك تصفين لنا كرسي المرحاض في حمّامكِ»، تقول مسترسلة. «إذا لم تكن هذه حكاية لنذرف الدموع! فماذا يُفترض بنا أن نقول الآن؟».

«ناهيكِ عن أننا جميعاً غيورين من رحلتك إلى روما»، يشدِّد غات. «لم يذهب أحد منا إليها قط».

«كم أود أن أذهب إلى روما!»، يحتجّ جوني وهو يعاود الاستلقاء على ظهره. «وأرى مراحيض البورسلان الأزرق!».

«أنا أحلم بزيارة حمّامات كركلا»، يضيف غات. «وأن أتذوّق كل نكهات المثلجات الإيطالية الموجودة».

«إذاً هيا بنا»، أقول.

«ليس بهذه البساطة».

«بالتأكيد، ولكنك ستذهب إليها آجلاً. خلال دراستك، أو بعدها».

يتنهّد غات.

«كل ما أعنيه، هو أن الحظ حالفك وذهبتِ إلى روما».

«وكم تمنيتُ لو كنتُ فيها معك».

«هل أخرجتِ مضربك ثانية؟»، تسألني ماما. «سمعتُ ضجة على ملعب التنس».

«أوه، هذا فقط لأتسلى».

«لم تلعبي منذ وقت طويل. هذا رائع».

«فقدتُ لياقتي تماماً».

«يسرني أنك عدتِ إليها. إذا رغبتِ أن نلعب غداً، سيسعدني ذلك».

تخدع نفسها بأوهام كبيرة. أن أتدرّب لوحدي خلال فترة العصر لا يعني بأي حال من الأحوال أنني عدتُ إلى التنس، وليس وارداً أن ألعب معها. سترتدي تنورة تنس قصيرة، وتهنّئني وتوبّخني وستعلّق على أي حركة من حركاتي حتى أتنصل منها.

«سنرى»، أقول. «أعتقد أنني آذيتُ كتفي».

نتعشى خارجاً، في الحديقة اليابانية. نشاهد غروب الشمس عند الساعة الثامنة مساءً، وننقسم إلى مجموعات صغيرة حول طاولتَين. يلتقط تافت وويل أضلاع الخنزير من الصحن ويأكلانها بأيديهما.

«أنتما أسوأ من الحيوانات»، تقول ليبرتي مع تكشيرة مشمئزة.

«ما مشكلتكِ؟»، يرد تافت.

«ألا تعرف هذا الشيء الذي يُسمّى شوكة؟».

«أعرف حقّ المعرفة الشيء الذي يُسمّى اخرسي».

يحق لجوني وغات وميرين أن يأكلوا معاً في كودلداون لأنهم غير معاقين. ولأن أمهاتهم يتركونهم وشأنهم. لكن أمي لا تريدني حتى على مائدة الراشدين. تجلسني جانباً مع أبناء خالاتي الصغار.

يضحكون ويتشاجرون، يتكلمون وأفواههم مملوءة. أتوقف عن الإصغاء إليهم بعد برهة لأهتم بماما، وكاري وبيس الملتصقتَين بجدي.

أتذكر إحدى السهرات. كانت قبل أسبوعين تقريباً من حادثتي، في بداية شهر تموز. تحلّقنا جميعاً حول الطاولة الكبيرة على مرج كليرمونت. وثمة شموع برائحة الليمون تشتعل على الشرفة. أنهى الصغار طعامهم من الهمبرغر وراحوا يتسلون بلعبة الدولاب في الحديقة. كنا نأكل سمك السياف المشوي بصلصة الريحان. وكان يوجد أيضاً سلطة بندورة صفراء وفطيرة كوسا بالجبن. راح غات يضغط ساقه على ساقي تحت الطاولة. وشعرتُ بنشوة السعادة.

كانت الخالات يحرّكن طعامهنّ في صحونهنّ بشرود، خرساوات وباردات فيما بينهم، وسط صيحات الصغار الفرحة. وجدي التصق بمسند كرسيه، ويداه معقودتان فوق بطنه.

«هل تعتقدن أنه يجب عليّ أن أرمم منزل بوسطن؟»، سأل فجأة.

ساد الصمت في البداية.

«لا يا بابا».

كانت بيس أول من ردّت.

«إننا نعشق هذا المنزل».

«أنتن تتذمّرن دوماً من التيارات الهوائية في الصالون»، ردّ جدي.

نظرت بيس إلى شقيقتيها.

«لستُ أنا».

«أنتن لا تحبين هذا الديكور».

«هذا أكيد».

كان الاستنكار يتبدّى في صوت ماما.

«برأيي، هو غير عصري»، أجابت كاري.

«أحتاج إلى رأيكِ»، خاطب جدي بيس. «لماذا لا تأتي وتلقي نظرة؟ وتخبريني رأيك؟».

«أنا . . . ».

انحنى إلى الأمام.

«يمكنني أن أبيعه أيضاً، كما تعرفين».

كنا نعرف جميعاً أن الخالة بيس تريد هذا المنزل. وكانت الخالات يتجادلن بشأنه. قيمته تساوي أربعة ملايين دولار، وجميعهنّ ترعرعن فيه. لكن بيس هي الوحيدة التي تعيش في المنطقة، والوحيدة التي لديها ما يكفي من الأولاد ليشغلوا كل غرف النوم.

«بابا»، احتجّت كاري بنبرة حادة، «لا يحق لك أن تبيعه».

«يحق لي أن أفعل ما أراه مناسباً»، ردّ وهو يقطع آخر حبة بندورة بقيت في صحنه قبل أن يبتلعها. «هكذا إذاً، المنزل يعجبك على حاله، يا بيس؟ أم تفضّلين أن أرمّمه؟ لا أريد إجابة مراوغة، أرجوكِ».

«يسرني أن أساعدك مهما كانت التغييرات التي تريد إجراءها يا بابا».

«أوه، أرجوك»، قالت ماما. «البارحة كنتِ تتذمرين من تراكم الأشغال عليكِ، واليوم تريدين المشاركة في ترميم منزل بوسطن؟».

«بابا يحتاج إلى مساعدتنا».

«إلى مساعدتك أنتِ. أما نحن فلا يحق لنا إبداء رأينا، أليس كذلك يا بابا؟».

من الواضح أن ماما أفرطت في الشرب.

قهقه جدي.

«هيا، اهدئي يا بيني».

«سأهدأ حين نسوّي أمر التركة!».

«ستدفعنا جميعاً إلى الجنون»، دمدمت كاري.

«عفواً؟ أوضحي من فضلك».

«نحن هنا يا بابا، ونحبك»، أعلنت كاري بصوتٍ عالٍ. «أعرف أن هذا العام كان صعباً بصورة خاصة».

«إذا لم تتفاهمن بينكنّ، فوا أسفاه عليكن»، ردّ جدي. «حاولن أن تتماسكن. لن أدع تركتي بأيدي عائلة من المجانين».

انظروا إليهنّ ذاتهنّ اليوم، في الصيف السابع عشر. ثلاثتهنّ يجلسن إلى طاولة في الحديقة اليابانية في منزل كليرمونت الجديد، وماما تطوّق بذراعها كتفَي بيس، وهي نفسها منحنية إلى الأمام تقدِّم قطعة من فطيرة بالتوت إلى كاري.

إنها أمسية رائعة، ونحن نشكِّلُ فعلاً عائلة متألقة.

لا أعرف ما الذي تغيّر.

«لدى تافت حكمة»، أقول لميرين.

إنه منتصف الليل. ونحن الكذّابون نلعب لعبة السكرابل في الصالون الكبير لمنزل كودلداون.

تلمس ركبتي فخذ غات، لكنني لستُ متأكدة أنه لاحظ ذلك. اللوح غاصٌّ تقريباً. دماغي متعب. لم ألتقط سوى أحرف رديئة.

تحرّكُ ميرين قطعها بشرود.

«ماذا لدى تافت؟».

«حكمة. مثل جدي، أتعرفين؟ لا أريد إجابة مراوغة، هذا كل شيء؟».

«**الفائزون يجلسون دوماً في الصف الأول**»، تردِّد ميرين.

«**لا تتذمر أبداً، ولا تبرّر أبداً**»، يضيف غات. «أعتقد أن دزرائيلي هو قائلها».

«أوه، ذاك، إنه يعشقه»، تعلّق ميرين.

«**لا تدع أحداً يقول لك لا أبداً**»، أقول.

«هيه، هوه، كادي!»، يعترض جوني. «هل تريدين فعلاً أن تضعي كلمتك حتى نستطيع الاستمرار في اللعب؟».

«توقف عن الصراخ في وجهها»، تحتجّ ميرين.

«آسف. هل تتكرمين وتتلطفين وتتقبلين رجائي، وتضعين كلمتك اللعينة على اللوح، من فضلك وشكراً؟».

تلمس ركبتي فخذ غات. لم أعد أستطيع التفكير فعلاً. أضع كلمة قصيرة، بلا اهتمام.

يلعب جوني في مكان حروفه.

«**المخدرات ليست صديقتك**»، أقول. «هذه هي حكمة تافت».

«حقاً؟»، تقهقه ميرين. «أين عثر على شيء كهذا؟».

«لعله أخذ دروساً عن المخدرات في المدرسة. والبنتان التوأم فتشتا غرفتي وأخبرتاه أن لدي أقراص تملأ طاولة سريري، لذلك راح يسعى ليطمئن أنني لا أتعاطى المخدرات».

«بوني وليبرتي طاعون حقيقي»، تتنهد ميرين. «أنا واثقة أنهما مصابتان بهوس السرقة أيضاً».

«حقاً؟».

«سرقتا أقراص أمي المنومة وقرطيها من الألماس. لا أدري أين يمكنهما ارتداؤهما دون أن يُلاحظ ذلك أحد. وفوق هذا، هما اثنتان وليس لديهما سوى زوج واحد من الأقراط».

«هل تحدّثتِ إليهما في هذا الأمر؟».

«حاولتُ أن أتناقش مع بوني. لكنهما لا تريدان أن تسمعا شيئاً».

تغيِّر ميرين من جديد وضعية قطعها.

«أحبّ حبّاً جمّاً فكرة أن يكون لدي حكمة»، تتابع. «استشهاد مستوحى بشكل جيد من شأنه أن يعينكم في الأوقات الصعبة».

«مثل ماذا، على سبيل المثال؟»، يسألها غات.

تفكّر ميرين.

«**أظهر دوماً من اللطف ما يزيد عن اللزوم**».

لا يعترض أحد على هذه الجملة. يبدو شبه مستحيل ألا تحظى بموافقة الجميع.

يعلن جوني:

«لا تأكل أبداً ما يفوق حجم أردافك».

«هل سبق لكَ وفعلتَ ذلك؟»، أقول.

يبدي رأيه كزعيم، بلهجة رصينة.

«دوركَ، يا غات»، تتابع ميرين.

«ليس لدي حكمة».

«هيا...».

«حسنٌ، ربما حكمة واحدة». يتفحّص أظافره. **«لا تقبل شيئاً سيئاً أنت قادر على تغييره».**

«أوافقك تماماً»، أقول.

لأنني أؤمن بذلك حقاً.

«أما أنا فلا»، تعارض ميرين.

«لماذا؟».

«لا يمكننا تغيير شيء، أو لا يكاد يمكننا. يجب تقبّل العالم كما هو».

«خطأ».

«ألا يجب أن نصبو للعيش في صفاء؟»، تسأل ميرين.

«لا»، يجيب غات بحزم. «يجب أن نصبو إلى محاربة الشر».

«لا تلتهم الثلج أبداً حين يكون أصفر»، يتدخّل جوني. «وهذه نصيحة مفيدة».

«افعل دوماً ما يُخيفك»، أقول. «هذا شعاري المفضل».

«أوه، أرجوكِ. من استطاع أن يقول شيئاً كهذا؟»، تحتدّ ميرين.

«إيمرسون». على ما أعتقد.

أتناول قلم حبر وأكتب الجملة على يدَيّ.

على اليسرى: **افعل دوماً**. وعلى اليمنى: **ما يُخيفك**. خطي يُقرأ بصعوبة من الجهة اليمنى.

«إيمرسون يبعث على الضجر»، يتأوّه جوني.

يأخذ القلم مني ويكتب على يده اليسرى: **لا للثلج الأصفر!**

«هو ذا»، يقول وهو يرفع يده حتى يتأمل النتيجة. «لا بدَّ لهذا أن يساعدني حقاً».

«كادي، أنا جادة. لسنا مضطرين **إطلاقاً** أن نرغم أنفسنا على فعل ما يُخيفنا»، أصرّت ميرين بقوة. «يا لها من فكرة سخيفة!».

«ولم لا؟».

«قد نقتل أنفسنا. وقد نتأذى. إذا ما أخافك شيء ما، فلا شكّ أن هنالك سبب وجيه لذلك. يجب أن نثق بغريزتنا دوماً».

«هذه إذاً، فلسفتك؟»، يقول لها جوني. «أن تكوني جبانة عملاقة؟»

«أجل»، تجيب ميرين. «هذا، وأيضاً ما قلته عن اللطف منذ برهة».

يصعد غات إلى الطابق وأحذو حذوه. ألحقه على امتداد الممر الطويل، أمسكه من يده وأضغط فمي على فمه.

هذا ما كان يُخيفني، لذلك فعلته.

يبادلني القبلة. تُشابك أصابعه أصابعي، أشعر بالدوار، يضمّني إليه ويستعيد كل شيء وضوحه وروعته. تمحو قبلتنا بقية العالم. لا يبقى سوانا، ولا يعود لأي شيء أهمية.

حتى ينفصل غات عني.

«ما كان يفترض بي أن أفعل هذا».

«لماذا؟».

لم تزل يده في يدي.

«هذا لا يعني أنني لا أريد، لكن...».

«كنتُ أظن أننا نبدأ من الصفر. أليس هكذا يُفترض بنا أن نفعل؟».

«لم أعد أفهم شيئاً».

يتراجع ويستند إلى الجدار.

«إنها مجرد عبارة قلناها... ولكن هذا ما أستشعره مع ذلك».

«اشرح لي».

صمت.

«أنتِ لا تعرفيني».

«إذاً اشرح لي»، ألحُّ.

يحتضن رأسه بين يديه. نمكث هنا في الظلام، ويستند كلانا إلى الجدار.

«حسنٌ»، يتمتم أخيراً. «وأيضاً، أنتِ لم تقابلي أمي قط. ولم تأتي إلى بيتي قط».

هذا صحيح. لم أرَ قط غات في أي مكان غير بيتشوود.

«أنتِ تعتقدين أنك تعرفين من أكون يا كادي، لكنك لا تعرفين

إلا جزءاً مني يأتي إلى هنا في العطلة الصيفية. فليس لديك... سوى لمحة عني. أنتِ لم تزوري قط غرفتي المطلّة على منور التهوية، ولم تتذوقي قط كاري أمي، ولم تلتقي قط أشخاصاً من مدرستي الثانوية، ولا تعرفين حتى ما نفعله في عيد الميلاد. تعرفينني فقط على هذه الجزيرة حيث الجميع أثرياء إلا أنا والخدم. الجميع بيضُ البشرة إلا أنا وجيني وباولو».

«من جيني وباولو؟».

يضرب غات قبضته براحة يده.

«جيني هي مدبّرة المنزل. باولو هو البستاني. أنتِ لا تعرفين حتى اسميهما مع أنهما يعملان هنا كل صيف، منذ أعوام. هذا بالضبط ما أريد الوصول إليه».

يلهب الخجل وجهي.

«أنا آسفة...».

«لكن هل ترغبين حقاً أن أشرح لكِ؟ وهل ستكونين قادرة على الاستيعاب؟».

«لن تتعلم أبداً كيف تتحدث معي على الأقل. تركتني بلا أخبار منذ قرون».

«هل تعرفين من أنا بالنسبة إلى جدك؟ ومن أجسد في نظره دوماً؟».

«لا، من؟».

«هيثكليف. في رواية **مرتفعات وذرينغ**. هل قرأتِها؟».

أشير بالنفي.

«هيثكليف شاب غجري تبنّته أسرة ثرية كواحد من أبنائها، آل إيرنشو. يقع في غرام ابنتهم كاترين. وهي تحبه أيضاً، مع أنها تجده

أدنى مستوى منها، نظراً إلى أصله المجهول. وبقية الأُسرة تفكر مثلها».

«ليس هذا على الإطلاق ما أحسه تجاهك».

«يبذل هيثكليف ما بوسعه دون جدوى، لا يجده آل إيرنشو مناسباً على الإطلاق. ويؤذونه فوق ذلك. يرحل، ويهتم بتربية نفسه تربيةً رفيعة، ويصبح رجلاً غنياً ونبيلاً. لكنهم ظلوا يعتبرونه نكرة».

«وبعد؟».

«حسنٌ، لأن الكتاب مبني كتراجيديا، يصبح هيثكليف أخيراً ما يراه الناس فيه بالضبط: همجي. يطغى نصفه المظلم عليه».

«سمعتُ دوماً أنها كانت عبارة عن قصة حبّ».

يهز غات رأسه.

«الشخصيات تمزّق بعضها البعض».

«تعني أن جدي يراك مثل هيثكليف؟».

«حتماً. همجي تحت مظهر محبّب، خائن استغل ثقته وضيافته على هذه الجزيرة لإغواء حفيدته كاترين، حفيدته كادنس. وعقابي هو أن أصبح الوحش الذي طالما رآه فيَّ».

لا أقول شيئاً.

ولا غات أيضاً.

أمدُّ يدي نحوه لألمسه. وما إن أمسَّ ذراعه تحت كُمّ قميصه القطني الناعم حتى أشعر برغبة في تقبيله مرة أخرى أيضاً.

«هل تعرفين ما المرعب في هذه القصة؟»، يتابع دون أن ينظر إليّ. «أكثر ما يُرعب، هو أنه كان محقاً».

«إطلاقاً».

«أوه، بلى».

«غات، انتظر».

لكنه يغادر ويختفي في غرفته.

ألفي نفسي وحيدة من جديد، في عتمة الممر.

كان يا ما كان في قديم الزمان، عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال. ولم يكن يضاهي جمالهنّ سوى رقتهنّ. وهنّ مفعمات بالسعادة، تزوجن ثلاثتهنّ زواجاً عظيماً، ورزقت الأميرة الصغرى بابنة بعد وقت قصير. للأسف، خاب أملها. كانت المولودة الجديدة قزمة واضطرت أمها أن تحفظها في جيبها، حيث لا يفطن بها أحد. ولحسن الحظ، ولد أحفادٌ غيرها بقامات طبيعية، ونسي الملك والملكة أو كادا ينسيان وجود تلك الأميرة القزمة.

ومرّت السنون. كانت الأميرة القزمة تمضي معظم أيامها ولياليها في سريرها الصغير جداً. كانت وحيدة ولم تجد سبباً يدفعها للنهوض.

وذات يوم، غامرت في الذهاب إلى مكتبة القصر واكتشفت أن من شأن الكتاب أن يكون رفيقاً رائعاً. وراحت تقصدها غالباً. وذات صباح، فيما كانت تقرأ، ظهر فأر على الطاولة. انتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين مرتدياً صداراً من المخمل. كان شاربه ناعماً ووبره بنياً.

«أنتِ تقرئين مثلي تماماً»، يقول الفأر للأميرة، «تمشين تحت كل كلمة».

تقدّم الحيوان وانحنى لها احتراماً.

سحر القارض الأميرة القزمة وهو يسرد لها مغامراته. حدّثها عن العفاريت التي تسرق أقدام البشر وعن الآلهة الذين يتخلّون عن الفقراء. كان يطرح أسئلةً حول الكون ويسعى باستمرار إلى إيجاد إجابات عنها. كان يرى أنه يجب الاهتمام بالجراح حتى تشفى. ومن جهتها، أتحفت الأميرة القارض بحكايا الجنيات، ورسمت له لوحات منقّطة ورسومات صغيرة بأقلام التلوين. ضحكت وتجادلت معه. شعرت لأول مرة خلال وجودها أنها على قيد الحياة.

وبعد فترة وجيزة، وقع القارض والأميرة أحدهما في غرام الآخر.

لكنها حين قدّمت خطيبها إلى عائلتها، لم تلقَ الأميرة الترحيب الذي تتوقعه.

«ما هو إلا جرذ!»، هتف الملك بازدراء بينما هربت الملكة عن عرشها وهي تصرخ من الخوف.

في جميع أنحاء المملكة، راح الجميع، من النبلاء حتى الخدم، ينظرون إلى طالب الزواج بارتياب وتململ.

«إنه يناقض الطبيعة»، كانوا يقولون عنه. «إنه حيوان يدّعي أنه إنسان».

لم تتردد الأميرة القزمة لثانية واحدة. غادرت هي وخطيبها القصر وسافرا إلى أبعد مكان ممكن. أقاما في بلاد أجنبية وتزوّجا فيها، وملآ بيتهما بالكتب والشوكولاتة، وعاشا سعيدَين حتى آخر الزمان.

إذا أردتم أن تسكنوا مكاناً لا تخشون الفئران فيه، الأجدر بكم أن تتخلّوا عن حياة القصور.

41

عملاق مزوّد بمنشار صدئ. يدندن مبتهجاً من اللذة وهو ينشر جبهتي وروحي.

أمامي أقل من أربعة أسابيع لأكتشف الحقيقة.

جدي يناديني ميرين.

البنتان التوأم تسرقان الأقراص المنومة وأقراط الألماس.

ماما تشاحنت مع خالاتي بسبب منزل بوسطن.

بيس تكره منزل كودلداون.

كاري تهيم على الجزيرة خلال الليل.

ويل تراوده الكوابيس.

غات هو هيثكليف.

غات يظن أنني لم أكن أعرفه.

وربما معه حقّ.

أبتلع دوائي. أشرب الماء. غرفتي غارقة في العتمة.

ماما تمكث على عتبة الباب، تراقبني. لا أعيرها أهمية.

أبقى طريحة الفراش مدة يومين. من حين إلى آخر، يهدأ الألم المبرح ويتحول إلى وجع بسيط مبهم. وعندها، إن كنت وحيدة، أستوي في سريري وأكمل الملاحظات التي علّقتها على الجدار. أكتب أسئلة أكثر ممّا أكتب إجابات.

صبيحة اليوم الذي أشعر فيه بالتحسن، يأتي جدي لرؤيتي في ساعة مبكّرة في ويندمير. يرتدي بنطالاً من الكتان الأبيض وسترة

رياضية زرقاء. وأنا مرتدية سروالاً قصيراً وكنزة خفيفة، أرمي الكُرات للكلاب فوق المرج. ماما غادرت للتو إلى منزل كليرمونت الجديد.

«أنا ذاهب إلى إدغارتاون»، يخبرني جدي وهو يداعب أذني بوش. «هل تودين المجيء معي؟ إن قبلتِ مرافقة عجوزٍ، بالتأكيد».

«لا أدري حقاً»، أقول ممازحة. «أنا مشغولة الآن بكُرات التنس المشبعة باللعاب. ربما يستغرق ذلك مني النهار بطوله».

«سأصطحبك إلى المكتبة يا كادي. سأشتري لك هدايا، كما في السابق».

«ولماذا لا نذهب إلى متجر الكاراميل؟».

يضحك.

«أجل، إن شئتِ».

«ماما هي من أرسلتكَ؟».

«لا».

يحكُّ خصلات شعره البيضاء.

«لكن بيس لا تريدني أن أستقلَّ المركب ذا المحرك بمفردي. تخشى أن أضل وجهتي».

«لا يحق لي قيادة المركب أنا أيضاً».

«أعرف»، قال وهو يهز المفاتيح. «لكن ليست بيس وبيني من يأمر هنا. بل أنا».

نقرر الذهاب لتناول الفطور في المدينة. الفكرة هي أن نغادر الجسر الخشبي العائم في بيتشوود خلسةً قبل أن تلحظنا الخالات.

إدغارتاون هي قرية بحرية صغيرة وجميلة على جزيرة مارثاز

فاينيارد. ويستغرق الوصول إليها مدة عشرين دقيقة. فيها فقط سور أبيض وبيوت صغيرة خشبية وحدائق مزهرة. نجد فيها محلات بيع التذكارات، وبائعي مثلجات، ومتاجر ألبسة أنيقة وحلي قديمة. من مرفئها، تغادر مراكب للصيد أو للقيام بنزهات بحرية بانورامية.

يبدو أن جدي عاد كما كان في السابق. ينفق أمواله. ويقدِّم لي القهوة مع الكرواسان في مخبز صغير ذي كراسي بلا مساند مصفوفة على امتداد الواجهة الزجاجية، ثم يحاول أن يهديني كتاباً في المكتبة. حين أرفض هديته، يتّخذ هيئة انفعالية. لا يؤيّد مشروعي العظيم في توزيع حاجياتي الشخصية، لكنه لا يعظني مع ذلك. وعوضاً عن هذا، يطلب مني أن أساعده في اختيار هدايا للصغار وكتاب عن تنسيق الزهور من أجل جيني، مدبّرة المنزل. نشتري أيضاً الكثير من الكراميل المنكّه من عند موردیكس فودج: شوكولاتة، وشوكولاتة بالبندق، وزبدة الفستق، ومربى الحليب.

ونحن نتسكع في أحد المعارض الفنية للقرية، نصادف محامي جدي، ريتشارد تاتشر، رجل نحيف ورمادي اللون.

«هذه إذاً كادنس الأولى»، يصرّح وهو يصافحني. «سمعتُ عنكِ الكثير».

«ريتشارد يدير أمور التركة»، يقول لي جدي على سبيل الشرح.

«ولادة أول حفيد هو شعور لا مثيل له»، يتابع تاتشر.

«إنها عقل سليم في جسم سليم»، يتباهى جدي. «هذا الشبل من ذاك الأسد. حقاً إن دم عائلة سنكلير هو ما يجري في عروقها».

ظلَّ جدي يحب أن يعبّر بجمل جاهزة. «**لا تتذمر أبداً، ولا تبرّر أبداً**». «**لا تدع أحداً يقول لك لا أبداً**». لكن هذه العبارات تزعجني حين يستخدمها للحديث عني. عقل سليم، حقاً؟ دماغي

متشظٍّ إلى ألف قطعة، وجميع الأطباء يقولون ذلك، ونصفي محسوب على عائلة إيستمان، هذه القبيلة غير المخلِصة. لن أدخل إلى الكلية العام القادم؛ وتركتُ جميع الرياضات التي كنتُ أمارسها، وكل النوادي التي كنتُ عضوة فيها؛ أنا مخبولة من الأدوية معظم الوقت وحتى لستُ لطيفة مع أبناء خالاتي الصغار.

مع ذلك، يشعُّ جدي افتخاراً حين يتحدّث عني. اليوم، على أي حال، لم يخلط بيني وبين ميرين.

«إنها تشبهكَ»، يقول تاتشر.

«أليس كذلك؟ ما عدا أنها هي جميلة».

«شكراً»، أقول. «ولكن للوصول إلى تشابه كامل، يجب أن أسرّح شعري على شكل خصلات متناثرة فوق رأسي».

عند هذه الكلمات يبتسم جدي.

«هذا بسبب المركب»، يدافع عن نفسه. «نسيت أن أضع قبعة».

«دائماً يسرّحه هكذا»، أقول للمحامي.

«أعرف»، يجيبني.

يتصافح الرجلان بقوة ليقولا إلى اللقاء ويأخذني جدي من ذراعي لنخرج من المعرض.

«إنه مهتمٌ بك اهتماماً خاصاً»، يبوح لي.

«السيد تاتشر؟».

يهز رأسه.

«لكن لا تخبري أمك بذلك. هذا سيثير البلبلة من جديد».

42

أثناء مسيرة العودة، أستعيد ذكرى أخرى.

الصيف الخامس عشر، ذات صباح من بداية شهر تموز. كان جدي يعدُّ القهوة في مطبخ كليرمونت. كنتُ جالسة على المائدة، أتناول حلوى من الخبز المحمص بالمربى. كنا وحدنا.

«أنا أعشق هذه الإوزّة»، أعلنتُ وأنا أشير إلى التمثال بلون الكريم الموضوع فوق خزانة الطعام.

«إنه هنا منذ كان عمرك أنتِ وجوني وميرين ثلاث سنوات»، أجاب جدي. «سنة رحلتنا إلى الصين مع تيبر»، قهقه. «اشترت الكثير من الأشياء الجميلة هناك. كانت ترافقنا مرشدة سياحية متخصِّصة بالفن».

اقتربَ من محمصة الخبز واستعاد قطعةً كنتُ وضعتها لأسخنها لنفسي.

«إيه!»، اعترضتُ.

«صه، أنا الجد هنا. آكل الخبز المحمص متى شئتُ».

جلس إلى المائدة مع قهوته ودهن قطعة خبز بالزبدة.

«أخذتنا مرشدتنا في جولة على بائعي المقتنيات الأثرية وتبرّعت بالترجمة لنا خلال البيع بالمزاد العلني. كانت تتكلم أربع لغات. مع أنها لم تكن توحي بالثقة ظاهرياً. فأرة صغيرة ذات عيون مائلة».

«لكننا لا نستخدم تلك الكلمة للحديث عن الصينيين!».

تجاهل ملاحظتي.

«اشترت تيبر حلياً وخطرت لها فكرة إحضار تماثيل الحيوانات إلى منزل بيتشوود».

«مثل ضفدع كودلداون، على سبيل المثال؟».

«بالضبط، الضفدع العاجي»، قال جدي. «ونحن أيضاً اقتنينا فيلَين».

«اللذان في ويندمير».

«وقرود من أجل منزل ريد غيت. أربعة بالإجمال».

«كنتُ أظن أن تجارة العاج غير شرعية».

«أوه، في بعض الأماكن، نعم. لكن إذا أبلى المرء بلاءً حسناً، يعثر عليه على أية حال. كانت جدتك تعشق العاج. وقد سافرت إلى الصين في طفولتها».

«أهي مصنوعة من أنياب الفيل؟».

«أو وحيد القرن».

هذا هو الجد: قنزعة شعره الأبيض الذي لم يزل متيناً، وأخاديد الزمن الذي قضاه في البحر على متن مركبه الشراعي البارزة على وجهه. وفكّه القوي مثل فكّ نجم سينمائي مسن.

«إذا أبلى المرء بلاءً حسناً، يعثر عليه على أية حال»، كان قد صرّح بشأن العاج.

ليستعيد إحدى حكمه المفضلة: **لا تدع أحداً يقول لك لا أبداً**.

رأيتُ فيها دوماً شكلاً من أشكال البطولة. كان يردد علينا هذه الجملة حين يريد أن يحثّنا على متابعة أحلامنا. حين كان يشجّع

جوني على التدرّب للماراتون أو حين أخفقتُ في نيل الجائزة الأولى للمطالعة في الصف الخامس. للحديث عن الصفقات أو ليخبرنا كيف حصل على يد جدتي تيبر.

«طلبتُ منها أربع مرات أن تتزوجني قبل أن توافق أخيراً»، كان يقول لنا دوماً، متذكّراً إحدى أساطيره العائلية المفضلة. «لقد ألححتُ عليها. فوافقت حتى تسكتني».

في ذلك اليوم، على مائدة الفطور، وأنا أنظر إليه يأكل قطعة خبزي، بدت لي حكمته **لا تدع أحداً يقول لك لا أبداً** فجأة كنزوة ثري أناني لا يعبأ بنتائج أفعاله، ما دامت زوجته تستطيع أن تشتري تماثيل جميلة لتزيّن بها فيلاتها المخصّصة للعطل.

ذهبتُ وأخذتُ التمثال.

«يجب ألا يشجع أحد تجارة العاج»، صرّحتُ. «إذا كانت تجارة غير شرعية، فهنالك سبب. كان غات يقرأ في أحد الأيام مقالاً عن...».

«لا أحتاج إلى معرفة ما يقرأه هذا الصبي»، ردّ جدي بقسوة. «أنا أعرف. أقرأ الصحف».

«اعذرني. لكن هذا دفعني إلى التفكير بشأن الـ...».

«كادنس».

«بوسعك أن تبيع التماثيل في المزاد العلني وتقدِّم هبات من المال إلى جمعية حماية الحيوانات والنباتات».

«ولكن حينها، لن يعود لدي تماثيل. وكانت جدتك متمسكة بها كثيراً».

«أجل، ولكن...».

انفعل:

«لا تملي علي ما يجب أن أفعله بنقودي يا كادي. فهذه نقودي».

«حسنٌ».

«أمنعك أن تملي علي كيف أتصرف بما يخصني، مفهوم؟».

«أجل».

«وألّا يتكرر هذا ثانية».

«حاضر يا جدي».

اضطررت أن أضبط نفسي لئلا أمسك الإوزّة وأرميها لتطير في الحُجرة.

هل كانت ستتحطم عند اصطدامها بالمدفأة؟ هل كانت ستتناثر إلى شظايا؟

أعتصر قبضتَي.

كانت المرة الأولى التي نتطرق فيها إلى جدتي تيبر منذ موتها.

يربط جدي المركب بالجسر العائم.

«هل تشتاق إلى جدتي تيبر؟»، أسأله على طريق منزل كليرمونت الجديد. «لأنني أشتاق إليها أنا. إننا لا نتحدث عنها أبداً».

«اختفى جزء مني معها»، يقول. «الجزء الأفضل مني».

«أحقاً هذا ما تظنه؟».

«هذا كل ما يسعني قوله في هذا الشأن»، يختتم حديثه.

43

ألتقي الكذّابين ثانية في حديقة كودلداون. تتناثر على المرج مضارب تنس وزجاجات وعبوات أطعمة ومناشف سباحة. كان الثلاثة ممدّدين على أغطية قطنية، وفوق أنوفهم نظارات سوداء، وهم يقضمون رقائق البطاطا.

«هل تشعرين أنك أفضل؟»، تسألني ميرين.

أجيبها بإيماءة من رأسي.

«اشتقنا إليكِ».

طلوا أجسادهم بزيت أطفال. وعبوتان ترقدان غير بعيدتين على العشب.

«ألا تخشون الحروق الجلدية؟»، أقول.

«لم أعد أثق بالواقي الشمسي»، يجيب جوني.

«قرر جوني أن العلماء فاسدون وأن صناعة مستحضرات الوقاية من الشمس هي احتيال كبير»، تشرح ميرين.

«ألم تصابوا قط بحساسية من الشمس؟» أقول. «تبدأ بشرتكم تصاب ببثور، فعلاً».

«هذا شيء سخيف. كنا نشعر بالضجر، هذا كل ما في الأمر»، تجيب ميرين.

وهم يواصلون طلاء أذرعهم بمستحضر أطفال.

أتمدّد بجانب جوني.

أفتح كيس رقائق بطاطا بطعم الشواء.

أنظر إلى جذع غات.

تقرأ ميرين بصوت عالٍ مقاطع من كتاب حول جين غودال.

نستمع إلى الموسيقى على جهازي الآيفون، بصوته النشاز.

«لماذا لم تعد تثق بمستحضرات الوقاية من الشمس الآن؟»، أسألُ جوني.

«إنها مؤامرة. حتى يبيعوا أطناناً من المستحضرات التي لا يحتاجها أحد».

«هممم».

«لن أصاب بضربة شمس»، يؤكد لي. «سترين».

«لكن لماذا تضع زيت أطفال؟».

«أوه، هذا وهمٌ آخر. أحب فقط أن تكون بشرتي رطبة بشكل دائم».

يباغتني غات في المطبخ، وهو يبحث عمّا يأكله. لا شيء يذكر في الخزائن.

«آخر مرة رأيتكِ فيها، بدوتُ أيضاً مخيباً للأمل»، يقول. «في الممشى، منذ يومين».

«أجل».

ترتعش يديّ.

«أقدّم لكِ اعتذاراتي».

«لا بأس».

«هل يمكننا أن نبدأ من الصفر؟»

«لا يمكننا أن نبدأ من الصفر كل يوم، يا غات».

«لمَ لا؟».

يقفز ليجلس على طاولة تحضير الطعام.

«لعلّ هذا الصيف هو صيف الفرصة الثانية».

«فرصة ثانية، موافقة. لكن بعدها، يصبح الأمر سخيفاً».

«إذاً حاولي أن تكوني طبيعية معي، اليوم على الأقل. لنتصرف كأنني فتى معافى ومتوازن، وكأنك لست غاضبة. لنتصرف كأصدقاء وننسى ما جرى».

لا أرغب في التصرف على مبدأ كأن.

لا أرغب أن نكون أصدقاء.

لا أرغب في النسيان. على العكس، أحاول أن أتذكر.

«يوم أو يومان فقط، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها»، يضيف وهو يرى تردُّدي. سنقضي الوقت معاً وسنريح رؤوسنا أخيراً.

أريد أن أعرف كل شيء، وأفهم كل شيء. أريد أن أضمَّ غات إليّ، وألمسه، وأداعبه، وألا أفلته ثانية أبداً.

لكن قد تكون الطريقة الوحيدة هي أن نبدأ من الصفر.

كوني طبيعية، فوراً. هذا أمر.

لأنك أنتِ هكذا. ولأنكِ تستطيعين أن تكوني هكذا.

«تعلّمتُ أن أفعل هذا»، أقول.

أناوله كيس الكاراميل الذي اشتريته أنا وجدي في إدغارتاون. يتذوّق واحدة بالشوكولاتة، فيُشرق وجهه ويثير غصةً في قلبي.

في اليوم التالي، أستقلُّ أنا وميرين القارب الصغير لنذهب إلى إدغارتاون دون إذن.

لم يرغب الصبيّان في مرافقتنا. فقد كانا يريدان التجديف.

أقود وميرين تدلّي يدها في خطّ الزبد خلف المركب.

لا ترتدي شيئاً يذكر: صدرية سباحة مزخرفة بأزهار الأقحوان وتنورة جينز قصيرة. تذرع أرصفة القرية ذات البلاط المستدير بالخُطى وهي تحدّثني عن دريك لوغرهيد وعن «علاقاتهما الحميمة». تستعمل دوماً هذه العبارة؛ وحين أسألها عن شعورها، تشبّهه بمزيج من عطر الورد الياباني ودورة في الجبال الروسية وألعاب نارية.

تحدّثني أيضاً عن الثياب التي تود شراءها من أجل دخول الجامعة في بومونا، وعن أفلامٍ ترغب بمشاهدتها وعن مشاريع تفكر فيها لهذا الصيف، كإيجاد مركزٍ للفروسية في مارثاز فاينيارد أو إعادة صنع الكريمة المجمّدة. بصراحة، تثرثر بلا توقف لمدة نصف ساعة.

كنتُ أود لو أعيش حياتها. حبيبٌ ومشاريع وكلية في كاليفورنيا. ينفتح مستقبل مشرق أمامها بينما سأعود أنا إلى ديكنسون أكاديمي لأكابد عاماً آخر ثلجياً وخانقاً.

أشتري علبة كاراميل صغيرة من متجر موردیکس، مع أنه لم يزل لدينا كاراميل من البارحة. نجلس على مقعد في الظل، وتستمر ميرين في الثرثرة.

تنبثق ذكرى أخرى مدفونة.

الصيف الخامس عشر. كانت ميرين تجلس بجانب تافت وويل على درجات كشكنا المفضّل في إدغارتاون المخصَّص لبيع المنتجات البحرية. كان الصبيان يلعبان بطواحين هواء بلاستيكية متعدّدة الألوان. كان فم تافت ملطّخاً بالكاراميل. ننتظر بيس، لأن لديها حذاء ميرين ولأنه لا يمكننا أن ندخل ما دامت حافية.

كانت قدما ميرين متسختين وأصابعهما مطلية بطلاء أزرق.

كنا ننتظر منذ فترة حين خرج غات من حانوت غير بعيد، يحمل كدسة كتب تحت ذراعه. هرع نحونا، كأنه يتعجّل الانضمام إلينا بينما نحن جالسون هناك دون أن نحرّك ساكناً.

توقف فجأة أمامنا. أول كتاب من كدسته هو **الوجود والعدم** لسارتر. كان هذا العنوان لا يزال مكتوباً على يديه. نصيحةُ الجد بقراءته.

انحنى غات أمامي انحناءة مهرّج وقورة، وناولني آخر كتاب من كدسته: رواية لجاكلين موريارتي. كنت ألتهم كل شيء لها منذ بداية الصيف.

فتحتُ صفحة العنوان. وقرأت: **إلى كادي، مع كل شيء، كل شيء. غات.**

«أتذكر حين كنا ننتظر أن تستردّي حذاءك لندخل إلى كشك المنتجات البحرية»، أقول لميرين.

تتوقف عن الكلام وتنظر إليّ، وعيناها تشعان أملاً.

«أتذكر طواحين الهواء»، أقول. «والكتاب الذي قدّمه لي غات».

«تكادين تستعيدين ذاكرتك»، تهتف إعجاباً. «هذا رائع!».

«والخالات اللاتي كنّ يتجادلن بشأن التركة».

تهز كتفيها.

«أجل، شيء من هذا القبيل».

«وأيضاً مشاحنة بيني وبين جدي بسبب تماثيله العاجية».

«آه، هذا... كنا نتحدث عنه دوماً».

«فسّري لي شيئاً».

«ما هو؟».

«لماذا اختفى غات بعد حادثتي؟»

تلفُّ ميرين خصلة شعر حول سبابتها.

«لا أعرف شيئاً عن هذا».

«هل عاد للعيش مع راكيل؟»

«لا أعرف شيئاً عن هذا».

«هل تشاجرنا؟ هل تصرفتُ تصرفاً سيئاً؟»

«لا أعرف شيئاً عن هذا يا كادي».

«غضب مني ليلة أمس لأنني لم أعرف أسماء الخدم. ولأنني لم أرَ قط شقته في نيويورك».

يسود صمت.

«لديه أسباب وجيهة حتى يغضب»، تقول ميرين أخيراً.

«ماذا فعلتُ؟».

تتنهّد.

«لا يمكنك أن تغيّري شيئاً في الأمر».

«لماذا؟»

فجأة، توشك أن تختنق، وتصاب بحالة غثيان، كأنها ستتقيّأ. تحني جذعها، وجهها شاحب ويتصبب عرقاً.

«هل أنت بخير؟».

«لا».

«هل أستطيع مساعدتك؟».

لا تجيب.

أعرضُ عليها قليلاً من الماء. تقبل. تشرب رشفات بطيئة.

«لقد تماديتُ كثيراً. يجب أن أعود إلى كودلداون. حالاً».

نظرتها مذهولة. أناولها يدي. بشرتها رطبة، تترنح على ساقيها. نمشي صامتتين حتى المرفأ حيث ينتظرنا المركب الصغير ذو المحرك.

لم تلاحظ ماما غياب المركب، لكنها لاحظت بالمقابل علبة الكاراميل التي أعطيتها إلى تافت وويل.

وهراءات، تبدأ من جديد. حتى مواعظها لا أهمية لها.

لا يفترض بي أن أغادر الجزيرة من دون إذن.

لا يفترض بي أن أغادر الجزيرة من دون وجود شخص راشد.

لا يفترض بي أن أقود مركبة ذات محرك ما دمتُ تحت العلاج.

لكنني بالتأكيد أذكى من هذا، أليس كذلك؟

أغمغم بالاعتذارات التي تريد سماعها. ثم أنسلُّ إلى ويندمير وأدوّن كل ما أتذكره: كشك المنتجات البحرية، طواحين الهواء، قدما ميرين المتسختان على الدرجات الخشبية، هدية غات، على ورقة مسطّرة فوق سريري.

في بداية أسبوعي الثاني من العطلة، قررنا استكشاف سطح كودلداون. من السهل تسلّقه؛ وإذا لم يسبق لنا أن فعلنا ذلك قط، فلأنه يجب المرور من نافذة غرفة الخالة بيس.

الجو باردٌ جداً فوقه ليلاً، أما نهاراً فنستمتع بإطلالة رائعة على بقية الجزيرة والبحر من ورائها. أرى أعلى قمم الأشجار المحيطة بكودلداون حتى منزل كليرمونت الجديد وحديقته. وأرى حتى داخل المنزل، بفضل النوافذ الزجاجية الواسعة للطابق الأرضي. نلمح أيضاً جزءاً من ريد غيت، ومن الجهة الأخرى ويندمير والخليج الصغير.

في هذا العصر الأول، نبسط مؤننا على غطاء قديم للنزهات. لدينا رغيف خبز برتغالي ضخم وأصناف مختلفة من الجبن السائل في سلال خيزران صغيرة. ثمار توت في علب من الورق المقوّى الأخضر. زجاجات عصير الليمون البارد.

نقرّر المجيء إلى هنا كل يوم. طوال الصيف. هذا السطح هو أفضل مكان في العالم.

«إن متّ الآن»، أقول ونحن نتأمل المنظر، «أعني، حين سأموت، بالأحرى، أريد أن ترموا رمادي في البحر عند الشاطئ الصغير. هكذا، حين تشتاقون إليّ، ما عليكم إلا أن تصعدوا إلى هنا، وتخفضوا أعينكم وتتذكروا الفتاة الرائعة التي كنتها».

«أو يمكننا أن نسبح معك»، يقول جوني. «إن اشتقنا إليكِ فعلاً أكثر من اللزوم».

«يا للهول!».

«أنتِ من ترغبين في قضاء الأبدية في مياه الشاطئ الصغير، ألفت انتباهك».

«كانت مجرد وسيلة لأعبِّر عن حبي لهذا المكان. وسيكون مثالياً لينثر المرء فيه رماده».

«أجل»، يقول جوني. «هذا واضح».

لا يقول غات وميرين شيئاً، فهُما منهمكان في نقر حبات البندق المغطّسة بالشوكولاتة في إناء خزفي أزرق.

«هذا حديث مثير للاشمئزاز»، تصرح ابنة خالتي أخيراً.

«على الإطلاق»، يعترض جوني.

«لا أريد أن يتناثر رمادي هنا»، يقول غات.

«ولمَ لا؟»، أقول. «سنكون جميعاً معاً، مجتمعين في عرض بحر عند الشاطئ الصغير».

«وسيأتي الصغار ليسبحوا معنا فيه!»، يهتف جوني متعجّباً.

«أنتم تشعرونني بالغثيان»، تقول ميرين بجفاف.

«هذا لا يختلف كثيراً عن جميع المرات التي تبولت فيها في الماء»، يبدي جوني ملاحظته.

«أوف».

«أوه، هيا، كل الناس تفعل هذا!».

«أنا لا أفعل هذا»، تجيب ميرين.

«بالتأكيد تفعلين. إذا لم تكن مياه الشاطئ الصغير ملوثة

بالكامل، بعد كل هذه السنين من التبول داخلها، فلن تدنسها بضع حفنات من الرماد».

«هل تفكرون بجنازتكم أحياناً؟»، أقول.

«ماذا؟»، يقول جوني وهو يسدُّ منخريه قرفاً.

«أنت تعرف، في **توم سوير**، حين يعتقد الجميع أن توم وهوك وماتشين تريك...».

«جو هاربر»، يهمس لي غات.

«هو ذا، يعتقد الجميع أن توم وهوك وجو هاربر ماتوا. يقصد الفتية مكان دفنهم ويسمعون سكان القرية يستحضرون كل الذكريات الجميلة عنهم. حين قرأتُ هذا، دفعني ذلك إلى التفكير بدفني. مثلاً، أي زهور ستوضع هناك، وأين أحب أن ينثروا رمادي. والرثاء أيضاً: من سيذكر إلى أي حدّ كنتُ كائناً استثنائياً، وأنني نلتُ جائزة نوبل وجائزة الألعاب الأولمبية؟».

«أي رياضة في الألعاب الأولمبية؟»، يسأل غات.

«كُرة اليد، ربما».

«وهل يوجد كُرة يد في الألعاب الأولمبية؟».

«أجل».

«وهل تمارسينها؟».

«ليس بعد».

«من الأفضل لكِ أن تبدئي فوراً».

«معظم الناس يخطّطون لزواجهم أكثر»، تعلّق ميرين. «وهذا ما كنتُ أفعله، فيما مضى».

«الرجال لا يخطّطون أبداً لزواجهم»، يقول جوني.

«لو أنني تزوجت دريك، لما تمنيتُ إلا زهوراً صفراء. في كل

مكان طبعاً. لارتديتُ فستاناً بلون الشمس، كفستان عرس عادي، لكنه أصفر. ولارتدى دريك حزام كمّربوند يتماشى مع هذا اللون».

«ينبغي أن يحبك حبّاً جمّاً فعلاً حتى يرتدي حزام كمّربوند أصفر»، أقول.

«أجل. لكنه سيفعل ذلك».

«سأخبركم بما لا أرغب فيه بشكل خاص عند دفني»، يصرّح جوني بعظمة. «لا أريد للمدّعين النيويوركيين المتحدرين من عالم الفن الذين لا أعرفهم حتى، أن يجتمعوا في قاعة استقبال تافهة».

«لا أريد متدينين يتحدثون عن طقوس لا أؤمن بها»، يقول غات.

«أو زمرة مومسات يتظاهرن بالحزن قبل أن يذهبن لتسريح شعرهنّ ووضع مساحيقهنّ أمام مرآة الزينة»، تضيف ميرين.

«من يسمعكم، يعتقد أن الدفن شيء مشؤوم»، أقول.

«فعلاً، كادي»، تلحّ ميرين. «كان عليك أن تخطّطي لزواجك، وليس لجنازتك. لا تكوني كئيبة إلى هذا الحدّ».

«وإذا لم أتزوج أبداً؟ أو لم أرغب بالزواج؟».

«نظّمي أمسية لإطلاق أول كتاب لك في هذه الحالة. أو افتتاح معرض للوحاتك».

«ستفوز بالألعاب الأولمبية وجائزة نوبل»، يقول غات مذكّراً. «يمكنها أيضاً تنظيم أمسيات لهذا الأمر».

«ممتاز»، أقول. «لننظم احتفالاً بمناسبة ميداليتي الأولمبية في كُرة اليد. إن كان يسرّكم هذا».

نتخيل كل شيء، حتى أدقّ تفصيل. كُرات يد مغطسة بكريمة

زرقاء مثلجة. فستان مقصّب لأجلي. أقداح شمبانيا في قعرها كُرات صغيرة مذهّبة. نتساءل هل يرتدي لاعبو كُرة اليد نظارات بلاستيكية واقية كما في كُرة المضرب، ونظراً إلى مقتضيات الأمسية، نقرّر أنهم يرتدون. لذلك سيضع المدعوون نظارات كُرة يد مذهّبة طوال فترة الاحتفال.

«هل تلعبين ضمن فريق؟»، يتساءل غات. «أعني، هل سيوجد سرب من لاعبات كُرة اليد الحسناوات الشبيهات بآلهات أمازونيات قادمات للاحتفال بانتصارهنّ معك؟ أم أنك تفوزين في الفردي؟».

«ليس لدي أي فكرة عن هذا».

«يجب فعلاً أن تبدئي بجمع المعلومات»، يقول غات. «وإلا لن تحصلي أبداً على ميدالية ذهبية. وسيترتب علينا أن نعيد التفكير في تصورنا للأمسية إن لم تنالي سوى الميدالية الفضية».

بدت الحياة جميلة للغاية، ذاك اليوم.

نحن الكذّابون معاً، الأربعة كلهم، كما كنا دوماً.

وكما سنكون دائماً.

لا يهم ما سيحدث حين سنذهب إلى الكلية، حين سنصبح راشدين ويشق كل واحد منا حياته؛ ولا يهم إن انتهيت أنا وغات معاً أم لا. لا يهم أين سنذهب، سنلتقي دوماً على سطح كودلداون لنتأمل البحر.

هذه الجزيرة لنا. هنا، بشكل أو بآخر، سنبقى شباباً للأبد.

46

الأيام التالية تكفهرّ. لا يرغب الكذّابون في الخروج. حلق ميرين ملتهب وعضلاتها متشنجة. لا تكاد تخرج من كودلداون. ترسم لوحات تعلّقها على جدران الممرات وتصفّ الأصداف على امتداد طاولة تحضير الطعام في المطبخ. تتكدّس الأواني المتسخة في المجلى وفوق الطاولة المنخفضة. وكتبٌ وأقراص مدمجة تتناثر على شكل أكداس فوضوية في الصالون الكبير. لم يُرتَّب أي سرير، وتنبعث رائحة رطوبة وعفونة من حمامات المنزل.

يأكل جوني الجبن بأصابعه ويشاهد أفلاماً كوميدية إنكليزية على التلفاز. وذات يوم، يلتقط أكياس شاي قديمة مستعملة ويرميها في كوب عصير البرتقال.

«بماذا تلعب؟»، أقول.

«من يصنع أكبر اللطخات يفوز».

«لماذا؟».

«لا تحاولي فهم عبقريتي. آمني بخبرتي: الرمي من الأسفل هو أفضل تقنية».

أساعده في إحداث نظام للنقاط. خمس نقاط لحزمة واحدة جديرة برشاش مياه آلي، عشر نقاط لإحداث بركة صغيرة، وعشرون نقطة لصورة تزيينية على الجدار خلف الكوب.

تنفد كل زجاجة عصير البرتقال. حين انتهى جوني من ذلك،

يترك الكوب وأكياس الشاي الصغيرة التالفة ونصف الممزقة في مكانها.

ولا أنظف شيئاً، أنا أيضاً.

لدى غات قائمة بأفضل مئة رواية كُتبت على الإطلاق، وطموحه أن يقرأ جميع الروايات التي يستطيع إيجادها على الجزيرة. يُدرج فيها قصاصات ليحفظ مقاطع معيّنة يقرأها علينا بصوت عالٍ. **الرجل الخفي. الطريق إلى الهند. عائلة أمبرسون العظيمة.** لا أصغي إليه إلا جزئياً، لأنه لم يقبّلني ولم يشعر بأي حماس عاطفي نحوي منذ أن قررنا التعامل بشكلٍ عادي.

يراودني انطباع أنه يتحاشى أن يوجد بمفرده معي.

أتجنّبه، أنا أيضاً. لأنني أحس بجسدي يرتعش من رأسي حتى قدميّ حين أكون قريبة منه. لأن أي حركة منه مشحونة بالكهرباء. غالباً ما حاولتُ أن أحتضنه وأقبّل شفتيه. حين أستسلم لهذا النوع من أحلام اليقظة -أجل، مثلاً، يغيب جوني وميرين للحظات ونلفي نفسينا وحيدَين، ولو لبرهة- يصبح ألمي من عذاب الحب مشابهاً للآلام التي تعصف برأسي.

يبدو لي صداعي النصفي مثل ساحرة عجوز شمطاء تهرس بأصابعها القاسية قشرة دماغي الحي. تعبث بأعصابي، تسبر داخل جمجمتي لترى إن كان بوسعها أن تستقر فيها. حين ترحل، أستحسن البقاء طريحة الفراش ليوم أو اثنين.

نتناول الغداء على السطح كل ظهيرة أو نكاد.

لا بدَّ أنهم يفعلون ذلك أيضاً حين أكون مريضة، على ما أتصور.

من حين إلى آخر، تتدحرج زجاجة حتى الحافة وتتحطم في الأسفل. الحق يُقال، تمتلئ شرفة البيت بنثرات زجاج وحطام دبق بسبب شراب الليمون.

يحوم الذباب حولها، وقد جذبه السكّر.

عند نهاية الأسبوع الثاني، أكتشف جوني وحيداً في الحديقة يلعب لعبة الليغو التي جلبها من ريد غيت.

أحضرتُ مُخلّل خيار، وأصابع جبنة وبقية سمكة تونة مشوية من مطبخ منزل كليرمونت الجديد. قررنا عدم الصعود إلى السطح نحن الاثنان فقط. ننشر المأكولات ونضعها على حافة شرفة المدخل القذرة. يشرح لي جوني أنه يود أن يبني مدرسة بودلارد للسحرة بقطع الليغو. أو النجم الأسود. لا، الأفضل أيضاً! سمكة تونة بالليغو لتزيين منزل كليرمونت الجديد، خاصة أن جدي لم يعد لديه أي سمكة من أسماكه المحنّطة. أجل، هو ذاك! خسارة أنه لا يوجد ما يكفي من قطع الليغو على هذه الجزيرة السخيفة لتنفيذ مشروع حالم إلى هذا الحد.

«لماذا لم تتصل بي قط ولم تراسلني بعد حادثتي؟»، أقول.

لم أقصد أن أقول هذا. لكنه صدر عني عفوياً.

«أوه، كادي...».

أشعر أني غبية لأنني طرحت عليه هذا السؤال، لكنني أريد أن أعرف.

«ألا تفضلين الحديث عن سمكتي التونة من قطع الليغو، بالأحرى؟»، يسألني بصوت فاتر.

«ظننتُ أن رسائلي الإلكترونية قد تكون أزعجتك. الرسائل التي أرسلتها لك بشأن غات».

«لا، لا».

يمسح يديه بكنزته.

«اختفيتُ لأنني مغفّل تافه. لأنني أتصرف بلا تفكير، لأنني رأيت الكثير من أفلام الإثارة ولأنني أتأثر بالآخرين».

«حقاً؟ ليست هذه هي الصورة التي شكلتها عنك على الإطلاق».

«لكن هذه هي الحقيقة المحزنة».

«أنتَ لم تكن غاضباً مني، إذاً؟».

«كنتُ مجرد أحمق وأناني. لم أغضب على الإطلاق. أبداً في حياتي. اعذريني يا كادنس».

«شكراً».

يلتقط حفنة من قطع الليغو ويبدأ بتركيبها.

«وغات، لماذا اختفى، إذاً؟ هل تعرف ذلك؟»

يتنهّد.

«هذه مشكلة أخرى».

«قال لي إني لم أكن أعرفه معرفة حقيقية».

«ربما».

«يرفض أن نتحدّث عن حادثتي. أو عمّا حدث بيننا نحن الاثنان ذاك الصيف. يريد أن نتصرف وكأن شيئاً لم يحدث».

صفّ جوني قطع الليغو ليرسم خطوطاً زرقاء وبيضاء وخضراء.

«تصرّف غات تصرُّفاً مشيناً تجاه صديقته راكيل بخروجه معك. كان يعرف أن تصرّفه مثير للاشمئزاز، وراح يلوم نفسه بقسوة».

«لا بأس».

«لم يكن يريد أن يشبه الأشخاص الذين يخونون صديقاتهم. يريد أن يكون شخصاً مخلصاً. ذاك الصيف، كان يشعر بالسخط. بسبب الكثير من الأمور. ولام نفسه أكثر على عدم وجوده هنا من أجلك».

«أتعتقد؟».

«أتصوّر هذا، يجيب جوني».

«هل لديه صديقة الآن؟».

«أوه، كادي... إنه مغرور قذر. أحبّه كأخ، لكنكِ أفضل منه بكثير. الأفضل أن تجدي لنفسك حبيباً صادقاً في فيرمونت له عضلات مثل دريك لوغرهيد».

يختنق من الضحك.

«أنت لا تُطاق».

«فعلاً، أعترف»، يقول. «وأنتِ، سخافتكِ».

43

للتخلّي: رواية **أختي ساحرة**، لديانا وين جونز.

إنها إحدى القصص في سلسلة كريستومانسي التي كانت تقرأها ماما لنا حين كنا في الثامنة من عمرنا، أنا وغات. أعدتُ قراءتها مراراً وتكراراً منذ ذلك الحين. أما غات فلم يعد قراءتها بلا شكّ.

أفتح الكتاب على صفحة العنوان وأكتبُ فيها إهداء. **إلى غات، مع كل شيء، كل شيء. كادي.**

أقصدُ كودلداون في ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي وأعبر فوق كؤوس الشاي القديمة والأقراص المدمجة. أطرق باب غرفته.

لا جواب.

مكتبة
t.me/t_pdf

أطرق مجدداً، ثم أدفع الباب.

كانت هذه غرفة تافت، في السابق. إنها مكتظة بدمى الدببة ومجسّمات المراكب، وأيضاً بتفاصيل لا تخص إلا غات، مثل أكداس الكتب، وأكياس رقائق البطاطا الفارغة ونوى الكاجو المسحوقة على الأرض. زجاجات عصير فاكهة ومشروبات غازية نصف ممتلئة، وأقراص مدمجة، وعلبة سكرابل معظم قطعها متناثرة على الأرض. فوضى فظيعة كما في بقية المنزل، لا بل أسوأ.

على كل حال، هو ليس هنا. لا بدَّ أنه غادر إلى الشاطئ.

أضع الكتاب على وسادته.

في المساء، نلتقي لوحدنا على سطح كودلداون. لم تكن ميرين على ما يرام فاصطحبها جوني لاحتساء الشاي في المطبخ.

تصل أصوات وموسيقى إلى مسامعنا من منزل كليرمونت الجديد، حيث الخالات والجد يأكلون فطائر حلوى بالتوت ويشربون نبيذاً. والصغار يشاهدون فيلماً في الصالون.

ينزل غات على امتداد منحدر السطح حتى المزراب، ويصعد ثانية. يبدو هذا خطيراً، قد يسقط في أي لحظة، لكنه لا يخاف.

الآن يمكنني أن أكلّمه.

الآن يمكننا أن نتوقف عن التظاهر بأننا نتصرف بشكل عادي.

أفتّشُ عن الكلمات المناسبة، الأفضل للشروع في حديث.

فجأة، يصعد إلى جانبي بثلاث قفزات قوية.

«أنتِ جميلة جداً، يا كادي».

«إنه القمر. يصبغ دوماً وجوه الصبايا بمسحة جمال».

«أجدك جميلة في كل مكان، وكل زمان». ينفصل ظلّه عكس الضوء. «هل لديك حبيب في فيرمونت؟».

بالتأكيد لا. لم أحظَ قط بأحد سواه.

«يدعى بيركوسيت»، أقول. «لا نفترق. وحتى ذهبتُ إلى أوروبا معه، الصيف الماضي».

«تباً».

يبدو منزعجاً. ينهض وينزل من جديد نحو حافة السطوح.

«كانت مزحة».

يدير لي ظهره.

«أنتِ لا تريدين بشكل خاص أن نشفق عليك...».

«لا».

«... لكنكِ تمدين لنا يد المساعدة بلا توقف. «**حبيبي يدعى بيركوسين**». أو: «**حدّقتُ في كرسي المرحاض الإيطالي الأزرق**». في الحقيقة، أنتِ تودّين أن يرثي الجميع لحالك. ويودّون لو يستطيعوا ذلك، وأنا أولهم، لكن ليس لديك فكرة كم أنت محظوظة».

يلتهب وجهي.

إنه محق.

أريد أن أثير الشفقة على نفسي. هذا صحيح.

وفي الوقت ذاته، لا أريد.

أريد.

ولا أريد.

«أنا آسفة»، أقول.

«أرسلكِ هاريس لتقضي ثمانية أسابيع في أوروبا. أتعتقدين أنه كان سيفعل الشيء نفسه مع جوني وميرين؟ لا. ولا معي أيضاً، هذا بديهي. فكّري قبل أن تتذمري من أشياء كان الآخرون سيدفعون ثمناً باهظاً ليحصلوا عليها».

أرتجف.

«تقصد أن جدي أرسلني إلى أوروبا؟».

«هيا»، يقول غات بمرارة، «هل كنتِ تحسبين فعلاً أن أباك أنفق على هذه الرحلة من جيبه؟».

أعرف فوراً أنه يقول الحقيقة.

بالتأكيد لم ينفق بابا على هذه الرحلة. وما كان بمقدوره. لا يستطيع أساتذة الجامعات تحمّل نفقات تذاكر طائرة في الدرجة الأولى ولا فنادق خمسة نجوم.

كنتُ معتادة على قضاء العطل في بيتشوود، وعلى خزائن الأطعمة المملوءة دوماً، وعلى مراكبنا العديدة ذات المحرّك، وعلى طاقم الخدم المأجورين ليطهوا لنا شرائح اللحم أو يغسلوا ملابسنا بحيث لم أتساءل قط من أين يأتي كل هذا المال.

أجل: أرسلني جدي إلى أوروبا. لماذا؟

لماذا لم ترافقني ماما، ما دامت الرحلة هدية من جدي؟ ولماذا قبل بابا هذا القدر من المال من جانب هاريس سنكلير؟

«حياتك تتفتح أمامك، غنية بمليون احتمال»، يستطرد غات. «لذلك أغتاظ حين أسمعك تمثلين دور الضحية».

غات، حبيبي غات.

إنه محق. في كل شيء.

لكنه لا يستوعب كل شيء أيضاً.

«أعرف أن أحداً لم يعاملني معاملة سيئة»، أقول فجأة على سبيل الدفاع. «وأعرف أن لدي المال، والتربية الصالحة. وأنني آكل دوماً حتى الشبع. وأنني لن أموت بالسرطان. وأن الكثير من الناس يعيشون حياة أسوأ من حياتي. وأعرف أن الحظ حالفني بزيارة أوروبا. لم يكن يجدر بي أن أتذمر أو أظهر جحودي».

«شكراً».

«لكن اسمعني. ليست لديك فكرة عمّا تفعله آلام الرأس كآلامي. لا، ليس لديك أي فكرة. هذا مريع».

حين أقول هذه الكلمات، أتبيّن أن دموعاً تسيل على وجنتَي دون أن أبكي حتى.

«هذا يجعلني أشعر حتى بعدم الرغبة في العيش. وغالباً ما يحدث لي أن أفكر أنني أفضّل الموت، أجل، الموت، فقط ليتوقف الألم».

«أنتِ لا تعرفين عمّا تتكلمين»، يردّ بجفاف. «لا يحق لكِ قول هذا. اسكتي».

«أريد فقط ألا أعود أتألم. ثمة أيام لا تنفع فيها الأقراص.

أريد أن يتوقف هذا، وأنا مستعدة لفعل أي شيء. فعلاً أي شيء، إن علمتُ علم اليقين أن ذلك سيزيل الألم».

يسود صمت. ينزل غات حتى الطرف السفلي للسطوح، ونظرته شاردة في البعيد.

«ماذا تفعلين في تلك الحالات؟ حين يكون الألم شديداً إلى هذا الحد؟».

«لا شيء. أبقى مستلقية وأنتظر، وأنا أردِّد أن الألم ينتهي دوماً إلى التوقف. وأن الغد هو يوم آخر يليهه يوم آخر. وأنني في يوم من هذه الأيام، سأنهض، وآكل قصعة حبوب، وسأكون بأفضل حال».

«يوم آخر».

«أجل».

يستدير ويصعد من جديد منحدر السطوح بقفزتين. فجأة، يحتضنني بذراعيه ويتشبث الواحد منا بالآخر.

يرتعش بخفة ويقبّل عنقي؛ شفتاه باردتان. نظل ساكنين، الواحد منا في حضن الآخر، لدقيقة أو دقيقتين.

ويبدو العالم أخيراً أنه استعاد مساره،

وأعرف أن كل أثر للغضب داخلنا انمحى.

يقبّل غات ثغري ويداعب وجنتَي.

أحبّه.

أحببته دوماً.

نظل هناك على السطوح لفترة مديدة، مديدة جداً. إلى الأبد.

50

يتفاقم مرض ميرين. تنهض متأخّرة، تضع الطلاء على أظافرها، تبقى مستلقية في الشمس وتشاهد مناظر طبيعية أفريقية في كتاب مصور كبير. لكنها لم تعد تغطس. ولا تركب القارب. لم تعد تلعب التنس ولم تعد تذهب إلى إدغارتاون.

أحضرُ لها حلوى جيلي من منزل كليرمونت الجديد. أعرف أنها تحبها.

نحن اليوم على الشاطئ الصغير معاً. نقرأ مجلات سرقتُها من البنتين التوأم ونحن نقضم جزراً صغيراً. تضعُ ميرين سمّاعات في أذنيها. تصغي إلى المقطوعة ذاتها على هاتفي النقال وتردّدها.

شبابنا ينهار
لن نخربه
تذكَّر جيداً اسمي
لأننا دخلنا التاريخ
نا نا نا نا، نا نا نا

أضربها بالجزرة.

«ماذا؟».

«توقفي عن الغناء أو لن أعود أجيب على شيء».

تلتفت نحوي، بهيئة رصينة. تخرج سماعاتها من أذنيها.

«هل لي أن أخبرك بشيء يا كادي؟».

«بالتأكيد».

«بشأنكِ أنتِ وغات. سمعتكما تنزلان عن السطوح، مساء أمس».

«وبعد؟».

«أعتقد أن عليكِ التوقف عن الجري وراءه».

«عفواً؟».

«ستكون عاقبة الجري وراءه وخيمة وستفسد كل شيء».

«أحبه»، أقول. «تعرفين أنني أحببته دوماً».

«أنتِ لا تسهّلين الأمور عليه. أصبح الأمر معقداً الآن بالنسبة إليه. أنتِ تعذبينه».

«أنتِ مخطئة. الصحيح هو أنني أنا من أتعذب بسببه».

«هذا ممكن، في الحقيقة. لكنني أعتقد أن فكرة وجودكما معاً ليست صائبة».

«ألا تدركين أنني أُفَضِّل أن أتعذب بسبب غات على أن أفترق عنه؟»، أقول وأنا أستوي على الرمل. «أفضّل مليون مرة أن أعيش وأتحمل المخاطر، وحتى أن أدفع ثمناً باهظاً، على أن أبقى محبوسة داخل علبة مثلما فعلت طوال عامَين. علبة صغيرة جداً، يا ميرين. أنا وماما. أنا وأقراصي. أنا ونوبات صداعي. لم أعد أريد العودة إلى تلك الحالة أبداً».

طفا صمتٌ في الهواء.

«لم أحظَ قط بحبيب»، تقول ميرين فجأة.

أحدق في عينيها. أرى دموعاً فيهما.

«ودريك لوغرهيد؟ والورود الصفراء، والعلاقات الحميمة؟».

تطأطئ رأسها.

«كذبتُ».

«لماذا؟».

«بيتشوود، كأنها عالم آخر. حين يصل المرء إلى هنا، لا يعود مضطراً لأن يكون الشخص الذي كان عليه في منزله. يمكنه أن يصير ما يود أن يكون... في النهاية، ربما».

أوافقها الرأي.

«منذ اليوم الأول لعودتك، لاحظتُ سلوك غات. كان ينظر إليكِ كأنك النجمة الأكثر لمعاناً في المجرة».

«آه؟».

«تمنيتُ أن ينظر إليّ أحد هكذا، يا كادي. ولم أكن أريد الكذب، لكن هذا باغتني فجأة. اعذريني».

لا أدري ما أقول. آخذ نفساً عميقاً.

تغضب ميرين.

«لا تظهري هذه الهيئة المرعبة، اتفقنا؟ الأمر سيان بالنسبة إلي. لا أبالي إن لم يكن عندي حبيب. لا أبالي إن لم يحبني شخص في العالم. يمكنني تجاوز ذلك».

أسمع ماما تناديني من منزل كليرمونت الجديد:

«كادنس، أنتِ هنا؟».

أصرخ لأجيبها:

«ماذا، ماذا هناك؟».

«هذا يوم إجازة الطاهية. أنا مشغولة بتحضير الغداء. تعالي وقطّعي البندورة!».

«أنا قادمة بعد دقيقة».

أتنهّد وألتفتُ نحو ميرين.

«يجب أن أنصرف».

لا تُبدي أي ردّة فعل. أرتدي كنزتي ذات القلنسوة وأصعد نحو البيت.

في المطبخ، تناولني ماما السكين ويبدأ درس الأخلاق.

هراء. أنتِ مزروعة دوماً على هذا الشاطئ.

هراء. كان عليكِ أن تلعبي مع الصغار.

جدك لن يؤبّد، تصوري.

هل لاحظتِ أنكِ أُصبتِ بضربة شمس؟

أقطّعُ وأشطر، وأنبش باطّراد من السلة البندورة القديمة ذات الأشكال الغريبة. يوجد منها الصفراء والخضراء والحمراء الرمادية.

51

كنتُ أبدأ أسبوعي الثالث على الجزيرة حين تنتابني نوبة صداع جديدة تلزمني الفراش مدة يومين. أو ربما ثلاثة أيام. لم أعد أدري. يبدأ مخزوني من الأدوية يشحُّ فعلياً مع أنني حرصتُ على المرور إلى الصيدلية مع وصفتي، قبل العطلة مباشرة، لأتزوّد بعبوة جديدة.

أتساءل هل أخذت ماما من أقراصي. ومن يدري ربما أخذت على الدوام.

لعلّ البنتين التوأم جاءتا وفتشتا في غرفتي وسرقتا أشياء ليستا بحاجة إليها. إلا إذا كانتا مدمنتين على الأدوية المخدّرة.

أو لعلني أستهلكُ منها أكثر ممّا أظن. لعلني أضاعف الجرعات مرتين أو ثلاث حين يشتد بي الألم فعلاً. وأنسى أنه سبق لي أن تجرّعتها.

أخاف أن أعترف لماما أنها سوف تنقصني قريباً.

حين تتوقف النوبة، أنسلُّ إلى كودلداون. الشمس تميل في السماء. وشرفة المدخل مزدحمة بالزجاجات المحطمة. في الداخل، وقعت شرائط زينة من السقف وترقد متشابكة على الأرض. الصحون المتّسخة في المجلى أصبحت الآن مغطاة بقشرة من الطعام اليابس. أغطية المائدة المرمية على طاولة الصالون قذرة. الطاولة الواطئة ملطخة ببقع مستديرة خلّفتها أكواب الشاي.

أكتشفُ الكذّابين مجتمعين في غرفة ميرين، يبحثون في الكتاب المقدّس.

«نتجادل بسبب كلمة سكرابل»، تشرح لي ميرين فور دخولي.

وتغلق الكتاب.

«كان غات محقاً، كدأبه دوماً. سيد حقيقي عارف بكل شيء. هل تعرفين أن هذا يزعج الفتيات؟».

حروف السكرابل متناثرة على الأرض في الصالون الكبير. رأيتها عند دخولي.

لم يكونوا يلعبون بها على الإطلاق.

«ماذا فعلتم في الأيام الماضية؟»، أسألهم.

«يا إلهي»، يتنهّد جوني وهو يتمطى على سرير ميرين. «نسيتُ الآن».

«كانت ذكرى الرابع من تموز»، تشرح ميرين. «يوم العيد

الوطني. تعشينا أولاً في منزل كليرمونت الجديد، ثم غادرنا جميعاً في مركب لمشاهدة الألعاب النارية على جزيرة مارثاز فاينيارد».

«اليوم، ذهبنا إلى متجر كعك نانتيكيت»، يضيف غات.

لا يذهبون بالعادة إلى أي مكان. أبداً. ولا يرون أحداً إطلاقاً. وفجأة، حين مرضت، ذهبوا إلى كل مكان، وقاموا بمليار شيء؟

«قمقم السكّر»، أقول. «اسم متجر الكعك».

«أجل. أفضل كعك في العالم»، يؤكّد جوني.

«أنتِ تكرهين الكعك».

«تماماً»، تتدخل ميرين. «لهذا تناولنا فطائر محلاة بالبوظة بدلاً منه».

«محشوّة بكريمة حلويات»، يحدّد غات.

«وبالمربى»، يبالغ جوني.

أعرف أن **قمقم السكّر** لا يبيع إلا كعكاً تقليدياً. لا يوجد فيه فطائر محلاة بالبوظة. وأيضاً ليست محشوة بكريمة الحلويات. أو بالمربى.

لماذا يكذبون؟

52

أتعشّى مع ماما والصغار في منزل كليرمونت الجديد، لكن نوبة صداع جديدة تنتابني خلال الليل. أسوأ من سابقتها أيضاً. أبقى ممددة في عتمة غرفتي. تأتي العقبان لتنقر الطين الذي ينز من جمجمتي المتصدعة.

حين أفتح عينَي، يكون غات عند رأس سريري. أميّزه من خلال طبقة من الضباب. تسمحُ الستائر بتسرب الضوء، لا بدَّ أن الوقت نهار في الخارج.

لا يأتي غات إطلاقاً إلى ويندمير. لكنه موجود هنا فعلاً. يتفحّص قصاصة ورقة ميليمترية ملصقة فوق سريري. يقرأ ملاحظاتي. نتف ذكرياتي والقرائن التي جمعتها منذ قدومي إلى الجزيرة: موت الكلبين، جدي والإوزّة العاجية، كتاب موريارتي الذي أهداه غات لي، جدال الخالات بشأن منزل بوسطن.

«لا تقرأ ملاحظاتي»، أقول بأنين. «توقف».

يتراجع.

«إنها على الجدار، وعلى مرأى من الجميع. آسف».

أنقلب على جنبي وأضغط خدي على الوسادة الحارقة.

«لم أكن أعرف أنك تسجّلين كل هذا كتابةً».

يجلس على طرف السرير. يتناول يدي.

«أحاول أن أتذكر ما يرفض الجميع أن يكلمني فيه»، أقول.

«بمن فيهم أنتَ».

«أريد أن أكلمك في هذا».

«حقاً؟».

ينظر في الأرض محدقاً.

«كان عندي حبيبة، منذ عامَين».

«أعرف. كنت أعرف ذلك في تلك الفترة».

«لكن لم يسبق لي أن كلمتكِ في هذا الأمر قط».

«لا، في الحقيقة».

«عشقتكِ بجنون يا كادي. لم أستطع مقاومة ذلك. أعرفُ أنه

كان يجدر بي أن أصارحك بالحقيقة وأقطع علاقتي مع راكيل. لكن... كانت تعيش في نيويورك، مثلي. لم أكن أراكِ خلال العام، ولم تكن توجد تغطية هاتفية على الجزيرة، وكنتُ أتلقى منها طروداً باستمرار. ورسائل أيضاً. طوال الصيف».

أتفرّس فيه.

«كنتُ جباناً»، يقول.

«أجل».

«كان هذا قاسياً. بالنسبة إليك وإليها».

يلتهب وجهي حين أتذكر غيرتي، وأتنشط فجأة.

«اغفري لي يا كادي»، يتابع. «هذا ما كان يجب أن أخبرك به عند وصولك هذا العام. لقد أسأتُ التصرف وأعتذر».

أوافقه. إنه لمن دواعي سروري أن أسمعه يقول هذه الكلمات. لو لم يكن فقط دماغي مشوشاً من هذه الأدوية.

«أقضي معظم الوقت في احتقار نفسي بسبب كل ما أقترفه»، يقول. «لكن أكثر ما يحطمني، هي تناقضاتي: حين لا أشعر بالاحتقار لنفسي، أحس أنني شجاع ومتفوق، ولا يفهمني الآخرون. كأن العالم برمته كان يظلمني».

«لماذا تكره نفسك إلى هذا الحد؟».

وقبل أن أستوعب ما يحدث، يتمدّد غات بجانبي. تشدُّ أصابعه المتجمِّدة على أصابعي الحارقة، ووجهه بكامله على وجهي. يقبّلني.

«لأنني أريد ما لن أستطيع الحصول عليه أبداً»، يتمتم.

لكن أنا له بالفعل. كيف يعقل أنه يجهل أنني ملكه؟

أم أنه يتحدث عن شخص آخر، عن شيء لا يمكنه بلوغه؟ شيء مادي، أو حلم؟

أتصبّبُ عرقاً، ورأسي يؤلمني. لا أستطيع التفكير بوضوح.

«ميرين تعتقد أن الأمر بيننا سينتهي نهاية سيئة وأنه يجدر بي أن أدعك وشأنك»، أقول.

يقبّلني من جديد.

«سبب لي أحدهم صدمة رهيبة حتى صار عقلي الباطن يرفض تذكّرها»، أتمتم.

«أحبكِ».

نظلُّ متحاضنين فترة طويلة نتبادل القبلات.

يتبدّد الألم المستقر في قحف جمجمتي قليلاً. لكن ليس تماماً.

حين أستيقظ، يكون الليل انتصف.

وغات اختفى.

أفتح الستائر، أنظر إلى الخارج وأرفع الزجاج ليدخل شيء من الهواء.

لم تزل خالتي كاري تتنزّه بقميص النوم. تمرُّ أمام ويندمير وهي تشدُّ على كتفيها النحيفين في ضوء القمر. وحتى لم تلبس جزمتها الفرو هذه المرة.

من ريد غيت، أسمع ويل يصرخ، مرعوباً من كابوس:

«ماما! ماما، أنا أحتاجك!».

لكن إما أن كاري لا تسمعه، وإما أنها لا تنوي الذهاب لتراه. تنعطف نحو طريق النزهة وتبدأ في تسلُّق التلة باتجاه منزل كليرمونت الجديد.

53

للتخلّي: صندوق ليغو بلاستيكي.

وزّعتُ الآن كل كُتبي. قدّمتُ بعضها للصغار، وبعضها الآخر إلى غات، وذهبتُ مع خالتي بيس لأعطي البقية إلى حانوت خيري في مارثاز فاينيارد.

هذا الصباح، أنبّش السقيفة. أعثر فيها على صندوق ليغو أُحضره إلى جوني. أجده وحيداً في الصالون الكبير في كودلداون، يرمي قطعاً من المعجون على الجدار ويتأمّل البقع الملونة على الطلاء الأبيض.

حين يرى ما أمسك بيدَي، يشير برأسه لا.

«هذا من أجل أن تصنع سمكة تونة بالليغو»، ألحّ. «لديك الآن ما يكفي من القطع».

«تخليتُ عن الفكرة»، يقول.

«ولماذا؟».

«الأمر معقّد للغاية. أعطِها لويل».

«ألم تستعِر قطعه؟».

«أعدتها له. افتقدها كثيراً. سيفرح بالحصول على قطع أخرى».

أحمل الصندوق إلى ويل وقت الغداء. يحتوي داخله عدة رجال وقطع منفصلة من أجل تركيب سيارات.

يُجَنُّ من الفرح. يصنع هو وتافت سيارات طوال الوجبة. وحتى لم يأكلا.

54

في عصر هذا اليوم ذاته، يخرج الكذّابون زوارق التجديف الصغيرة.

«ماذا تفعلون؟»، أقول.

«سندور حول رأس الجزيرة لنذهب إلى مكان خاص نعرفه»، يشرح جوني. «سبق أن فعلنا ذلك».

«يفترض ألا تأتي كادي معنا»، تعلن ميرين.

«لماذا؟».

«بسبب رأسها!»، تحتدُّ ابنة خالتي. «هل تريد أن تُجرح من جديد وتتفاقم نوبات الصداع لديها؟ أليس لديك دماغ لتفكر، أم ماذا؟».

«هل من الضروري أن تصرخي في وجهي؟»، يصيح جوني في وجهها بدوره. «توقفي عن لعب دور القائد!».

لماذا يرفضون أن أرافقهم؟

«بوسعك المجيء يا كادنس»، يتدخل غات. «لا أرى مانعاً يحول دون مجيئها معنا».

لا أرغب إطلاقاً في فرض نفسي إن لم يكن حضوري مرغوباً فيه، لكن غات يربت على مكان شاغر أمامه، عندئذ أجلس.

لم أعد أريد الانفصال عنهم.

أبداً.

ننطلق بمحاذاة الخليج ونحن نجذّف في زورقَينا الصغيرَين كل واحد منهما بمقعدين، ونمرُّ أسفل ويندمير ونصل إلى خليج صغير. كان منزل أمي مبنياً فوق كتلة صخور مبعثرة تشبه كهفاً. نترك زورقينا على الشاطئ الصخري ونتسلق لنجلس في مكان بارد وجاف.

تعاني ميرين من دوار البحر مع أن المسافة لم تستغرق سوى بضع دقائق. ساءت صحّتها للغاية هذه الفترة، ولم يتفاجأ أحد بذلك. تستلقي، وذراعاها على وجهها. أنتظر أن يفرش الصبيّان سفرة النزهة، أحضرا كيساً قماشياً معهما، لكنهما عوضاً عن ذلك، راحا يتسلّقان الصخور. ليست أول مرة يتسلّقانها، هذا واضح. بأقدام حافية، يتسلّقان حتى الذروة الواقعة على ارتفاع سبعة أو ثمانية أمتار، وهي عبارة عن نتوء صخري طبيعي يرتفع فوق البحر.

أراهما يجلسان.

«ماذا تصنعان؟».

«شيء يخصُّ الرجال!»، يجيبني جوني، فيتردُّد صدى صوته.

ينفجر غات بالضحك.

«لا، هيا!»، أقول.

«أنتِ تحسبيننا صبيَّين صغيرَين من المدينة، لكننا في الحقيقة آلات رجولة وهرمون تستوستيرون».

«هيا لنرَ».

«سترين».

«دعوني أنضم إليكما!».

«مستحيل!»، تقول ميرين.

«أغراني جوني. فات الآوان الآن».

أبدأ بتعقب طريق الصبيّين نفسه. الصخرة باردة، وزلقة أكثر ممّا تصورت.

«توقفي»، تلحُّ ميرين. «لهذا السبب لم أكن أريدك أن تأتي».

«وأنتِ، لماذا أنتِ هنا؟ هل ستصعدين أيضاً؟».

«قفزتُ المرة الماضية. وهذا يكفيني».

«هل سيقفزان؟».

يبدو لي ذلك مستحيلاً.

«توقفي يا كادي. هذا خطير»، يهتف لي غات.

لكن حتى قبل أن أنهي صعودي، يسدُّ جوني أنفه ويقفز. يرتمي في الفراغ، وقدماه إلى الأمام، من أعلى الجرف الصخري.

أصرخُ.

يشقُّ بعنف سطح الماء في مكان تحفُّ الصخور بقاعه البحري. من المستحيل تحديد العمق. قد يموت جوني حقاً فيه. قد يكون... لكنه يظهر بعد بضع لحظات وهو ينتفض ويهز شعره الأشقر القصير مع صيحات فرح.

«أنتَ مجنون!»، أهتفُ متعجِّبة.

ثم جاء دور غات. وعلى عكس جوني، الذي زعق كالمجنون ولوّح بقدميه طوال مدة سقوطه، يظل غات صامتاً، وساقاه مضمومتان. يلجُ الماء البارد ناثراً رذاذاً خفيفاً. ويخرج بهيئة سعيدة، ويعصر كنزته وهو يصعد إلى مكان جاف على الصخور.

«يا لهم من حمقى»، تقول ميرين.

أنظر إلى المكان الذي قفزا منه. يبدو لي مستحيلاً النجاة من هكذا قفزة.

فجأة، تستولي علي رغبة جامحة في أن أحاول. أتابع التسلّق.

«لا، يا كادي»، يناديني غات. «لا تفعلي هذا، أرجوكِ!».

«أنتَ فعلته لتوّك»، أقول. «وأنت قلت لي إنه يحق لي أن أرافقكم».

تستوي ميرين جالسة، ولونها شاحب.

«أريد العودة إلى البيت»، تقول بنبرة ملحّة. «الآن. لا أشعر أنني بخير».

«توقفي يا كادي!»، يناديني جوني بدوره. «إنه مرتفع جداً. لم يكن يجدر بنا أن نصطحبك معنا!».

«أنا لستُ عاجزة. أعرف السباحة».

«ليست هذه المشكلة. ليست... ليست فكرة صائبة!».

«ولماذا هي فكرة صائبة لكما، وليست صائبة لي؟»، أقول بجفاف.

بلغتُ القمة تقريباً. أشعر بحرقة في أصابعي من فرط التشبّث بالصخور. أحس أن الأدرينالين يتدفق في شراييني.

«نحن ارتكبنا حماقة»، يقول غات.

«حتى نستعرض»، يضيف جوني.

«انزلي، أتوسل إليكِ».

تطفر الدموع في عينَي ميرين الآن.

لا أصغي لهم. أمكث جالسة، وركبتاي مثنيتان على صدري، على حافة الصخرة التي قفز منها الصبيّان. أنظر إلى دوامات البحر في الأسفل. تظهر بقع داكنة، لابدة تحت السطح، لكنني أميّز أيضاً منطقة أكثر صفاءً. وأنا أصوب بدقة، سأسقط كومة واحدة في المياه العميقة.

«افعل دوماً ما يُخيفك!»، أهتف.

«هذا شعار سخيف»، تجيب ميرين. «سبق أن أخبرتك بذلك!».

سأبرهن على قوتي لهؤلاء الذين يظنون أني مريضة.

سأبرهن على شجاعتي لهؤلاء الذين يظنون أني ضعيفة.

تهبُّ الرياح بقوة في الأعلى. ميرين تذرف دموعاً حارة. غات وجوني يصرخان لي بكومة أشياء.

أغمضُ عينَي وأقفز.

صدمة الماء كهربائية. ومثيرة. أخدش ساقي بصخرة، الساق اليسرى. وأغوص في الأعماق.

حتى القاع الصخري في الأسفل تماماً، و

أرى قاعدة بيتشوود آيلاند و

لا أعود أحس بذراعَي ولا ساقَي فيما تتجمد أصابعي. تعوم حولي نتف من الأعشاب البحرية وأنا أغوص.

عندئذ، أصعد فجأة إلى السطح وأتنفس.

كل شيء على ما يرام،

رأسي معافى،

لا داعي للبكاء أو القلق عليّ.

أنا بخير،

أنا على قيد الحياة،

أعود إلى الشاطئ.

أتساءل أحياناً هل يمكن للواقع أن ينشطر إلى قسمَين. تتناول قصة **أختي ساحرة**، الكتاب الذي أهديته إلى غات، كونَين متوازيَين

تحصل فيهما أحداث مختلفة مع الأشخاص ذاتهم. لأن خياراً آخر اتُّخذ في لحظة معيّنة، أو لأن حادثاً لم تترتب عليه النتائج عينها. جميع الشخصيات مزدوجة في تلك العوالم الأخرى. نسخ متطابقة تعيش حيوات مختلفة، بمصير مختلف.

روايات أخرى.

أتساءل، مثلاً، هل توجد رواية أخرى لهذا اليوم الذي أواجه فيه الموت وأنا أقفز من أعلى الصخرة. رمادي ينثر في عرض البحر على الشاطئ الصغير أثناء مراسم جنازتي. مليون زهرة فاوانيا تطفو حول جسدي الغارق، والحضور يذرفون دموع الحزن والحسرة. أموت موتاً جميلاً.

أتساءل هل توجد رواية أخرى يلفي جوني نفسه فيها مصاباً إصابةً بليغة، وقد تحطّم ظهره وساقاه على الصخور. ليس لدينا أي وسيلة للاتصال بالإسعاف وعلينا أن ننقله في الزورق الصغير، بالتجذيف، وقد تقطّعت أعصابه. وحين تضعه طائرة مروحية في فناء المستشفى، نعرف سلفاً أنه لن يستطيع المشي ثانية أبداً.

أو رواية أخرى أيضاً، لا أنضم فيها إلى رحلة الكذّابين. وأُذعن لرفضهم لي. يقومون بأشياء كثيرة من دوني ويكذبون عليّ بشأن نشاطاتهم. تتسع الهوّة بيننا بالتدريج ويؤول فردوسنا الصيفي إلى السقوط في عالم النسيان.

يبدو لي أن كل هذه الروايات موجودة، فعلاً.

55

أستيقظ ليلاً، وأشعر بالبرد. أزحتُ أغطيتي عني أثناء نومي والنافذة مفتوحة. أستوي جالسة بسرعة كبيرة في سريري ورأسي يدور.

ذكرى.

خالتي كاري تبكي. منحنية إلى الأمام، ووجهها مُخضّب بالدموع ولا تمسح حتى مخاطها. تطوي جسدها وتعتريها اختلاجات، كأنها توشك على التقيّؤ. الوقت ليلٌ وترتدي قميصاً قطنياً أبيض مع سترة واقية ملقاة على كتفيها، سترة جوني ذات المربعات الزرقاء.

لماذا ترتدي سترة جوني؟

لماذا هي حزينة إلى هذه الدرجة؟

أنهض، وأجدُ كنزة وحذاء. ألتقط مصباحاً يدوياً وأسلك الطريق إلى كودلداون. الصالون الكبير خالٍ، يغمره ضوء القمر. زجاجات مصفوفة على طاولة الشرب في المطبخ. أحدهم نسي تفاحة مشطورة إلى نصفَين ويوشك لبّها أن يسمرّ. أشم رائحتها.

ميرين هناك. لم أرَها للوهلة الأولى. متدثّرة بغطاء مقلّم، وتجلس متكئة على الأريكة.

«أنتِ مستيقظة»، تتمتم.

«أرغب برؤيتك».

«لماذا؟».

«خطرت ببالي ذكرى. خالتي كاري. كانت تنتحب وسترة جوني على ظهرها. هل تتذكرين أنكِ رأيتِها تبكي؟».

«أحياناً».

«لكن هل رأيتها تبكي في الصيف الخامس عشر، حين كان شعرها قصيراً؟».

«لا»، تجيب ميرين.

«لماذا لا تنامين؟»، أقول.

تهزُّ رأسها.

«لا أدري».

أجلس.

«هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟».

«بالتأكيد».

«أحتاج أن تحكي لي ما جرى قبل حادثتي. وبعدها. تقولين دوماً أن هذا غير مهم... لكن حدث لي بالتأكيد شيء آخر غير الإصابة البسيطة في الرأس أثناء السباحة في منتصف الليل».

«هممم».

«هل تعرفين ما هو؟».

«تقول بيني إن الأطباء لا يريدون أن نحدّثك في هذا الأمر. ستستعيدين ذاكرتك من تلقاء نفسك ويجب ألا يتدخل أحد في هذه العملية».

«لكنني أطلب منك ذلك، يا ميرين. أحتاج أن أعرف».

تضع رأسها على ركبتيها. متفكّرة.

«برأيك، ماذا حدث لكِ؟».

«أظن... أظن أنني كنتُ ضحية أمر ما». أجد صعوبة بالغة في

التفوه بهذه الكلمات. «أنني تعرضتُ لاغتصاب، اعتداء أو شيء فظيع من هذا القبيل. هذا النوع من الصدمات يجعل الناس يفقدون ذاكرتهم عادةً، أليس كذلك؟».

تحك ميرين شفتيها.

«لا أعرف ماذا أقول لك».

«اشرحي لي ما حدث».

«كان صيفاً فوضوياً».

«لماذا؟».

«هذا كل ما بوسعي أن أقوله عنه، يا عزيزتي كادي».

«لماذا لا تخرجون من كودلداون إلا ما ندر؟»، أقول فجأة. «نادراً جداً ما تخرجون من البيت، إلا للذهاب إلى الشاطئ الصغير».

«ذهبتُ للتجذيف في الزورق الصغير اليوم».

«لكنك كنتِ متكدّرة. تخافين من الذهاب خارجاً، أليس كذلك؟»، أقول. «هل أنتِ مصابة برهاب الخلاء؟».

«لا أشعر أني على ما يرام يا كادي»، تجيب على سبيل الدفاع. «أشعر بالبرد طوال الوقت، ولا أتوقف عن الارتعاش. حلقي يؤلمني. لو كنتِ في مثل حالتي، لما خرجتِ أنت أيضاً».

أشعر معظم الوقت أن حالتي أسوأ من حالتها بكثير، لكنني أتحاشى هذه المرة الحديث عن نوبات صداعي.

«يجب أن تخبري بيس بهذا. وأن تري طبيباً».

تومئ برأسها بالرفض.

«إنه مجرد زكام تافه لا أستطيع التخلُّص منه. أنا أتدلّل. هل تتكرمين وتجلبي لي بيرة بالزنجبيل؟».

ينتهي الحديث. أذهب لأجلب لها مشروبها ونشغل التلفاز.

56

في صباح اليوم التالي، جرى تعليق أرجوحة إطار عجلة بأحد أغصان الشجرة الكبيرة في حديقة ويندمير. هي نفسها التي كانت معلقة قديماً بشجرة القيقب المعمِّرة الضخمة في مرج كليرمونت.

إنها رائعة.

تشبه تلك التي كانت جدتي تيبر تؤرجحني فيها.

وبابا.

وجدي.

وماما.

تشبه تلك التي تبادلنا عليها أنا وغات القبلات في عزّ الليل.

أتذكر الآن جوني، وميرين، وغات، وأنا، في الصيف الخامس عشر، ونحن الأربعة نتكدس في أرجوحة إطار العجلة في كليرمونت. كنا نجدُ صعوبة في البقاء فيها جميعنا معاً. نتدافع بمرافقنا، نتبادل الأمكنة. نقهقه، ونتشاتم. كان بعضنا يتهم بعضنا الآخر بأن أردافه أضخم ممّا ينبغي. وأن رائحته مقرفة. وكنا نغيّر من جديد تشكيلة الجلوس.

نجحنا في نهاية المطاف. لكن لم يعد بوسعنا أن نتحرّك. فقد غصنا في الإطار بحيث لم تعد هنالك وسيلة لأرجحته. صرخنا كالمجانين حتى يأتي أحد ما ويدفعنا. رفضت البنتان التوأم اللتان كانتا تمرّان من هناك مساعدتنا. وأخيراً، خرج تافت وويل من كليرمونت وهبّا لنجدتنا. وهما يزمجران تحت وطأة الجهد المبذول،

دفعا بنا على شكل قوس دائرة. وحين أفلتونا أخذنا ندور تحت تأثير ثقلنا بسرعة متزايدة، ورحنا نضحك حتى آلمتنا خواصرنا.

نحن الكذّابون، نحن الأربعة. أتذكرهم الآن.

تبدو الأرجوحة الجديدة متينة. عُقِدَتْ حبالها بعناية.

في داخل الإطار، أكتشف مغلفاً.

بخط غات: **إلى كادي.**

أفتحه.

أكثر من دزينة ورود يابانية مجفّفة تسقط منه.

57

كان يا ما كان في سالف العصر والآوان، عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال. كان يلبّي لهنّ كل رغباتهنّ، وحين أصبحن في سنّ الزواج، أقيمت الحفلات الباذخة ابتهاجاً بزفافهنّ. وعندما أنجبت أصغر الأميرات حفيدة، غمرت السعادة الملك والملكة. وبعد وقت قصير، صارت الأميرة الثانية أيضاً أمّاً لحفيدة، وأقيمت أيضاً الأفراح احتفالاً بهذه المولودة الجديدة.

وأخيراً، أنجبت الأميرة البكر توأماً. ولكن للأسف، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. كان أحد الرضيعَين صبيّاً صغيراً، قوي البنية وبشرياً تماماً؛ أما الآخر فلم يكن سوى قارض.

لم تقم الاحتفالات هذه المرة. ولم يعلن الأمر رسمياً.

جلّل العار وجه الأميرة البكر. لم يكن أحد طفليها إلا حيوان.

لن يتألّق أبداً، ولن تباركه الشمس وتلوّح بشرته، كما كان يأمل أفراد العائلة الملكية.

شبَّ الأطفال، والقارض أيضاً. كان ذكياً ويغسل شاربيه دوماً. كان ماكراً وفضولياً أكثر من شقيقه وبنات خالاته.

ومع ذلك، لم يكن الملك والملكة يتحمّلان وجوده. وحين سنحت الفرصة لأمه، أوقفته على قائمتيه الخلفيتين، وأعطته خرجاً فيه توت بري وحفنة بندق، وأرسلته لاستكشاف العالم الفسيح.

واستكشفه بسرور، لأن قارضنا اكتسب خبرة كافية من حياة القصر ليعرف أنه لو بقي في بيته، لظلَّ إلى الأبد سرّاً معيباً، ومصدر عار لأمه ولجميع من يعرفونه.

وبلا أسف، أدار ظهره للقصر الذي ترعرع فيه.

فهناك، لم يحصل حتى على اسم.

أما الآن، فصار حرّاً في المضي قدماً واكتساب اسم في العالم الواسع.

وربما،
أجل، ربما،
سيعود يوماً
ويضرم النار
في هذا القصر اللعين
ويحيله
إلى رماد.

القسم الرابع

الحريق

58

حريق.

انظروا.

حريق في الرأس الجنوبي من بيتشوود آيلاند. هناك حيث تتربع شجرة القيقب وسط المرج الكبير.

المنزل يحترق. ألسنة اللهب تتراقص، وتضيء السماء.

لا يوجد أحد ليوقفها.

في البعيد، ألمحُ رجال إطفاء مارثاز فاينيارد يجتازون الخليج على متن مركب مضاء.

وأبعد أيضاً، يتقدّم مركب إطفاء وودز هول بصعوبة نحو الحريق الذي أضرمناه. غات، جوني، ميرين وأنا.

أضرمنا هذه النار وهي تلتهم كليرمونت.

أحالت إلى رماد قصر الملك، ذاك الذي كان عنده ثلاث بنات فائقات الجمال.

نحن من أحرقناه.

أنا، جوني، غات وميرين.

أتذكر ذلك الآن

كوميض ساطع فأنقلب

وأغوص في الأعماق
حتى القاع الصخري، في القعر تماماً، و
أرى قاعدة بيتشوود آيلاند و
لا أعود أحس بذراعَي ولا ساقَي فيما
تتجمد أصابعي. تعوم حولي نتف من الأعشاب البحرية وأنا أغوص.
عندئذ، أصعد فجأة إلى السطح وأتنفس.
بينما يواصل كليرمونت احتراقه.

أنا في سريري في ويندمير، عند انبلاج خيوط الفجر الأولى.
أبدأ اليوم أسبوعي الأخير على الجزيرة، أجرجر نفسي نحو النافذة، متدثّرة بغطائي.
منزل كليرمونت الجديد موجود في مكانه هناك. بحداثته الصارمة وحديقته اليابانية.
أراه أخيراً كما هو. منزل مشيَّد فوق كومة رماد. رماد الوجود الذي تقاسمه جدي مع جدتي تيبر، رماد شجرة القيقب التي كانت تتدلى منها إطار عجلة الأرجوحة، رماد المسكن الفيكتوري القديم بشرفته وأرجوحته الشبكية. ينتصب المنزل الجديد فوق ضريح جميع تذكارات ورموز قبيلة سنكلير: رسومات مجلة **نيويوركر**، والحيوانات المحنّطة، والوسائد المطرّزة والصور العائلية.
أضرمنا النار في كل هذا.
ذات مساء حين غادر جدي والآخرون على متن المركب.
وحين كان الخدم في إجازة
وحين كنا نحن الكذّابين وحدنا على الجزيرة،

فعلنا، معاً، أكثر ما كان يخيفنا.
لم نهدم منزلاً، بل رمزاً.
أحلناه إلى رماد.

59

كان باب كودلداون مقفلاً بالمفتاح. طرقتُ حتى جاء جوني وفتح لي، وهو لم يزل يرتدي ثياب ليلة أمس.
«أُحَضِّرُ شاياً معتبراً»، يغمغم.
«هل نمتَ بملابسك؟».
«أجل».
«أضرمنا حريقاً»، أقول وأنا مازلتُ متسمّرة على عتبة الباب.
لن يستطيعوا أن يكذبوا عليّ مرة أخرى. ولن يذهبوا إلى أي مكان بعد الآن من دوني، ولن يتّخذوا قرارات من دوني.
أصبحت أعرف قصتنا، من الآن فصاعداً. نحن مجرمون. عصابة الأربعة.
يحدّق جوني في عينَي لفترة مديدة دون أن ينبس بكلمة واحدة. يستدير على عقبيه أخيراً ويعود إلى المطبخ. أتبعه. يصبُّ الماء الساخنة في فناجين.
«وماذا تتذكرين غير هذا؟»، يسألني.
أتردّد.
تتراءى لي النار. الدخان. فخامة كليرمونت وسط ألسنة اللهب.
أعرف، بشكل يقيني وجازم، أننا نحن من أحدثنا هذا الحريق.

تتراءى لي يد ميرين، بطلاء أظافرها الذهبي والمتقشّر، تحمل صفيحة بنزين إلى المركب.

قدما جوني الحافيتان تنزلان الدرجات من كليرمونت نحو مرفأ المركب.

جدي واقفٌ يستند إلى شجرة، وألسنة نار الفرح تضيء وجهه.

لا. تصحيح.

ألسنة لهب منزله وهو يذهب أدراج الرياح.

كانت هذه الذكريات هناك، كامنة في داخلي، منذ البداية. أصبحتُ أعرف تماماً إلى أي واقع تنتمي من الآن فصاعداً.

«لا أتذكر شيئاً آخر ذا شأن»، أقول لجوني. «أعرف فقط أننا أضرمنا النار. وتتراءى لي ألسنة اللهب».

يستلقي على الأرض في المطبخ ويمطي ذراعيه فوق رأسه.

«هل أنت بخير؟».

«أنا منهك، إن شئتِ أن تعرفي».

ينقلب على بطنه ويضغط أنفه على الأرض.

«كنّ يقلن أنهنّ لم يعدن يرغبن بلقاء بعضهنّ أبداً»، يغمغم في البلاط. «وأن كل شيء انتهى وأنهنّ سيقطعن الجسور إلى الأبد».

«من تقصد؟».

«الخالات».

أستلقي بجانبه، لأستمع إلى ما يرويه.

«كنّ يثملن، مساء تلو مساء».

يجترُّ كلماته، كأنه يجد صعوبة في نطقها.

«كنّ يزددن سوءاً. يصرخن في وجوه بعضهنّ البعض. يترنحن عبر المرج. ولم ينفك جدي يعقّد الأمور. كنا نشاهدهنّ يتبادلن

الشتائم من أجل أشياء تخص جدتي تيبر، ومن أجل الأعمال الفنية المعلَّقة على جدران منزل كليرمونت... وعلى الأخص من أجل الأكشاك والمال. كان جدي يفرط في الشرب، هو أيضاً، وكانت أمي تريد أن أتلاعب عليه لأسحب منه أكبر كمية ممكنة من المال. لأنني البكر بين الصبيان. كانت تدفعني بلا توقف إلى... إلى تمثيل دور الوريث الشاب اللامع. وإلى تشويه سمعة الآخرين. وإلى تجسيد الشباب الأبيض المثالي، ومستقبل الديمقراطية، أو سخافات أخرى من هذا القبيل. فقدت حماسها للأسرة الأبوية وتريدني أن أصبح الطفل المدلل عند جدي لأضمن لها نصيبها من الميراث».

وهو يتكلم، رحت أستعيد دفقات ذكريات، خاطفة وحيوية حتى أنها آلمتني. أرتعد وأغطي عينَي.

«هل تتذكرين شيئاً آخر عن الحريق؟»، يسألني ابن خالتي بصوت هادئ. «هل تستعيدين ذلك؟».

أغمضُ جفنَي. أحاول.

«لا. هناك تفاصيل أخرى، أجل، لكنها ليست تفاصيل الحريق».

يأخذ جوني يدي في يده.

60

في الربيع الذي سبق الصيف الخامس عشر بالضبط، طلبت ماما مني أن أكتب رسالة إلى جدي. لا شيء مميز. «أفكر فيك كثيراً وأشاطرك حزنك. أرجو أن تكون بخير».

كنتُ أرسل له رسائل حقيقية على بطاقات بريدية صقيلة بلون الكريمة، مختومة في الأعلى بـ**كادنس سنكلير إيستمان**.

«جدي الحبيب، شاركتُ مؤخّراً بسباق الدرجات لمسافة الخمسة كيلومترات لصالح بحوث معالجة السرطان. سأستأنف تدريبات التنس الأسبوع القادم. نادي المطالعة يواظب على قراءة **العودة إلى بريدشيد**. أقبّلك بحرارة».

«ذكّريه فقط أنك متعلقة به»، كانت ماما تقول. «وأنك فتاة صالحة. وشابة جيدة التربية، وأنك تعتزين بعائلتنا».

كنتُ أتذمّر. كانت هذه الطريقة تبدو لي مصطنعة. كنتُ بالتأكيد متعلّقة بجدي. وأحبه حبّاً جمّاً، وأفكر فيه غالباً. لكنني لم أكن أحبّذ فكرة إرسال هذه التنويهات السخيفة من فخامتي كل خمسة عشر يوماً.

«إنه ضعيف للغاية في هذه الفترة»، كانت ماما تلحُّ. «يعاني. يفكر في المستقبل. أنتِ البكر بين أحفاده».

«لا يصغرني جوني إلا بثلاثة أسابيع».

«تماماً. جوني صبي، وهو لا يصغرك إلا بثلاثة أسابيع. لذلك اكتبي رسالتك».

كتبتُ ما كانت تطلبه مني.

في بيتشوود، خلال الصيف الخامس عشر، ملأت الخالات غياب جدتي تيبر فقمن بأعمال التنظيف واهتممن بجدي كأنه لم يكن يعيش بمفرده في بوسطن منذ موت زوجته في تشرين أول. لكنهنّ كنّ يتشاحنّ. في غياب رابط المرحومة أمهنّ، كنّ يختصمن على أي تذكار، على مجوهراتها، على ملابسها المعلقة على مشجبها، وحتى

على أحذيتها. لم يجرِ تسوية تلك الأمور عند الوفاة. كان الجرح بليغاً. فأجّلن هذا الأمر إلى العطلة الصيفية. وعند وصولنا إلى بيتشوود، نهاية شهر حزيران تقريباً، كانت بيس قد أعدّت قائمة جرد بالأشياء الشخصية الخاصة بجدتي تيبر في منزل بوسطن وتستعدُّ لإنجاز قائمة منزل كليرمونت. وكان لدى كل واحدة من شقيقتيها نسخة عن هاتين القائمتين على لوحيهما الإلكترونيين، تطّلعان عليهما بانتظام.

«عشقتُ دوماً زينة عيد الميلاد بحجر اليشب».

«يدهشني أنك تتذكرين ذلك. فأنتِ لم تشاركي قط في تزيين شجرة الميلاد».

«ومن كان يفكّها برأيك؟ كل عام، كنتُ أنا من تغلّف كل الزينة في ورق الحرير».

«يا للتفاني».

«وها هي أقراط اللآلئ السوداء التي وعدتني بها أمي».

«اللآلئ السوداء؟ قالت لي دوماً إنها تحتفظ بها لي».

راحت كل واحدة من الخالات تنقضُّ على الأخرى مع انقضاء العطلة. وشجار بعد شجار، كانت جراح الماضي القديمة تُنْكأ وتظهر من جديد ممتزجة بجراح الحاضر.

روايات أخرى.

«أخبري جدك إلى أي حدٍّ تحبين أغطية المائدة المطرّزة لجدتك تيبر»، قالت لي ماما يوماً.

«لا أحبها».

«لكِ، لن يرفض شيئاً».

كنا وحدنا في مطبخ ويندمير. وكانت ثملة.

«أنتِ تحبينني، أليس كذلك يا كادنس؟ أنتِ كل ما تبقّى لي. لستِ مثل أبيكِ».

«لا تهمني هذه الأغطية القديمة المطرّزة».

«إذاً اكذبي. كلّميه عن أغطية منزل بوسطن. أغطية لها لون الكريمة وعليها تطريزات».

كان الأسهل أن أعدها أنني سأفعل.

وفيما بعد، أخبرتها أنني أدّيتُ مهمتي.

لكن بيس طلبت الشيء عينه من ميرين،

ولا واحدة منا

ذهبت لتتحدث مع جدي

عن هذه الأغطية اللعينة.

61

سبحتُ مع غات في منتصف الليل. استلقينا على طريق النزهة الخشبي لنتأمل النجوم. وتبادلنا القُبل في السقيفة.

وأُغرِمَ كل واحد منا بالآخر.

أهداني كتاباً. **مع كل شيء، كل شيء.**

لم نتطرّق إلى راكيل. لم أكن أستطيع سؤاله عنها. وهو لم يطرح الموضوع قط.

يصادف عيد ميلاد البنتين التوأم في الرابع عشر من تموز، وكان ذاك مناسبة في كل عام لإقامة وليمة كبيرة. اجتمعنا اثنا عشر فرداً حول الطاولة الكبيرة على مرج كليرمونت. سراطين البحر وبطاطا

بالكافيار. زبادي زبدة ذائبة. وخضروات بالحبق. قالبا كعكة، واحد بالفانيليا والآخر بالشوكولاتة، ينتظران في الداخل فوق طاولة تحضير الطعام في المطبخ.

كان الصغار يرهقوننا بسراطين البحر، وراحوا يتسلّون بمهاجمة بعضهم البعض بكلّاباتها ويشرقون بصخب داخل ملاقطها. أخذ جوني يحكي قصصاً. وكنا نضحك مع ميرين. وعلى دهش منا، تقدّم جدي نحونا وجلس بيني وبين غات.

«أودّ أن آخذ رأيكما»، أعلن. «رأي الشباب».

«هذا هو الوقت المناسب، فنحن عيّنة مثالية»، ردّ جوني. «جلستَ في الجانب الصحيح من المائدة».

«تعرفون جميعاً»، يستطرد الجد، «أنني لن أستعيد شبابي، رغم بنيتي الجسدية كأول شبابي».

«طبعاً طبعاً»، مزحتُ.

«أنا وتاتشر نرتّب أمور أعمالي. أفكر أن أوصي بجزء كبير من تركتي لجامعتي».

«إلى هارفارد؟ ولماذا تفعل ذلك يا بابا؟»، تدخّلت ماما، ونهضت عن كرسيها لتأتي وتصغي من خلف ميرين.

ابتسم جدي.

«بالتأكيد لبناء سكن جامعي. سيحمل اسمي، محفوراً على واجهته».

ونكز غات بمرفقه.

«ماذا يجب أن نسميه، إذاً، أيها الشاب؟ ما رأيك؟».

«مسكن هاريس سنكلير؟»، اقترح غات.

«حسنٌ».

هزَّ جدي رأسه.

«أيمكننا إيجاد اسم أفضل، يا جوني؟».

«دار سنكلير للاستجمام»، أجاب ابن خالتي وهو يلتهم حصته من الكوسا.

«والأطعمة الخفيفة»، أضافت ميرين. «أجل، دار سنكلير للاستجمام والأطعمة الخفيفة!».

ضرب جدي براحة يده على الطاولة.

«هذا يعجبني. ليس تربوياً، لكنه شعبي للغاية. أنا متحمّس. سأتصل بتاتشر غداً في الصباح الباكر. سأطلق اسمي على المبنى المفضّل لدى الطلاب».

«هذا يتطلب أن تموت أولاً»، اعترضتُ.

«بالتأكيد. لكن تصوّروا افتخاركم حين ستتابعون دراستكم!».

«ليس وارداً أن تموت قبل أن ندخل الكلية»، احتجّت ميرين. «نحن نمنعك عن ذلك».

«ما دمتم تلحّون، إذاً أوافق».

سرق جدي قطعة سرطان بحر من صحن ميرين وأكلها.

استسلمنا للخدعة، أنا، ميرين وجوني، وسحرتنا هالة السلطة التي شعّت من جدي وهو يصفُ لنا هارفارد، وتأثّرنا من ألعوبته اللطيفة في سؤاله عن رأينا ومن ضحكه لمزاحنا. لقد كان الجد الذي طالما عرفناه.

«لا أجد الأمر مضحكاً يا بابا»، أعلنت ماما بجفاف. «لا تشرك الأولاد في هذه القصة».

«لم نعد أولاداً»، رددتُ. «إننا نفهم ما يجري».

«أستبعد ذلك. وإلّا لما تعاملتم مع الأمر باستخفاف».

ساد صمت مطبق على المائدة. حتى الصغار سكتوا.

كانت كاري تعيش مع إيد. كانا يجمعان أعمالاً فنية، قد يصبح لها بشيء من الحظ قيمة مع الزمن، وربما لا. كان جوني وويل يرتادان مدارس خاصة. افتتحت كاري متجر مجوهرات بعد حصولها على مقدّم من ميراثها لكنها أفلست بعد بضع سنوات. كان إيد يكسب مالاً يكفي للقيام بأودها، لكن كاري لم يكن لديها دخل شخصي. ولم يكونا متزوجَين. وكان هو مالك شقتهما، وليست هي.

كانت بيس تربّي لوحدها أولادها الأربعة. ومثل شقيقاتها، لديها مبالغ محترمة مودعة في المصرف لكن برودي احتفظ بالمنزل عند الطلاق. لم تعمل منذ زواجها، وحتى قبل الزواج، لم تكن إلّا معاونة في هيئة تحرير إحدى المجلات. كانت بيس تعيش على مقدّم ميراثها، وتنفق بإسراف.

وماما، تربيتها للكلاب ذات السلالة الأصيلة لم تكن تجلب لها شيئاً يذكر، وكان بابا يريد بيع منزل بيرلنغتون ليحصل على نصف ثمنه. كنتُ أعرف أن ماما تعيش على مقدّم ميراثها.

ونحن.

نحن كنا نعيش على مقدّم ميراثها.

ولم يكن هذا المال خالداً.

باختصار، حين أعلن جدي أنه ينوي أن يوصي بثروته إلى جامعة هارفارد لإنشاء سكن جامعي وحين طلب رأينا، لم يكن هذا على الإطلاق ليتقاسم مشاريعه مع عائلته.

كان هذا تهديداً.

62

بعد بضعة أيام. مراسم الوجبة الخفيفة في كليرمونت. كان طقس هذه الوجبة يبدأ بين الساعة السادسة والسادسة والنصف عصراً، بحسب توقيت وصول الآخرين إلى المنزل الكبير في قمّة التلة. كانت الطاهية تحضّر العشاء وقد أعدت كريمة سمك السلمون مع رقائق خبز صغيرة. تسلّلتُ وراءها وذهبتُ لآخذ زجاجة نبيذ أبيض من الثلاجة للخالات.

أمضى الصغار طوال فترة العصر على الشاطئ الكبير، وذهبوا للاستحمام وارتداء ملابس نظيفة تحت إشراف غات، وجوني وميرين في منزل ريد غيت، المجهّز برشّاش مياه في الهواء الطلق. ماما وبيس وكاري جلسن إلى الطاولة المنخفضة في كليرمونت.

كنتُ أحضرُ النبيذ حين دخل جدي.

«أخبريني، بيني»، أعلن وهو يصب لنفسه قدح ويسكي من دنّ موضوع فوق البوفيه، «كيف تسير الحياة في ويندمير بالنسبة إليك وإلى ابنتك هذا العام، بعد التغيرات العائلية الجديدة؟ بيس تخاف أن تشعرا بالوحدة هناك».

«لم أقل هذا قط»، احتجّت بيس.

طأطأت كاري رأسها.

«بلى، تماماً»، أصرَّ جدي.

أشار لي أن أجلس.

«لقد ذكرتِ غرف النوم الخمس. حاجة المطبخ إلى الترميم، وأن بيني صارت عزباء ولم تعد تحتاج إلى كل هذه المساحة».

«هل هذا صحيح يا بيس؟»، سألتها ماما بهيئة مصعوقة.

لم تجب المعنية. واكتفت بالنظر إلى الخارج وهي تعضّ على شفتها.

«نشعر فيه بالراحة»، ردّت ماما على جدي. «نحن نعشق ويندمير، أليس كذلك يا كادي؟».

ابتسم لي جدي ابتسامة عريضة.

«هل يعجبك ذلك البيت يا بنيتي؟».

كنتُ أعرف أنه يفترض بي أن أرد: «تروقني الإقامة فيه، وأشعر هناك أنني في منزلي. أحب ويندمير لأنك أنت من بنيته من أجل ماما. أحلم أن أربّي فيه أولادي فيما بعد، وكذلك أولاد أولادي. أنت رائع يا جدي. أنت كبير عائلتنا المعبود وأنا أحبكَ بكل جوارحي. يسعدني أنني من عائلة سنكلير. نحن أجمل عائلة في أميركا».

حسنٌ، أنا أبالغ قليلاً. لكن كان يفترض بي أن أساعد ماما على الاحتفاظ بالمنزل وأقول لجدي إنه الزعيم بلا منازع، وأنه أساس سعادتنا، وأن أذكّره ضمنياً أنني أجسّد مستقبل العائلة. وأن قبيلة سنكلير، الأميركية الأصلية، ستعرف جيلاً جديداً من الأحفاد، طوال القامة وبيض البشرة وأثرياء، بشرط أن يسمح لنا بالاحتفاظ بمنزل ويندمير.

كان يفترض بي أن أداهن غرور جدي، وأن أؤكّد له أنه يظل سيد الموقف فيما عالمه يتداعى منذ موت جدتي تيبر. كان يفترض بي أن أكسب رضاه وأنا أتغنّى بمآثره. وأتظاهر بأنني لم أشعر بالهجوم المتواري وراء سؤاله.

كانت أمي وشقيقتاها متعلقات بجدي وثروته. حصلن على أفضل تربية، وأتيحت لهنّ كل الفرص والعلاقات التي يمكن أن يحلمن بها، لكنهنّ لم يستطعن تلبية حاجاتهنّ بأنفسهنّ. لم تستطع أي منهنّ أن تفعل شيئاً ذا قيمة في هذا العالم. لا شيء ضروري. لا شيء شجاع. بقين مثل فتيات صغيرات مضطرات لاسترضاء أبيهنّ. كان معيلهنّ الوحيد، ولم يكن يحبين فيه سوى المعيل الثري.

«إنه كبير جداً بالنسبة إلينا»، صرحتُ لجدي.

غادرتُ الحُجرة وقد خيّم عليها صمت مطبق.

63

بعد العشاء، ذهبتُ أنا وماما إلى ويندمير دون أن ننبس بكلمة واحدة. وما إن أغلقنا باب المدخل حتى هاجمتني.

«لماذا لم تدافعي عني أمام جدك؟ تريدين أن نخسر البيت، أهذا ما تريدينه؟».

«لا نحتاجه».

«أنا من اخترتُ الطلاء، والبلاط. وأنا من يرفع العلم تحت رواق الشرفة كل عام في العيد الوطني».

«يوجد خمس غرف نوم».

«كنت أظن أننا سنكون أكبر أُسرة»، تكفهرّ قسماتها. «لكن الأمور سارت بشكل آخر. هذا لا يعني أنني لا أستحق هذا المنزل».

«ستحصل ميرين والصبيان على مكان أوسع».

«هذا بيتي. ولن يطردوني بذريعة أن بيس عندها أولاد أكثر وهجرت زوجها. لا يحق لها أن تسرق مني ما يخصني. هنا بيتنا يا كادنس. علينا أن نقاتل لنحمي مصالحنا!».

«هل تدركين ما تقولين؟»، أجبتُ بجفاف. «لديك ثروة مودعة باسمك في المصرف!».

«وبعد؟».

«هناك أناس لا يملكون شيئاً. ونحن لدينا كل شيء. كانت جدتي تيبر الوحيدة التي كرّست مال هذه العائلة للأعمال الخيرية. الآن وقد ماتت، أنتم لا تهتمون إلا بلآلئها وقطع زينتها في عيد الميلاد وتركتها العقارية. لم يحاول أحد استخدام مالها في شيء مفيد. لم يحاول أحد أن يغيّر شيئاً في العالم!».

انتصبت، ملسوعة.

«أنتِ تشعرين بالتسامي، أليس كذلك؟ وربما تعتقدين أنك تفهمين العالم أفضل مني؟ سمعتُ غات يقول ما يهمه. رأيتك تشربين كلماته مثل حليب الأطفال. لكن أنتِ لم تدفعي قط فواتير، ولم تؤسّسي عائلة، ولم تمتلكي منزلاً، ولم تري شيئاً من العالم. لستِ سوى جاهلة تقضي وقتها في الحكم على الآخرين!».

«وأنتِ، أنتِ تمزقين هذه العائلة إرباً إرباً، وكل هذا من أجل أن تحتفظي بفيلا جميلة صغيرة!».

تقدمت ماما نحو السلَّم.

«ستعودين إلى كليرمونت منذ الغد. وستشرحين لجدك أنك تعشقين ويندمير. وأنك تريدين أن تجعلي منه بيت عطل أولادك مستقبلاً. هذا ما ستقولينه له».

«لا. كان عليكِ أن تكوني شجاعة وتعارضيه. وتطلبي منه ألا يعود يتلاعب بكنّ، أنتِ وشقيقتيك. إنه يمارس هذه الألاعيب الفظيعة لأنه يعاني اكتئاباً منذ موت جدتي تيبر، ألا تلاحظين؟ لماذا لا تحاولين مساعدته، وأن تبحثي لنفسك عن عمل لتتحرري من ماله؟ أو تعطي المنزل إلى بيس ببساطة؟».

«اسمعيني جيداً، أيتها الشابة». كان صوتها قاسياً كالفولاذ. «ستكلّمين جدك عن ويندمير، أو أرسلكِ إلى أبيك في كولورادو حتى نهاية الصيف. منذ الغد. أقسم لكِ أنك ستغادرين إلى المطار صباح الغد الباكر، ويمكنك أن تودّعي حبيبك الصغير. مفهوم؟».

لقد حاصرتني.

كانت تعرف قصتي أنا وغات. وكان لديها السلطة لتبعده عني.

السلطة والرغبة.

كنتُ عاشقة.

وعدتها أن أفعل ما تطلبه مني.

حين أخبرتُ جدي إلى أي حد أحب المنزل، ابتسم لي وهو يجيب أنه يعرف بأنه سيكون لي أحفاد في يوم ما. ثم أضاف أن بيس ليست إلا امرأة طمّاعة وجشعة وأنه لم يكن ينوي أن يعطيها بيتي. ولكن ميرين أسرّت لي فيما بعد أنه وعد بيس بمنزل ويندمير.

«أنا أهتم بكل شيء»، كان قد صرّح لها. «أعطِني فقط بعض الوقت لأطرد بيني».

64

بعد يومين من جدالي مع ماما، ذهبتُ أنا وغات إلى ملعب التنس عند الغسق. كنا نرمي الكرات إلى فاتي وبرنس فيليب، دون أن نقول شيئاً.

ابتدر غات الكلام:

«هل لاحظتِ أن هاريس لا يناديني أبداً باسمي؟».

«كيف هذا؟».

«يناديني دوماً **أيها الشاب**. من قبيل: كيف أمضيتَ عامك الدراسي، أيها الشاب؟».

«لماذا؟».

«لأنه لو ناداني باسمي، فكأنه يقول لي: كيف أمضيتَ عامك الدراسي، أيها الفتى الهندي الذي يعيش خاله الهندي الخطيئة مع ابنتي البيضاء والنقية؟ أيها الفتى الهندي الذي فاجأته يقبّل غاليتي كادنس؟».

«هل تعتقد فعلاً أن هذا ما يفكّر فيه؟».

«إنه لا يطيقني»، أجاب غات. «حسنٌ، أنا أبالغ. ليس لديه مأخذ علي، وربما يحب إيد، لكن لا يتسنّى له أن ينطق اسمي ولا أن ينظر في عينَي».

كان محقاً. وها هو قد وضع إصبعه على الجرح، هذا واضح.

«لا أقول أنه يتحمل وزر أولئك العنصريين الذين لا يحبون إلا البيض»، استطرد غات. «يعرف أنه لا يفترض به أن يفكر مثلهم.

فهو ديمقراطي، وصوّت لأوباما، لكن هذا لا يعني أنه مستعدّ لقبول ملونين وسط عائلته النبيلة»، هزّ رأسه. «إنه مزيّف معنا. لا يحب فكرة أن تعيش كاري معنا. ولا ينادي إيد أبداً باسمه الصغير. يناديه «عزيزي». ويتصرف دوماً بحيث يذكّرني أنني لستُ إلا غريباً كلما سنحت له الفرصة».

كان غات يداعب أذنَي فاتي الناعمتين.

«أنتِ رأيتِه في السقيفة. كان يفضّل أن ألزم حدودي معك».

لم أفسّر ردّ فعل جدي على هذا النحو. بالأحرى رأيتُ فيه حرجاً لأنه أزعجنا.

انتبه لنفسك، أيها الشاب، كان قد قال له. لرأسك. قد تؤذي نفسك.

كان هذا تهديداً آخر.

«هل كنتِ تعرفين أن خالي طلب كاري للزواج، الخريف الماضي؟».

هززتُ رأسي.

«منذ تسعة أعوام تقريباً وهما معاً. أصبح كأب لجوني وويل. ركع وطلب منها أن تتزوجه، يا كادي. جمعنا أنا وأمي والصبيين معاً. زيّن الشقة بالشموع والورود. وارتدينا جميعاً الأبيض، وطلبنا أطباقاً من المطعم الإيطالي المفضّل عند كاري. وضع إيد موسيقى لموزارت.

مع جوني، كنا نقول له: لماذا تشغل بالك؟ إنها تعيش معك الآن يا رجل. لكنه كان منفعلاً. كان قد اشترى خاتم ألماس. وحين وصلت، غادرنا وتوارينا في غرفة ويل لنتركهما وحدهما. كانت فكرتنا هي الخروج من مخبئنا لنهنئهما... لكن كاري قالت لا».

«كنتُ أعتقد أنهما لا يريان فائدة من زواجهما».

«إيد يودُّ ذلك. أما كاري فلا تريد أن تخاطر بخسارة حصتها اللعينة من الميراث».

«ولم تسأل حتى جدي؟».

«تماماً»، أجاب غات. «الجميع يطلبون مباركة هاريس، بلا توقف. لماذا يجب على امرأة راشدة أن تستأذن أباها لتتزوّج؟».

«لم يكن جدي ليمنعها أن تفعل ذلك».

«بالتأكيد»، قال غات. «لكن حين انتقلت كاري للعيش مع إيد، أفهمها هاريس بوضوح أنه سيحرمها حصتها من الميراث إن تزوّجته.

السبب هو أن هاريس لا يتحمل لون بشرة إيد. إنه عنصري قذر... مثلما كانت تيبر. أنا آسف. أحبهما لأسباب كثيرة، وأبديا الكثير من الكرم باستقبالي على جزيرتهما كل صيف. أودُّ الاقتناع أن هاريس لم يكن مدرِكاً السبب العميق الذي يجعله يزدري خالي... لكنه يكرهه على كل حال كرهاً يكفي ليحرم ابنته البكر من الميراث».

تنهّد غات. كنت أحب انحناءة فكه، وكنزته المثقَّبة، والرسائل القصيرة التي يكتبها لي، وأسلوب تفكيره، وطريقة كلامه وهو يحرك يديه. كنتُ أتخيّل أيضاً أنني أعرف كل شيء عنه.

انحنيتُ لأقبّله. كنتُ أجد قدرتي على فعل ذلك أمراً ساحراً، مثلما كان ساحر أيضاً أن يبادلني قبلتي. ساحر أن نستطيع الإفصاح عن نقاط ضعفنا ومخاوفنا وهشاشتنا.

«لماذا لم نتحدث في هذا الأمر من قبل قط؟»، همستُ له.

قبّلني من جديد.

«أحب أن أكون هنا»، أجاب. «الجزيرة، جوني، ميرين. المنازل وصخب المحيط. وأنتِ».

«أنا مثلك».

«في قرارة نفسي، لا أرغب أن أفسد كل هذا. ولا أن أعترف أن الأمور ليست على ما يرام».

كنتُ أتفهّم ما يشعر به.

على الأقل، كنتُ أصدّقه.

بلغنا الطريق الدائري وقمنا بدورة حتى الصخرة الكبيرة المسطّحة قبالة المرفأ. كانت الأمواج تتلاطم عند أسفل الجزيرة. احتمى كل واحد منا بالآخر، تطايرت ملابسنا، طارت جزئياً وانغمسنا في نوع من النسيان، لأطول فترة ممكنة، لكل القصص السخيفة والحقيرة لعائلة سنكلير البهية.

65

كان يا ما كان في قديم الزمان، عاش تاجر غني له ثلاث بنات فائقات الجمال. غمرهنّ بالدلال حتى أن البنتين الأصغر سناً راحتا تقضيان أيامهما تتأملان نفسيهما في المرآة وتعقصان وجهيهما حتى تحصلان على وجنتين مورّدتين.

وذات يوم، اضطر التاجر أن يسافر.

«ماذا تردن أن أجلب لكنّ؟»، قال لبناته.

طلبت أصغرهنّ فساتين حريرية ومطرزة.

الوسطى طلبت ياقوتاً وزمرداً.

البكر طلبت فقط وردة.

سافر التاجر لأشهر طويلة. ملأ لأصغر بناته صندوقاً من الفساتين الملونة. ولأجل ابنته الوسطى، جاب الأسواق بحثاً عن أجمل المجوهرات. لكنه حين وصل قرب منزله تذكّر وعده لابنته البكر بأن يجلب لها وردة.

كان سياج معدني طويل يحاذي الطريق، وفي البعيد، مسكن كبير شديد الظلمة. قرب السياج، ذُهِل التاجر لاكتشافه شجرة ورد مليئة بالأزهار القرمزية. وكانت عدة ورود في متناول يده بسهولة.

أن لا يقطف إلا وردة واحدة كان مجرد لعبة أطفال. كان التاجر منهمكاً بوضع غنيمته في خرجه حين سمّره في مكانه صوت زمجرة غاضبة.

كان شبح يعتمر قبعة واسعة يقف في مكان لم يرَ التاجر أحداً فيه منذ لحظة بالتأكيد. كان المجهول ضخماً وتكلّمَ بصوت أجش:

«أنت تسرق مني ما يخصني دون حتى أن تفكر في دفع ثمنه؟».

«من أنت؟»، سأل التاجر وهو يرتعش خوفاً.

«لستَ بحاجة أن تعرف من أنا، حسبك أنك سرقتني».

شرح التاجر أنه وعد ابنته أن يجلب لها وردة بعد سفرته المديدة.

«يمكنك أن تحتفظ بالوردة المسروقة»، قال المجهول، «لكنني أطلب منك بالمقابل أن تعطيني أول ما يقع عليه نظرك من أملاكك وأنت عائد إلى البيت».

ثم رفع قبعته، كاشفاً عن وجه وحش دميم يسيل اللعاب من أنيابه. نصفه خنزير ونصفه الآخر ابن آوى.

«أنت أغضبتني»، صرّح الوحش. «وستموت إن أغضبتني مرة أخرى».

استأنف التاجر طريقه بأقصى سرعة يستطيعها حصانه. وعلى بعد كيلومتر من منزله، رأى ابنته البكر تنتظره على الطريق.

«عرفنا أنك ستصل هذا المساء!»، هتفت وهي تهرع لتأخذه بين ذراعيها.

كانت أول ما رأى من ممتلكاته وهو عائد إلى بيته. فهم حينها الثمن الذي طلبه الوحش منه.

وماذا حدث؟

نعرف أن الحسناء أحبّت الوحش في النهاية. تتعلم أن تحبه بهيام رغم ما تظنه عائلتها، بسبب سحره، وتربيته، ومعرفته بالفن ورقّة قلبه.

في الحقيقة، الوحش هو كائن بشري وكان على الدوام بشرياً. ولم يكن قط نصف خنزير ونصف ابن آوى. لم يكن ذلك إلا وهماً مرعباً.

المشكلة هي أنه كان من الصعب على الأب أن يقتنع بذلك.

لا يرى إلا الأنياب واللعاب، ولا يسمع إلا الزمجرات القذرة حين تأتي الحسناء لزيارته مع زوجها. لا يهمه أن يكون صهره متعلّماً وحسن التربية. ولا تهمه طيبة قلبه.

يراه الأب حيواناً متوحشاً، واشمئزازه منه لن يفارقه أبداً.

66

ذات مساء، من الصيف الخامس عشر، ألقى غات بضع حصى صغيرة على زجاج نافذتي. أطللتُ برأسي ورأيته واقفاً بين الأشجار، يضيء بشرته نور القمر، وعيناه تلمعان.

كان ينتظرني أسفل شرفة المدخل.

«عندي رغبة جامحة لتناول الشوكولاتة»، همس لي. «سَأُغِيرُ على خزائن كليرمونت. هل ترافقيني؟».

أشرتُ برأسي بالإيجاب وصعدنا طريق النزهة الضيق للهضبة، يداً بيد. وقمنا بدورة حتى المدخل الجانبي لكليرمونت، المدخل المطل على ردهة الخدمة حيث وضعنا مضارب التنس ومناشف السباحة. التفت غات نحوي ويده على باب المنخل وجذبني إليه.

استقرت شفتاه الحارّتان على شفتي،

أصابعنا لم تزل متشابكة،

هنا، أمام باب المنزل.

ولبرهة وجيزة، كنا وحدنا في العالم،

مع كل رحابة السماء، والمستقبل والماضي من حولنا.

اجتزنا الردهة على رؤوس أصابعنا ووصلنا مستودع الأطعمة الملاصق للمطبخ. كان عبارة عن حُجرة صغيرة على الطراز القديم، مجهّزة بمجموعة رفوف خشبية وأدراج كبيرة مصمّمة لتستوعب أواني زجاجية تحتوي المربّى ومُخلّل الخيار ويرجع تاريخها إلى بناء المنزل. واليوم، تُوضع فيها علب البسكويت، وصناديق النبيذ،

وأكياس رقائق البطاطا، والخضروات، والمياه الغازية. تركنا الضوء مطفأ، تحسُّباً من دخول أحد ما إلى المطبخ، لكننا كنا واثقين أن جدي هو وحده من ينام هنا. لن يسمع على الإطلاق أي ضجة، حتى في سكون الليل. كان يضع سماعات طبية أثناء النهار.

كنا منهمكين في التفتيش بين المؤن حين سمعنا أصواتاً. إنهنّ الخالات هنّ من دخلن إلى المطبخ، أفواههنّ تقطر سماً ونبرتهنّ غاضبة.

«الناس تقتل بعضها لسبب أقل من هذا»، كانت بيس تقول. «أُفضّلُ أن أذهب من هنا قبل أن أرتكب شيئاً أندم عليه».

«أنتِ لا تعنين هذا فعلاً»، ردّت كاري.

«لا تملي علي ما أعني! أنتِ لديكِ إيد. لستِ بحاجة إلى المال، أما أنا بلى أحتاجه!».

«سبق أن وضعتِ يدك على بيت بوسطن»، أفلتت أمي قائلة. «دعي هذه الجزيرة وشأنها!».

«من قام بكل شيء لدفن أمي؟»، ردّت بيس. «من بقي عند رأس سرير بابا لأسابيع، ومن اهتمَّ بأوراق النعوة وخدمة دفن الموتى، ومن كتب كل بطاقات الشكر؟».

«أنتِ تعيشين قرب بيتها»، أجابت أمي. «كنتِ في مكان الحدث».

«وعندي بيت لأديره مع أربعة أولاد وعمل. وهذا الأمر لا ينطبق على البعض».

«لدي عمل بدوام جزئي»، ردّت أمي. «وإذا سمعتك تتحدثين مرة أخرى عن أولادك الأربعة، سأصرخ!».

«وأنا لدي منزل أديره، أنا أيضاً»، أضافت كاري.

«كان بوسع كل واحدة منكما أن تأتي أسبوعاً أو أسبوعين. لكنكما أرخيتما كامل العبء على كاهلي. أنا من أهتم بأبي طوال العام. وأنا من يجب أن تهرع حين يحتاج مساعدة. وأنا من يجب أن تداري خبله وعزلته».

«لا تقولي هذا»، احتجّت كاري. «لا تعرفين كم مرة اتصل بي هاتفياً. ولا تعرفين ما أضطر إلى مكابدته بصمت فقط لأبدو ابنة صالحة».

«إذاً أجل، هذا الكوخ، أريده»، تابعت بيس كأنها لم تسمع شيئاً. «أنا أستحقه. من كان يصطحب أمي إلى مواعيدها الطبية؟ ومن كان يمكث عند رأسها؟».

«أنتِ ظالمة»، قالت ماما. «أنتِ تعرفين أنني مررت عندها. وكاري أيضاً».

«أجل، مررتما»، أشارت بيس.

«لم تكوني مجبَرة على القيام بهذا. لم يطلب أحد منك شيئاً».

«لا أحد غيري هنا ليقوم بهذا. تركتما لي كل العمل حتى دون كلمة شكر. أنا محشورة في كودلداون، في مطبخ وضيع. أنتما لا تطآه أبداً، تعالا لتريا كم هو خرب! كل شيء عفن. جدّدت أمي مطبخ ويندمير قبل مماتها، وأيضاً حمّامات منزل ريد غيت، لكن لم يتغيّر شيء في كودلداون. وأنتما هنا، تحرماني من تعويض هزيل أستحقّه لأجل كل ما فعلته وما أواظب على فعله، مرات ومرات!».

«أنتِ وافقتِ على مخططات كودلداون»، ردّت كاري. «كنتِ تريدين الإطلالة. وأنتِ وحدكِ بيننا لديكِ بيت على شاطئ البحر، يا بيس... ناهيكِ عن تقدير بابا لكِ وإخلاصه الأبدي. ألا يكفيكِ هذا؟ يعلم الله أننا لن نحظى بهذه الفرصة أبداً!».

«هذا خيارك»، أجابت بيس. «أنتِ اخترتِ إيد. اخترتِ العيش معه. اخترتِ أن تصطحبي غات إلى هنا كل صيف في حين أنكِ تعرفين حقّ المعرفة أنه ليس منا. وتعرفين معرفة يقينة رأي بابا فيه. ولستِ مستمرّة في التباهي بإيد وحسب، وإنما تصرّين أيضاً على اصطحاب ابن أخته إلى الجزيرة لتتفاخري به مثلما تتفاخر فتاة صغيرة وقحة بلعبة ممنوعة. فعلتِ كل هذا عن سابق تصور وتصميم!».

«أمنعكِ أن تتكلمي عن إيد!»، صرخت كاري. «اخرسي، هل تسمعينني؟».

دوى صوتٌ مخنوق، لقد صفعت كاري للتوّ شقيقتها على فمها.

غادرت بيس. وصفقت الأبواب.

خرجت ماما بدورها.

جلست أنا وغات على أرض مستودع الأطعمة متماسكين بالأيدي. دون أن نتنفس ودون أن نتحرك فيما راحت كاري ترتّب الكؤوس في غسالة الأطباق.

67

بعد يومين، استدعى جدي جوني إلى مكتبه في كليرمونت. ليطلب منه خدمة.

رفض جوني.

هدّده جدي أنه سيفرغ حساب توفيره الجامعي.

أجاب جوني أنه لا يتدخل في حياة أمه العاطفية وأنه لن يتوانى

عن مزاولة عمل مؤقت ليدفع نفقات دراساته في كلية المقاطعة الأقل كلفة.

استدعى جدي تاتشر.

أخبر جوني كاري بكل شيء.

طلبت كاري من غات ألا يأتي ثانية للعشاء في كليرمونت.

«هذا يُغضب هاريس»، شرحت. «من الأفضل للجميع أن تطهو لنفسك طبق معكرونة في ريد غيت أو أن يحضر لك جوني شيئاً من المطبخ. أنت تفهم، أليس كذلك؟ هذا عين الصواب بانتظار أن تستتب الأمور قليلاً».

لم يفهم غات.

ولا جوني أيضاً.

وبعد وقت قصير، طلبت بيس من ميرين أن تضغط أكثر على جدي من أجل منزل ويندمير. كان عليها أن تذهب لرؤيته في مكتبه مع بوني وليبرتي وتافت. كان الأربعة كلهم يجسّدون مستقبل العائلة، ويفترض بها أن تؤكد ذلك. جوني وكادي يفتقران إلى معدل في الرياضيات للالتحاق بجامعة هارفارد، على العكس من ميرين. فهي سيدة أعمال مقبلة، والوحيدة القادرة على تجسيد قيم الجد. لم يكن جوني وكادي مهتمَين. ولا تنسي هذه الرؤوس الشقراء الغالية: البنتان التوأم المحبوبتان، وتافت ونمشها. إنهم من عائلة سنكلير، لحماً ودماً.

«أخبريه بكل هذا»، أمرتها بيس. لكن ميرين رفضت.

صادرت أمها هاتفها وحاسوبها ومصروفها.

صمدت ميرين بقوة.

وذات مساء، استجوبتني ماما فعلاً بشأننا أنا وغات.

«جدك يعرف أن هناك شيئاً بينكما. وهو جد مستاء».

أجبتها أنني مغرمة به.

أمرتني أن أتماسك.

«أنتِ تقوضين مستقبلك»، أضافت. «منزلنا. تعليمك. كل هذا من أجل ماذا؟».

«الحب».

«مجرد غزل في العطلة. دعي هذا الصبي وشأنه».

«لا».

«الحب لا يدوم يا كادي. وأنت تعرفين ذلك».

«على الإطلاق».

«حسناً، ثقي بكلامي».

«لسنا مثلكما أنتِ وبابا»، أجبت. «لا وجه للشبه».

عقدت ماما ذراعيها.

«اكبري قليلاً يا كادنس. انظري إلى العالم كما هو، وليس كما تريدينه أن يكون».

نظرتُ إليها بإمعان. أمي، تلك المرأة الهيفاء والجذابة، بشعرها الجميل، وتجعيدة فمها القاسية والمريرة. لم تنبض شرايينها قط. ولم يقفز قلبها من صدرها قط ليختلج على المرج ضعفاً وعجزاً. ولم تذرف قط دموعاً مدرارة. كانت عادية. في جميع الظروف. وبأي ثمن.

«من أجل رفاه عائلتنا»، صرّحت أخيراً، «آمرك أن تضعي حدّاً لهذه القصة».

«بالتأكيد لا».

«يجب ذلك. وحين يتم هذا الأمر، احرصي على إطلاع جدك عليه. أخبريه أنه أمر غير مهم، وأنه كان على الدوام غير مهم. قولي

له إنه لن يقلق ثانية بسبب هذا الصبي وحدّثيه عن هارفارد، وعن نادي التنس وعن المستقبل المفتوح أمامك. هل فهمتني جيداً؟».

لا، لم أكن أفهم وكنتُ أرفض حتى المحاولة.

هربتُ من البيت لألتقي غات.

انتحبتُ بين ذراعيه، لكنه لم يغضب مني.

مكتبة
t.me/t_pdf

فيما بعد في السهرة، قصدتُ أنا وغات وميرين وجوني مستودع العدّة خلف منزل كليرمونت. فعثرنا فيه على مطارق. ولأنه لم تكن توجد سوى مطرقتين، جلب غات مفتاحاً إنكليزياً، وأنا مقص حدائق كبير.

ذهبنا لاسترجاع الإوزّات العاجية من منزل كليرمونت، والفِيَلة من منزل ويندمير، والقرود من منزل ريد غيت والضفدع من منزل كودلداون. أنزلناها إلى الجسر العائم، في الظلام، وحطّمناها بضربات من المطرقتَين، والمفتاح الإنكليزي والمقص حتى استحالت إلى غبار عاج.

ملأ غات دلواً بماء البحر الباردة وشطف الجسر.

68

فكّرنا.

تناقشنا.

وماذا لو، رحنا نقول فيما بيننا،

وماذا لو

في عالم آخر،
وواقع موازٍ
صادف أن إصبع الله أشارت إلى كليرمونت
وضربته بصاعقة؟
وماذا لو
أن ناراً إلهية انصبّت على المنزل فجأة؟
لعاقبت الكائنات المذنبة، والخسيسة، والعنصرية، والعادية والفظة
ولجعلتهم يدفعون غالياً جزاء أعمالهم
ولعلمتهم من جديد أن يتحابوا؟
أن يفتحوا قلوبهم، وشراييهم، ويتوقفوا عن التبسم.
أن يصبحوا عائلة. وأن يبقوا كذلك.
لم يكن في مشروعنا شيء ديني.
ومع ذلك، كان دينياً.
كان قصاصاً.
وتطهيراً بألسنة اللهب.
أو الاثنين.

69

في اليوم التالي، أثناء الأسبوع الأخير من شهر تموز في الصيف الخامس عشر، أقيمت مأدبة غداء في كليرمونت. وليمة أخرى، مثل سابقاتها من الولائم، وضعت على الطاولة الكبيرة. مقترنة بالدموع.

كان الصراخ قوياً جداً حتى أننا نحن الكذّابين بقينا في مدخل الحديقة لنصغي إليه يصل من ريد غيت.

«يجب أن أصارع يوماً بيوم لأكسب حبّك، يا بابا»، كانت أمي تزعق بصوت متهدج. «ومعظم الوقت، أخسر المعركة. تباً، هذا ظلم! كاري عندها اللآلئ، وبيس منزل بوسطن ووينديمير. وكاري عندها جوني وهو من ستعطيه كليرمونت، أعرف ذلك. سأجد نفسي وحيدة تماماً من دون شيء، بينما كان يفترض أن تكون كادي وريثتك. الحفيدة الأولى، مثلما قلتَ دوماً».

وقف جدي عند طرف الطاولة.

«بنلوب...».

«سأنتزعها منك، هل تسمعني؟ سآخذ كادي معي ولن تراها أبداً!».

دوى صوت جدي في الحديقة.

«هنا الولايات المتحدة الأميركية»، أعلن. «يبدو أنكِ لم تفهمي جيداً، يا بيني. إليكِ كيف تسير الأمور في هذا البلد: نحدِّد هدفاً، نعمل بجد لبلوغه ونمضي قدماً. لا ندع أحداً أبداً يضع لنا العصي في العجلات ونستحق أن نجني ثمار ما زرعناه. ويل، تافت، هل تسمعان ما أقول؟».

وافق الصغيران على رأي الزعيم، وذقناهما يرتعشان. واستطرد جدي:

«نحن الباقون، من عائلة سنكلير، نشكِّلُ عائلة كبيرة ومحترمة. هذه مفخرتنا. تقاليدنا وقيمنا هي القاعدة التي سترتكز عليها أجيالنا القادمة. هذه الجزيرة ملكنا، كما كانت قديماً ملك أبي وجدي من قبله. لكنكنّ أنتنّ الثلاث، بحالات طلاقكنّ، وأسركنّ المحطمة،

وازدرائكنّ للتقاليد، وانعدام وعيكنّ المهني، لا تجلبن إلا خيبة الأمل لي أنا الرجل العجوز الذي كان يظن أنه أحسن تربيتكنّ».

«بابا، أرجوك»، قالت بيس.

«اصمتي!»، زمجر جدي. «لا تنتظرن مني أن أصفّق لكنّ على تغميسكنّ قيم هذه العائلة في الوحل وأن أضمن لكنّ فوق ذلك أمنكم المالي، أنتنّ وأبناؤكنّ. لا يحق **لأي واحدة** منكنّ أن تطالبني بشيء من هذا القبيل. مع ذلك، يوماً بعد يوم، هذا بالضبط ما تفعلونه معي. لن أتسامح بعد الآن مع هذا السلوك!».

انفجرت بيس بالبكاء.

أخذت كاري ويل من مرفقه وابتعدت نحو الجسر العائم.

ذهبت ماما وقذفت قدح نبيذها على واجهة كليرمونت الجانبية.

70

«ماذا حدث، عندئذ؟»، أسألُ جوني.

كنا لم نزل مستلقيَين على الأرض، في الصباح الباكر، في مطبخ كودلداون. في الصيف السابع عشر.

«ألا تتذكرين؟».

«لا».

«بدأت الخالات بمغادرة الجزيرة. غادرت كاري مع ويل إلى فندق إدغارتاون وطلبت منا، أنا وغات، أن نلحق بها حين ننتهي من توضيب حقائبنا. كان نهار عمل الخدم ينتهي في الساعة الثامنة مساءً. وذهبت أمك لتنام عند صديقة لها في مارثاز فاينيارد...».

«عند أليس؟».

«أجل. جاءت أليس لأخذها، لكنكِ رفضتِ الذهاب معها فغادرت في النهاية من دونك. والجد، هو أيضاً، عاد نهائياً إلى اليابسة. عندئذ قررنا إضرام النار».

«لقد خططنا لكل شيء»، أقول.

«تماماً. نجحنا في إقناع بيس أن تأخذ المركب الكبير لتصطحب الصغار إلى السينما في مارثاز فاينيارد».

وبينما يتكلم جوني، رحتُ أستعيد ذاكرتي. وأملأ بنفسي ثغرات سرده.

«وبعد مغادرتهنّ، وجدنا النبيذ الذي تركنه في الثلاجة»، يتابع. «أربع زجاجات مفتوحة من قبل. وكان غات غاضباً أيما غضب...».

«كان من حقه أن يغضب»، أقول.

يدير جوني رأسه ويتكلّم من جديد باتجاه البلاط.

«لأنه كان يعرف أنه لن يرجع ثانية أبداً. إذا تزوجت أمي إيد، ستنفيها القبيلة. وإذا تركته، فلن يعود لغات أي علاقة معنا».

«كان منزل كليرمونت يجسّد بالنسبة إلينا رمز كل ما يسير باعوجاج».

هذا صوت ميرين. وصلت خلسة حتى أنني لم أسمع وقع خطواتها. وهي تستلقي الآن على الأرض بجانب جوني وتمسك يده الأخرى.

«ومقرّ البطريركية»، يضيف غات.

هو أيضاً، لم أسمعه لحظة دخوله. يستلقي بقربي.

«أنت ثملٌ فعلاً يا غات. يجب دوماً أن تذكرها بهذا الأمر، هذا هوس».

«هذه طريقتي في رؤية الأمور».

«إنك تستخدم هذه الكلمة في كل مناسبة. بطريركية هذه وبطريركية تلك. بطريركية مؤخّرتي».

«كان منزل كليرمونت يبدو لنا كمقرّ للبطريركية»، يكرر غات. «أجل، كنا ثملين. وأجل، كنا خائفين أن ينفرط عقد العائلة وأن لا أستطيع العودة إلى هنا أبداً. رحنا نقول فيما بيننا إن المنزل لو اختفى، بكل مستنداته وملفّاته، وكل هذه التحف الثمينة التي تثير الكثير من الشجارات، لاختفت معه عندئذ رهانات السلطة».

«ولعدنا عائلة حقيقية»، توضّح ميرين.

«كان هذا مثل طقس طهري»، يضيف غات.

«تتذكر أننا أضرمنا النار، ولا شيء أكثر»، يصرّح جوني فجأة وهو يرفع نبرته.

«وأشياء أخرى أيضاً»، أقول وأنا أستوي جالسة لأتأمّل أصدقائي الكذّابين في ضوء الصباح. «تعود التفاصيل إلى ذاكرتي بالتدريج حين تتحدّثون إلي».

«نحن نروي ما جرى قبل الحريق»، يصرّ جوني.

«أجل»، تجيب ميرين.

«أضرمنا النار»، أقول بنبرة حالمة. «ولم نقف مكتوفي الأيدي ونحن ننوح. بادرنا. حتى نغيّر الأمور».

«إلى حدٍّ ما»، تتحفظ ميرين.

«هل تمزحين؟ حوّلنا هذا القصر الملعون إلى كومة رماد».

71

بعد الشجار بين الخالات والجد، بكيتُ.

وكان غات يجهش بالبكاء، هو أيضاً.

عليه أن يغادر الجزيرة ولن نراه ثانية أبداً.

غات، حبيبي غات.

لم أكن قد بكيت قط مع أحد ما. وفي الوقت ذاته.

كان يبكي كرجل، وليس كصبي على الإطلاق. لا ليس مثل من يعبِّر عن نزوة أو مثل مُحبَط لم يحصل على ما يريد، وإنما كشخص غدرت به الحياة. وليس لديه أية وسيلة لشفاء جراحه.

كنتُ أرغب أن أشفيها.

نزلنا راكضين إلى الشاطئ الصغير، لوحدنا. كنت أتشبّث به. جلسنا على الرمل، وهذه المرة، لزم الصمت. لا تحليل، ولا أسئلة.

أنا من قلتُ أخيراً شيئاً من قبيل

وماذا لو

وماذا لو

أمسكنا بأنفسنا الثور من قرنَيه وواجهنا المشكلة بحزم؟ وسألني غات

كيف؟

وأجبته بشيء من قبيل

وماذا لو

وماذا لو
توقفوا عن الشجار أخيراً؟
لدينا شيء ثمين ندافع به.
وأجاب غات،
أجل. أنتِ، أنا، ميرين، جوني. معاً. أجل.
لكن سيكون بمقدورنا دوماً أن نلتقي، نحن الأربعة.
العام القادم، سيكون بمقدورنا أن نقود.
ويوجد دوماً هاتف.
لكن هنا، شدَّدتُ. هذه اللحظات.
أجل، هنا، كرّرتُ، هذه اللحظات.
أنا وأنت.
قلتُ شيئاً من قبيل
وماذا لو
وماذا لو
استطعنا أخيراً التوقف عن أن نكون
عائلة سنكلير البهية لنغدو ببساطة عائلة؟
وماذا لو استطعنا فعلاً التوقف عن أن نكون
من ألوان مختلفة، وأوساط مختلفة، لنغدو ببساطة أحِبّة؟
وماذا لو استطعنا جميعاً إرغامهم على التغيُّر؟
إرغامهم.
تريدين أن تكوني الله، علّق غات.
أريد بشكل خاص فعل شيء، أكّدتُ. يوجد هاتف دوماً، ردَّ.
لكن، وهنا؟ قلتُ، هذه اللحظات.
أجل، هنا. ردّد. هذه اللحظات.

كان غات حبّي الكبير، الأول، والوحيد. كيف كان سيسعني القبول بالافتراق عنه؟

لم يكن يستطيع التظاهر بالتبسّم، لكنه كان يبتسم غالباً. ضمّد جراحي بضماد من شاش وكان يعتقد أن الجراح تستحق أن نعيرها انتباهنا. كان يكتب على يدَيه ويسألني بماذا أفكر. لم يكن يشبع فضوله شيء، ويظل عقله في حركة دائبة. ورغم كل شكوكه كان مع ذلك يتّكل على تدخّل إلهي.

أصبحنا من الآن فصاعداً معاً. وبرأيه، لا يمكننا أن نسمح لأي شيء أن يهدِّد حبنا.

لا يمكننا أن نترك العائلة تنهار.

لا يمكننا أن نتقبل شيئاً سيّئاً يمكننا تغييره.

ليس أمامنا خيار إلا أن نتمرد، أليس كذلك؟

أجل. نتمرد.

وحتى سنغدو أبطالاً.

أنا وغات تحدّثنا إلى ميرين وجوني.

أقنعناهما أن نفعل شيئاً.

ونحن نقول فيما بيننا

بلا تهاون: «افعل ما يخيفك».

ونردّده.

مراراً وتكراراً، كتعويذة.

ونحن نقول فيما بيننا

أننا نحن المحقون.

72

كانت الخطة بسيطة. سنأخذ صفائح البنزين الاحتياطية، تلك المخزّنة في مستودع المركب. ويوجد جميع أنواع الصحف والورق المقوى القديم مبعثراً في ردهة الخدمة؛ سنصنع منها كومة، ونرشّها بالبنزين. وكذلك الأرضيات الخشبية. ثم سنتراجع. وسنضرم النار بمنديل ورقي ونرميه على الأرض. أمر سهل.

سنقوم بالشيء ذاته في كل طابق، وفي كل حُجرة، إن أمكن، لنتأكد أن كليرمونت سيحترق بالكامل. غات في الطابق تحت الأرضي، وأنا في الطابق الأرضي، وجوني في الأول وميرين في الثاني.

«رجال الإطفاء استغرقوا حقيقة وقتاً في الوصول»، تشدِّد هذه الأخيرة.

«فريقا الإطفاء»، يضيف جوني. «وودز هول ومارثاز فاينيارد».

«هذا ما كنا نرجوه»، أقول، وقد عثرتُ فجأة على هذا التفصيل.

«خطّطنا للاتصال بالإسعاف»، يتابع جوني. «كان يفترض ذلك فعلاً، وإلا ما كان لأحد أن يصدق أنه مجرد حادث. كنا سندّعي أننا كنا نشاهد فيلماً في كودلداون. وبسبب الأشجار المحيطة بالمنزل، انعزلنا عن باقي الجزيرة إلا إذا صعدنا إلى السطح. عندها، سيبدو منطقياً ألا نلاحظ النار فوراً».

«كان جميع هؤلاء الإطفائيين تقريباً متطوعين»، يصرّح غات.

«لم يشتبهوا بشيء. هذه الأكواخ الخشبية القديمة تحترق لأوهى سبب».

«حتى لو ساورت الجد والخالات الشكوك، لن يلاحقونا قضائياً أبداً»، يضيف جوني. «كان هذا أكيداً ومؤكداً».

بالتأكيد لن يلاحقونا قضائياً أبداً.

فعندنا لا يوجد مجرمون.

ولا مدمنو مخدرات.

ولا فاشلون.

تنتابني رعشة هياج لدى التفكير بما فعلناه.

اسمي كادنس سنكلير إيستمان، وخلافاً لآمال العائلة البهية التي ترعرعتُ فيها، أنا مفتعلة حرائق.

عرّافة، بطلة، متمرّدة.

فرد من النمط الذي يحوّل مسار التاريخ.

مجرمة.

لكن إن كنتُ مجرمة، هل يجعلني ذلك مدمنة مخدرات؟ وإذا كان الجواب نعم، هل يجعلني ذلك فاشلة؟

يلعب ذهني على الكلمات والتبايُنات، كما هو دأبه دوماً.

«تولّينا زمام أمورنا بأنفسنا»، أستنتج.

«هذا يتعلق بزاوية النظر إلى الأمور»، تعترض ميرين.

«أنقذنا العائلة. وسوّيت الأمور».

«خالتي كاري تنتابها نوبات السير وهي نائمة على الجزيرة أثناء الليل. وأمي تنظف أحواض الجلي حتى تجرح يديها. وبيني تراقبك وأنتِ نائمة وتدوّن كل ما تأكلينه. يشربن مثل السكيرين. وحين يثملن، يبدأن بالبكاء».

«كيف تعرفين ذلك، أنتِ من لم تطأ قدمك منزل كليرمونت الجديد قط؟»، أقول.

«أصعد إليه من حين إلى آخر»، تردُّ ميرين. «أنتِ تتخيلين أننا سوينا جميعاً مشاكلنا، يا كادي، لكن الواقع هو...».

«نحن هنا»، أُصِرُّ. «لولا هذا الحريق، لما كنا هنا معاً. هذا كل ما أقوله فقط».

«ممتاز».

«كان جدّي يتحكّم بنا»، أقول. «لكن هذا انتهى. قايضنا شرّاً بخير».

أدركُ أموراً كثيرة كانت تفوتني من قبل. شايي ساخن جداً، والكذّابون رائعون، وكودلداون أيضاً. لا يهم إن وجدت بقع على الجدران. ولا تهم حالات صداعي أو صحّة ميرين المتدهورة. لا يهم أن تراود ويل الكوابيس وأن يغضب غات من إدانته. لقد ارتكبنا الجريمة الكاملة.

«لم يعد جدي يمارس سلطته علينا لأنه أصبح خرفاً»، تؤكد ميرين. «ولو كان يستطيع، لظل يعذّب فينا».

«أنا لا أوافقك»، يردّ غات. «يبدو لي منزل كليرمونت الجديد عقاباً».

«كيف هذا؟»، أقول.

«عقابٌ يعاقب نفسه به. بنى لنفسه منزلاً لا يمتّ للمنزل بصلة. متعمّداً انعدام الرفاهية فيه».

«ولماذا سيفعل شيئاً كهذا؟».

«وأنتِ لماذا تهبين كل ممتلكاتك؟»، يسألني غات.

ينظر إليّ بإمعان. وعيون الجميع تحدق بي.

«بدافع الإحسان»، أجيب أخيراً. «لأقوم بعمل الخير من حولي».

يخيّم صمت غريب على الحُجرة.

«أكره تجميع أشياء لا تفيد بشيء»، أقول.

لا يضحك أحد. لا أعرف لماذا أصبحتُ أنا موضوع الحديث الرئيس فجأة.

لا ينبس أحد من الكذّابين ببنت شفة لبرهة. ثم يستأنف جوني الكلام:

«انتبه إلى ما تقول، يا غات».

ويقول لي غات:

«يسرني أنك تذكرت الحريق يا كادنس».

وأجيبه:

«أجل، أخيراً، جزئياً».

وتعلن ميرين أنها ليست على ما يرام وتعود إلى النوم.

أبقى لفترة أيضاً مستلقية على البلاط مع الصبيَّين ننظرُ إلى السقف، حتى أيقنتُ، بشيء من الضيق، أنهما ناما.

73

أجدُ أمي تحت شرفة مدخل ويندمير مع الكلاب، وهي تحيك وشاح صوف أزرق باهت بالصنارة.

«تتوارين دوماً في كودلداون»، تتذمّر. «لا يناسبك أن تقضي كل هذا الوقت هناك. جاءت كاري إليه البارحة لتستعيد منه بعض

الأشياء، وأخبرتني أن المنزل في حالة قذارة فظيعة. هل لكِ أن توضّحي لي ما يجري؟».

«لا شيء محدّد. آسفة على الفوضى».

«إن كان قذراً إلى هذا الحدّ، لن نستطيع أن نطلب من جيني تنظيفه. هل تدركين هذا؟ سيكون ذلك إجحافاً بحقها. وستغضب بيس حين ترى ذلك».

لا أريد لأحد أن يذهب إلى كودلداون. أريد المنزل لنا وحدنا.

«لا تقلقي».

أجلس وأربت على رأس بوش الجميل ذي الوبر الأصفر.

«أخبريني، ماما...».

«نعم؟».

«لماذا أوصيتِ جميع أفراد العائلة ألا يحدثوني بصورة خاصة عن الحريق؟».

تضع عملها وتتفرّس بي مطولاً.

«هل تتذكرينه؟».

«مساء البارحة، تذكّرته فجأة. لا أتذكر كل شيء، لكن... أجل. أعرف أن هذا حدث. أتذكّر شجاراً كبيراً. وغادر الجميع. بقيتُ هنا مع غات، وميرين وجوني».

«لا شيء آخر؟».

«بلى. لون السماء. بسبب ألسنة اللهب. ورائحة الدخان».

إن كانت ماما تظن أنني متورّطة بشكل أو بآخر، فلن تسألني أبداً. أبداً. أعلم هذا علم اليقين.

لن ترغب بشكل خاص أن تعرف هذا.

غيَّرتُ مسار حياتها. وغيَّرتُ مصير عائلتنا. أنا والكذّابون.

كان عملاً رهيباً. بالتأكيد. لكنه كان عملاً، على الأقل. بمعزل عن الندب والنواح. أنا أقوى ممّا ظنّت أمي دوماً. خرقتُ القانون ضدّها ولصالحها في آن معاً.

تمسد شعري. هذا يوترني. أتراجع إلى الخلف.

«هذا كل شيء؟»، تسألني.

«لماذا لا يريد أحد أن يحدّثني في هذا الأمر؟».

«بسبب... بسبب...».

تتردد، وتفتش عن كلماتها.

«بسبب آلامك».

«بحجّة أنني أعاني صداعاً، وأنني لا أتذكر حادثتي، وأنني عاجزة عن تقبّل فكرة أن منزل كليرمونت احترق؟».

«قال الأطباء لي إنه يجب أن تتجنّبي التوتر بشكل خاص»، تبرِّر. «يظنون أن صداعك قد يكون مرتبطاً بالحريق، بسبب تنشّق الدخان أو الـ... الخوف»، تستنتج بشكل يرثى له.

«لم أعد صغيرة. ويحقُّ لي مع ذلك أن أعرف ما يجري في هذه العائلة. طوال الصيف وأنا أرغم نفسي على تذكّر حادثتي وما حدث قبلها. لماذا أخفيتِ الحقيقة عني، ماما؟».

«لقد أخبرتكِ بما حدث. منذ عامَين. قلتُ لكِ الحقيقة، يوماً تلو يوم، لكنكِ كنتِ تنسينها باستمرار في اليوم التالي. وحين أخبرت الطبيب بالأمر، قال لي إن هذا يسبِّب توتراً شديداً لك ومن الأفضل لي أن أتوقف».

«أنتِ تشاركينني حياتي!»، أصرخ. «هل تفضّلين الوثوق بطبيب لا يكاد يعرفني على تصديق غريزتك كأم؟».

«إنه رجل متخصِّص».

«هل تعتقدين أنه يسرّني أن أعرف أن أفراد عائلتي -بمن فيهم البنتان التوأم، وويل وتافت، تباً- يعرفون أشياء أجهلها أنا ويخفون عني أشياء تافهة؟ ما الذي يجعلك تظنين أنني أضعف من أن أتقبّل حقائق بسيطة؟».

«أجل، أعتقد أنك ما زلت ضعيفة للغاية. وبصراحة، لست متأكدة من كيفية التعامل مع ردّة فعلك».

«أنت لا تعرفين كم هذا مهين».

«أنا أحبك»، تقول.

وجهها الفاضل والدامع ينفرني.

74

أجدُ ميرين في غرفتي. كانت جالسة إلى مكتبي، ويداها على حاسوبي.

«كنت أرغب بقراءة الرسائل الإلكترونية التي أرسلتِها لي العام الماضي»، أقول. «هل ما زلتِ تحتفظين بها؟».

«بالتأكيد».

«لم أقرأها قط»، تعترف لي فجأة. «في بداية الصيف، أكّدتُ لك العكس، إنما في الواقع... لم أفتحها قط».

«لماذا؟».

«باه، هكذا. لأول وهلة، كنت أظن أن ذلك لا أهمية له،

لكنني اليوم أدركُ أنني كنتُ مخطئة. وانظري!» تخفّف صوتها. «حتى أنني خرجتُ من البيت من أجلها فقط».

أجبرُ نفسي على كظم غيظي.

«أتفهّم إلى أقصى حدّ أنك لم تجيبي على مكالماتي، ولكن لماذا لم تفتحي حتى رسائلي الإلكترونية؟».

«أعرف»، تتنهّد. «هذا سيّئ وأنا أسوأ السافلات. من فضلك، هل يمكنني قراءتها؟».

أفتح حاسوبي. وأعطي أمر بحثٍ وأعثر على جميع الرسائل التي وجّهتها إليها.

عددها ثمانٍ وعشرون رسالة. أعيد قراءتها من فوق كتفها. كُتِبَتْ كلها أو معظمها بأسلوب مرح ورائع، كأن كاتبها كان أسعد إنسان في العالم.

ميرين!

غداً سأسافر إلى أوروبا مع أبي الزاني الذي هو أيضاً، كما تعرفين، ملل قاتل. تمني لي حظّاً موفقاً واعلمي أنني كنتُ أفضّل ألف مرة أن أقضي الصيف في بيتشوود معك. وجوني. وحتى غات.

أعرف، أعرف. يجب أن أقلب الصفحة.

قلبتها الآن.

أجل، أجل.

في الطريق إلى ماربيلا، بالنسبة إلي الوسيمون الإسبان.

أتساءل هل سأنجح في إرغام بابا أن يأكل أكثر

الأشياء قرفاً في كل بلد من خطّ رحلتنا، عقاباً له لأنه هرب من كولورادو.

أراهن أنني قادرة على هذا. إن كان يحبني حقيقة، سيقبل أن يأكل أفخاذ الضفادع والكلى وحتى نملاً مغطّساً بالشوكولاتة.

/كادانس

كانت معظم الرسائل بهذا الأسلوب. لكن بعضها لم يكن مرحاً ولا رائعاً. كانت تلك رسائل مثيرة للشفقة وصادقة.

ميرين.

شتاء فيرمونت. مظلم، مظلم.

ماما تراقبني وأنا نائمة.

رأسي يؤلمني طوال الوقت. لا أعرف ماذا أفعل لأوقف هذا. أدويتي لا تجدي نفعاً. جلاد يتسلّى في هدم جمجمتي بضربات فأس، لكن نصله مثلوم فيتحتّمُ عليه أن يعيد الضربة مرات عديدة، ليس تماماً في المكان عينه. أعاني من جروح متعددة.

أحلم أحياناً أن جدي هو من يرفع الفأس.

وأحياناً أخرى، أنا.

وأحياناً أخرى، غات.

آسفة إن بدوتُ مجنونة. يداي ترتجفان على لوحة المفاتيح والشاشة شديدة السطوع.

أرغب بالموت أحياناً، لفرط ما يؤلمني رأسي. أرغم

نفسي دوماً أن أكتب لك أشياء مفرحة دون أن أعترف لك أبداً بأفكاري الأكثر سوداوية، مع أنها تلازمني بشكل دائم. لذلك أفعل هذا اليوم. حتى لو لم تجيبي، سأعرف أن أحداً ما سمعها... وهذا شيء جيد.

/كادنس

نقرأ الرسائل الإلكترونية الثماني والعشرين بالكامل. وفي النهاية، تقبّلني ميرين على خدي.

«لا يسعني حتى أن أطلب منك الصفح»، تقول. «لا توجد حتى كلمة في السكرابل لتعبِّر لكِ عن مدى أسفي».

ثم تنصرف.

75

آخذُ حاسوبي إلى سريري وأنشِئ ملفّاً جديداً. أنزع قصاصات ملاحظاتي عن الجدار وأعيد كتابتها على الحاسوب بسرعة مضيفة إليها ذكرياتي الجديدة، ومرتكبةً الكثير من الأخطاء. أملأ الثغرات بالفرضيات في المواضع التي لا تزال ذاكرتي تخونني فيها.

دار سنكلير للاستجمام والأطعمة الخفيفة.

سيكون بمقدورك أن تقولي وداعاً لحبيبك الصغير.

نحن نعشق ويندمير، أليس كذلك يا كادي؟

الخالة كاري تجهش بالدموع، مرتدية سترة جوني.

غات يرمي كُرات إلى الكلاب على ملعب التنس.

أوه، لا، لا، لا.

الكلاب.

الكلاب اللعينة.

فاتي وبرنس فيليب.

ماتا في الحريق.

أدركتُ للتو، وهذه غلطتي. لم يكونا يفعلان سوى الحماقات، ولا علاقة لبوش وغرنديل وبوبّي الذين دربتهم ماما بنفسها. كان فيليب وفاتي يأكلان نجوم البحر على الشاطئ ويتقيآنها بعد ذلك وسط الصالون. كانا ينتفضان لدى خروجهما من الماء، ويدسّان خطميهما في طعام نزهتنا ويلوكان الصحون الطائرة حتى يحوّلانها إلى قطع بلاستيك معجونة لا فائدة منها. كانا يعشقان كُرات التنس، ويختطفانها من الملعب، ويبللانها بلعابهما. لم يكونا يطيعان حين نطلب منهما الجلوس. وكانا يطالبان بالطعام حين نكون على المائدة.

حين استعرت النيران، كانا في إحدى غُرف الضيوف في الطابق الأول. كان جدي يحبسهما غالباً في الأعلى حين يكون المنزل خالياً، وأيضاً أثناء الليل. وهكذا، إما أن يلتهما أحذيتنا وإما يئنان وراء الباب.

كان جدي قد حبسهما قبل أن يغادر الجزيرة.

ونسيناهما.

قتلتُ هذين الكلبَين. أنا من تعيش مع كلاب الصيد الشقراء، أنا من تعرف حقّ المعرفة أين ينامان كل ليلة. لم يكن باقي الكذّابين يهتمون بهما. أو قلّما اهتموا على كل حال. وليس مثلي.

هلكا في ألسنة اللهب. كيف استطعت أن أنساهما؟ كيف

أعماني إلى هذا الحدّ هذياني المجرم المخبول، وهيجان اللحظة، وغضبي الشخصي على الخالات والجد؟...

فاتي وبرنس فيليب، سجينا ألسنة اللهب. تشمّما الباب الكاوي، وتنشّقا الدخان، وهزّا ذيليهما أملاً وهما ينتظران وصول شخص ليخلصهما، نابحَين.

أي ميتة مرعبة لهذين الحيوانَين الأليفَين وعديمي التربية.

76

أخرج من ويندمير راكضةً. الوقت ليل الآن، وبعد قليل موعد العشاء. تسيل مشاعري خارج عينَي، تسحق وجهي وجسدي حين أتصوّر الكلبَين ينتظران النجدة، متسمّرَين وراء الباب كلما كان الدخان يتسرّب من أسفل.

أين أذهب؟ أشعر أنني عاجزة عن مواجهة الكذّابين في كودلداون. وفي ريد غيت، أخشى أن أصادف ويل أو خالتي كاري. تباً. المكان صغير حقاً هنا، ولا يوجد مكان آخر أذهب إليه. أنا عالقة على الجزيرة التي قتلتُ فيها هذين الكلبَين المسكينَين.

كل تبجحي هذا الصباح،

الإحساس بالقوة،

الجريمة الكاملة،

تقويض البطريركية،

المأثرة التي أنقذ بها الكذّابون فردوس صيفهم وحتى حسّنوه،

المأثرة التي صنا بفضلها عائلتنا من الانهيار جزئياً...

كل هذا، ضرب من الجنون.

مات الكلبان،

الكلبان الغبيان والمحبوبان،

الكلبان اللذان كان بوسعي إنقاذهما،

الحيوانان البريئان اللذان كانت نظرتاهما تلمعان حين نرمي لهما قطعة همبرغر

أو عندما نناديهما باسميهما؛

الكلبان اللذان كانا يعشقان صعود المراكب،

اللذان يركضان، حرَّين، طوال النهار على قوائمهما الموحلة.

كيف أمكنني أن أقرِّر الانتقال إلى مرحلة الفعل دون التفكير بأنهما قد يكونان محبوسَين في الطابق الأخير، مطمئنيْن إلى حبّ وحماية كائنات سهرت على رعايتهما دوماً؟

أبكي بلا صوت، تهزّني نوبات نحيب صامتة غريبة، وأنا واقفة على طريق النزهة بين ويندمير وريد غيت. وجهي مخضل بالدموع، وصدري منقبض. أجرجر نفسي عائدة إلى البيت.

كان غات جالساً على الدرجات.

77

يهبُّ واقفاً حين يراني ويضمّني إليه. أنتحبُ على كتفه وأدخلُ ذراعَي تحت سترته، حول خصره.

لم يسألني، أنا من ابتدرتُ الكلام:

«الكلبان»، أقول. «قتلناهما».

يلزم الصمت لبرهة. ثم:

«أجل».

لن أقوى على استئناف الكلام إلا حين يتوقف جسدي عن الارتعاش.

«لنجلس»، يقول.

نجلس على درج الشرفة. يضع غات رأسه على رأسي.

«كنتُ أحب هذين الحيوانين»، أقول.

«جميعنا كنا نحبهما».

«أنا...» يغص حلقي. «أظن أنني سأتوقف عن الحديث عنهما، وإلا سأعاود البكاء».

«لا بأس».

نظلُّ جالسَين دون أن ننبس بكلمة.

«أهذا كل شيء؟»، يسألني غات أخيراً.

«ماذا؟».

«ألأجل هذا فقط تبكين؟».

«لا تقل لي إن هناك أمراً آخر».

يلتزم الصمت.

تمرُّ الثواني.

«يا إلهي. هناك أمر آخر».

عند هذه الكلمات، يهبط قلبي ويتجمّد.

«في الواقع»، يقول غات.

«شيء آخر يرفض الجميع إخباري به. شيء آخر تفضّل ماما ألا أتذكره».

يستغرق وقتاً في التفكير.

«أعتقد أننا لا نتوقف عن إخبارك به، لكنك لا تسمعيننا. كنتِ مريضة جداً يا كادنس».

«وأنتَ نفسك لن تخبرني به وجهاً لوجه».

«لا».

«لكن لماذا؟».

«تعتقد بيني أن هذا أفضل. و... نحن جميعاً معاً هنا، كنتُ آمل أن تستعيدي ذاكرتك».

يرفع ذراعه عن كتفَي ويضمُّ ركبتيه بين يديه.

غات، حبيبي غات.

إنه التأمّل والحماس. الطموح والقهوة السوداء. أحبُّ جفنَيه فوق عينَيه الكستنائيتَين، وبشرته السمراء الناعمة وشفته السفلى المكتنزة. وروحه. روحه.

أطبع قبلة على خده.

«أتذكّر كومة أشياء عنا»، أقول. «أتذكّر أننا تبادلنا القُبل أمام باب كليرمونت قبل أن ينزلق كل شيء. وحين حكيت لي عن طلب زواج إيد على ملعب التنس. ولحظاتنا المسروقة على الصخرة الكبيرة المسطّحة قرب الدرب الدائري، هناك حيث لا يمكن لأحد أن يرانا. وعلى الشاطئ الصغير، حين تحدّثنا عن الحريق».

يوافق.

«لكنني لا أتذكر حادثتي حتى الآن. وسبب عدم وجودك حين أُصِبتُ. هل تشاجرنا؟ هل أسأتُ إليك؟ هل تصالحتَ مع راكيل؟».

لا يسعني حتى أن أنظر في عينيه.

«أعتقد أن من حقّي الحصول على إجابة شافية منك، حتى لو انتهت قصتنا عند هذا الحدّ».

تتوتر قسماته. ويدفن رأسه بين يديه.

«لا أدري ماذا أقول لكِ. ولا ما يفترض بي أن أفعله».

«أخبرني الحقيقة، هذا كل شيء».

«لا أستطيع البقاء. يجب أن أعود إلى كودلداون».

«لماذا؟».

«يجب ذلك».

عند هذه الكلمات، ينهض ويبدأ بالابتعاد. ثم يلتفت نحوي.

«أنا أفسدتُ كل شيء. اغفري لي يا كادي. ألوم نفسي كثيراً على كل شيء».

ويبدأ بالبكاء.

«ما كان يجب أن أقبّلك، ولا أن أصنع لك أرجوحة أو أقدِّم لك ورداً. ما كان يجب أن أقول لك أنك جميلة».

«لكنني كنتُ أريد كل ذلك».

«أعرف، لكن كان يجب أن ألزم حدودي. استهترت. أنا آسف».

«ارجع»، أقول.

وأنا أراه لا يحرك ساكناً، أذهب لملاقاته. أضع يدَي في تجويفة قذاله وخدي على خده. أقبّله بحرارة، من كل قلبي. شفتاه في غاية الرقّة، أجمل شخص أعرفه، أجمل شخص التقيته في حياتي، أياً تكن الأمور الرهيبة التي ربما حصلت بيننا وأياً تكن نهاية هذه القصة.

«أحبك»، أهمس.

ينفصل عني.

«حسنٌ إذاً. أنا آسف. كنت أرغب برؤيتكِ وحسب».
يدير ظهره لي ويختفى في الليل.

78

مستشفى مارثاز فاينيارد. الصيف الخامس عشر، بعد حادثتي مباشرة.

كنتُ ممددة تحت غطاء أزرق. يتوقع الناس أغطية بيضاء فوق سرير مشفى، لكن أغطيتي كانت زرقاء. كان الجو حارّاً في غرفتي. وفي ذراعي أنبوب حقن.

لم يكن يحيد نظر ماما وجدي عني. كان جدي يمسك بيده علبة كراميل إدغارتاون أحضرها كهدية.

لفتة مؤثرة من جانبه.

كنتُ أستمع إلى الموسيقى، وسماعتي مثبتة على أذنَي، بحيث لا أسمع ما يقوله الراشدون. كانت أمي تبكي.

فتح جدي علبة الكراميل، كسر منها قطعة وناولني إياها.

الأغنية:

شبابنا ينهار
لن نخربه
تذكَّر جيداً اسمي
لأننا دخلنا التاريخ
نا نا نا نا، نا نا نا

أردتُ نزع سماعتي. وأنا أرفع يدي، رأيتها مضمّدة.
كانت يداي الاثنتان مضمدتين.
وقدماي. كنتُ أشعر بجبيرة تلفهما، تحت الغطاء الأزرق.
كانت يداي وقدماي مضمّدة. لأنها كانت محروقة.

79

كان يا ما كان في قديم الزمان عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال.

لا، لا، انتظروا.

كان يا ما كان في قديم الزمان كان ثلاثة دببة تسكن بيتاً صغيراً وسط الغابة.

كان يا ما كان كانت ثلاث عنزات صغيرات يعشن قرب جسر.

كان يا ما كان في قديم الزمان كان ثلاثة جنود يتلمّسون طريقهم معاً سيراً على الأقدام ليعودوا إلى ديارهم بعد الحرب.

كان يا ما كان في قديم الزمان كان ثلاثة خنازير صغار.

كان يا ما كان في قديم الزمان كان ثلاثة أخوة.

لا، قضي الأمر. وجدتُ الرواية الأخرى التي كنتُ أبحث عنها.

كان يا ما كان في قديم الزمان كان ثلاثة أولاد جميلين، صبيّان وبنت. احتفل والداهم بميلاد كل واحد منهم كما يليق، وحتى جنيات البحر شاركن في الأفراح. حضرن التعميد ومنحنهم قدرات سحرية.

الحيوية، المثابرة والتهكُّم.
التأمّل والحماس. الطموح والقهوة السوداء.
السكّر، الفضول والمطر.
مع ذلك، كانت توجد بينهم ساحرة أيضاً.
لا بدَّ من وجود ساحرة دوماً.

كانت هذه الساحرة في سنّ الأولاد الثلاثة الجميلين. ومع مرور السنين وترعرهم معاً، أصبحت تغار من الفتاة، ثم من الصبيين. لقد تلقّوا القدرات السحرية من جنيات البحر، بينما حُرمتْ هي منها يوم تعميدها.

كان الصبي الأكبر قوياً وسريعاً، داهيةً ووسيماً. رغم قصر قامته.

كان الثاني مثابراً وغيرياً. رغم اعتباره غريباً.

أما الفتاة، فكانت متّقدة الذهن، كريمة ومستقيمة. مع أن لديها عقدة الشعور بالنقص.

بينما الساحرة، لم تكن تتمتع بشيء من كل هذا، لأن والديها أغضبا جنيات البحر. ولم تحصل على أية قدرة سحرية في ميلادها. كانت تشعر أنها وحيدة. وكانت موهبتها الوحيدة تكمن في سحرها الشرير والسيّئ.

وهي تخلط بين الزهد والإحسان، راحت توزّع كل ممتلكاتها دون أن تفعل الخير حولها حقاً.

وهي تخلط بين المرض والشجاعة، راحت تعاني الألم معتبرة نفسها قديسة تستحق كل أشكال الثناء.

وهي تخلط بين القريحة والذكاء، راحت تسلّي الناس بدل أن تخفِّف عن قلوبهم أو تدعوهم إلى التفكير.

لم يكن سحرها إلا من أجلها، وكانت تستخدمه لتدمير أكثر ما يعجبها. زارت كل واحد من الأولاد الثلاثة يوم عيد ميلادهم العاشر، لكنها لم تفعل لهم شيئاً في تلك اللحظة. كانت حماية جنية طيبة -الجنية ليلاس، ربما- تمنعها من مهاجمتهم مباشرة.

وعوضاً عن ذلك، ألقت عليهم تعويذة.

«حين تصبحين في السادسة عشرة من عمرك»، جأرت وهي مجنونة من الغيرة، «حين ستصبحون في السادسة عشرة من عمركم»، أعلنت للأولاد الثلاثة الجميلين، «ستخزّون إصبعكم بإبرة... لا، ستشعلون عود ثقاب... أجل، هو ذاك، ستشعلون عود ثقاب وستهلكون في اللهب».

استبدَّ الرعب بأبوَي الأولاد الثلاثة الجميلين من هذه اللعنة، وبذلا بالتأكيد ما بوسعهما ليمنعا تحقّقها. ارتحلوا إلى أبعد ما يمكن، إلى قصر، على جزيرة تعصف فيها الرياح. قصر ليس فيه أي عود ثقاب.

هنا، بالتأكيد، لن يتعرض الأولاد لأي خطر.

هنا، بالتأكيد، لن تعثر عليهم الساحرة أبداً.

لكنها عثرت عليهم. وفي صيف عامهم الخامس عشر، قبل عيد ميلادهم السادس عشر تماماً، وبينما لم يعد الأبوان القلقان يتحسّبان للأمر، أدخلت الساحرة الغيورة سُمَّ حقدها على شكل شابة جميلة شقراء.

عقدت هذه الشابة الشقراء صداقة مع الأولاد الثلاثة. كانت تقبّلهم، وتصطحبهم لركوب القارب، وتقدّم لهم كراميل وتحكي لهم قصصاً.

ثم أعطتهم علبة عيدان ثقاب.

جُنَّ الأولاد فرحاً، لأنهم حتى مطلع عامهم السادس عشر، لم يكونوا قد رأوا بعد قط ناراً حقيقية.

هيا، اقدحوها، قالت لهم الساحرة وهي تبتسم. إنها جميلة للغاية، النار. ليس ثمة ما تخشونه.

هيا، قالت لهم، اللهب يطهّر نفوسكم.

هيا، قالت لهم، لأنكم أرواح مستقلة.

هيا، قالت لهم. ما فائدة الحياة إن لم نفعل فيها شيئاً؟

واستمعوا إليها.

أخذوا عيدان الثقاب وقدحوها. ورأت الساحرة جمالهم يحترق،

وحيويتهم،

وذكاءهم،

وتوقّد ذهنهم،

وقلوبهم المفتوحة،

وسحرهم،

وأحلام مستقبلهم.

كل هذا اختفى أمام عينيها في سحابة دخان.

القسم الخامس

الحقيقة

80

إليكم الحقيقة حول عائلة سنكلير البهية. على الأقل، الحقيقة كما يعرفها جدي. والتي رفض على الدوام أن يصرّح بها للصحف.

ذات مساءٍ صيفي، منذ عامين، في عذوبة شهر تموز،

غاتويك ماثيو باتيل،

ميرين سنكلير شيفيلد

و

جوناثان سنكلير دنيس

لقوا حتفهم في حريق منزلي سبَّبَه بلا شكّ تسرّب من صفيحة بنزين موضوعة في ردهة منزل. احترق المنزل المعني، احترق بكامله قبل أن يسعف الوقت رجال إطفاء المدن المجاورة في الوصول إلى المكان.

كانت كادنس سنكلير إيستمان موجودة على الجزيرة لحظة الكارثة، لكنها رأت النار بعد فوات الأوان. منعها الحريق من الدخول إلى المبنى حين علمت أن أشخاصاً وحيوانات محتجزين في الداخل. سبّبت لها محاولاتها لنجدتهم حروقاً بليغة في اليدين والقدمين. هرعت بعد ذلك إلى بيتها، في الطرف الآخر للجزيرة، لتتصل بالإطفاء.

عند وصول رجال الإطفاء، وجدوا الآنسة إيستمان على

الشاطئ الصغير، نصف عارية ومتكوّرة على نفسها. لم تستطع الإجابة عن الأسئلة حول ما حدث، وبدت كأنها تعرّضت لصدمة قحفية عنيفة. أعطيت منوماً قوياً لعدة أيام.

رفض هاريس سنكلير، مالك الجزيرة، إجراء أي تحقيق رسمي لتحديد أسباب المأساة. التهمت النيران معظم الأشجار المحيطة بالمنزل.

جنازات

غاتويك ماثيو باتيل،

ميرين سنكلير شفيلد

و

جوناثان سنكلير دنيس

أقيمت في مسقط رأسهم، في كامبريدج ونيويورك.

لم تستطع كادانس سنكلير إيستمان حضورها بسبب حالتها الصحية.

في الصيف التالي، عاد أفراد عائلة سنكلير إلى بيتشوود آيلاند. تجادلوا. بكوا. أفرطوا في شرب الكحول.

ثم عملوا على تشييد منزل جديد فوق رماد القديم.

لم تتذكر كادنس سنكلير إيستمان أي شيء عن ظروف الحادثة، ولا حتى عن الحريق ذاته. شفيت حروقها بسرعة، لكنها تعاني من فقدان ذاكرة انتقائي بسبب أحداث الصيف السابق. لم تزل تعتقد أنها أصيبت في رأسها وهي تسبح. برأي الأطباء، نوبات صداعها الفظيعة هي تعبير عن حزنها وإثمها المكبوتَين. وصفوا لها علاجاً متّسقاً يعتمد على المهدئات، لأنهم يعتبرونها هشّة للغاية على المستويين النفسي والعقلي.

هؤلاء الأطباء ذاتهم طالبوا أمها ألا تحاول شرح ظروف المأساة لها ما دامت لا تستطيع تذكرها بنفسها. لندع ذاكرتها تقوم بعملها. عليها ألّا تعود إلى بيتشوود آيلاند قبل أن تمضي فترة نقاهة مديدة. في الواقع، كان من الضروري إبقاؤها بعيدة عن الجزيرة خلال العام الأول بعد الحادثة.

أظهرت كادنس حماساً مضطرباً للتخلُّص من جميع ممتلكاتها غير المفيدة، بما فيها بعض الأشياء التي تحمل قيمة عاطفية قوية في نظرها، كأنها تعاقب نفسها بنفسها. صبغت شعرها باللون الأسود واعتمدت أسلوباً متقشّفاً في اللباس. استشارت أمها أخصائياً نفسياً، فشرح لها أن سلوكها يمثّل مرحلة اعتيادية من عملية الحداد.

وخلال العام الثاني بعد الحادثة، بدأت العائلة تتعافى ببطء. استطاعت كادنس العودة إلى دراستها بعد فترة غياب مديدة. وعبّرت الفتاة الشابة أخيراً عن رغبتها في العودة إلى بيتشوود. اتفق الأطباء وأفراد آخرين من العائلة: قد يكون هذا مفيداً لها.

على الجزيرة، قد تستطيع أن تنجز شفاءها أخيراً.

81

تذكّروا ألا تبلّلوا أقدامكم بشكل خاص. ولا ملابسكم.

رشّوا جيداً خزانة البياضات، المناشف، الأرضيات، الكُتب والأسرّة.

تذكّروا أن تضعوا صفائح البنزين بعيداً عن النيران لتتمكنوا من استعادتها عند مغادرتكم.

انظروا إلى النار تندلع وتنتشر. ثم اهربوا. اعبروا من خلال سلَّم المطبخ واخرجوا عبر ردهة الخدمة.

لا تنسوا استرداد صفائح البنزين لتعيدوها إلى مستودع المركب.

عودوا إلى كودلداون. سنضع ملابسنا في الغسالة، وسنبدّل ثيابنا ونتأمل شعلتنا الجميلة قبل أن نخطر رجال الإطفاء.

هذه هي الكلمات الأخيرة التي وجّهتها لهم. صعد جوني وميرين إلى الطوابق العليا يحملان صفائح وأكداس صحف كوسيلة لإشعال النار.

قبّلتُ غات قبل أن ينزل إلى القبو.

«موعدنا في عالم أفضل»، قال لي، وضحكتُ.

أفرطنا في الشرب. أفرغنا زجاجات النبيذ التي فتحتها الخالات. أمدّني الكحول بشعور الغبطة والقوة حتى اللحظة التي ألفيت فيها نفسي وحيدة في المطبخ. وهناك، شعرتُ بالغثيان، وانتابني دوار.

كان الجو بارداً في المنزل. قلتُ في سرّي أنه يستحق الهدم. كان مكتظّاً بأشياء تافهة تتشاجر عليها الخالات. أعمال فنية، أواني بورسلان، صور. جميع هذه الأشياء التي كانت تغذّي الشجارات العائلية. ضربتُ بقبضتي صورة ماما وكاري وبيس وهنّ صغيرات، يبتسمن أمام عدسة الكاميرا. تحطّم الزجاج وتراجعتُ إلى الخلف.

بدأ النبيذ يشوّش ذهني فعلاً. لم أعتد الشرب إلى هذا الحدّ.

وأنا أحمل صفيحة بيد وكدسة صحف تحت ذراعي، قرّرتُ أن أنهي الأمر بأسرع ما يمكن. رششتُ المطبخ أولاً، ثم مستودع الأطعمة. مضيتُ بعد ذلك إلى قاعة الطعام وكنتُ أواظب على سقي

الأرائك بغزارة حين اكتشفتُ أنه كان يفترض بي أن أبدأ من الطرف الآخر للطابق الأرضي، من الجزء الأبعد عن الردهة. لأن طريقنا إلى الخروج كان من هنا. كان يفترض بي أن أهتم بأمر المطبخ في النهاية قبل أن أهرب دون أن أتخبّط في البرك الصغيرة.

يا لي من حمقاء.

باب المدخل الرئيس المُفضي من الصالون إلى الشرفة أصبح الآن مشرّباً بالبنزين، لكن يوجد مخرج آخر خلف المنزل أكثر أماناً. يقع في مكتب جدي ويسمح بالوصول إلى طريق يفضي إلى الملحقات. ليس عليّ إلا أن أتسلّل من هناك.

رششتُ جزءاً من الممر ثم صالة الخياطة، ولم يخلُ الأمر من غصّة في القلب على القطنيات الجميلة المزخرفة وبكرات الخيوط الملوّنة لجدتي تيبر. لو قيّض لها أن ترى ما أقوم به لكرهته. لأنها كانت تعشق أقمشتها، وآلة خياطتها القديمة وتحفها الجميلة.

يا لي من حمقاء، مرة أخرى. لقد بلّلت خفّي.

حسنٌ. هدوء. سأبقيه في قدمَي حتى أنتهي، ثم سأرميه في النار لحظة هروبي.

في مكتب جدي، قفزت واقفة فوق الطاولة لأرشّ مكتبته الشخصية حتى السقف وأنا أمسك الصفيحة بطرف ذراعَي. بقي لدي كمية لا بأس بها من البنزين، وهذه آخر حُجرة لي، لذلك سكبتُ كمية كبيرة على الكُتب.

ثم أفرغتُ البقية على الأرض، وكدّستُ مجلاتي القديمة وسط الحُجرة وتراجعتُ حتى الردهة الصغيرة المطلة على الباب الخلفي. خلعتُ حذائي لأرميه فوق الكومة، وذهبتُ لأحتمي حافية القدمين على بلاطة جافة من الأرضية ووضعتُ الصفيحة على الأرض.

أخرجتُ علبة عيدان ثقاب من الجيب الخلفي لبنطالي الجينز وأشعلتُ المنديل الورقي الذي لففته مسبقاً كمشعل.

ألقيتُ بشعلتي البدائية فوق كومة المجلات ونظرتُ إلى النار تضطرم. تستعر، وتمتدّ. ومن خلال باب المكتب المزدوج العريض، رأيتُ لسان لهب يتسلّل من الجانب نحو الممر ولساناً ثانياً نحو الصالون. التقطت الأريكة النار فوراً.

وفي لحظة، التهبت المكتبة بكاملها، أسرع من الباقي بسبب الكتب المُشبَعة بالبنزين. حتى السقف راح يحترق. لم أكن أستطيع أن أزيح نظري عن ألسنة اللهب. كان مشهداً رهيباً. خارقاً.

عندها صرخ أحد ما.

مرة أولى. ثم ثانية.

كانت الصرخات تصدر عن الحُجرة الواقعة فوق المكتب مباشرة، غرفة نوم. كان جوني مكلّفاً بالطابق الأول. وقد اشتعلت المكتبة بسرعة فائقة. وامتدَّ الحريق بقوة، ولم يسنح الوقت لجوني أن يخرج.

أوه لا، لا، لا. هرعتُ نحو الباب الخلفي، لكن كل مزاليجه كانت موصدة. وكانت يداي زلقتين بسبب البنزين. والمعدن صار كاوياً. سحبتُ المزاليج، واحد، اثنان، ثلاثة، لكنّ شيئاً ما كان مختلاً فاستعصى الباب على الفتح.

سمعتُ صراخاً آخر.

حاولتُ من جديد تحريك المزاليج. لا جدوى. فتركتها.

وأنا أغطي أنفي وفمي بيديّ، اجتزتُ المكتب ثانية لأدلف إلى الممر في اتجاه المطبخ. لم يكن يحترق بعد، الحمد لله. ركضتُ فوق البلاط المبلّل باتجاه ردهة الخدمة.

تعثّرتُ وتزحلقت ببرك البنزين.

كانت حاشية بنطالي الجينز قد التقطت النار حين كنتُ في المكتب. لامسَت ألسنة اللهب البنزين على البلاط حتى الخزانة الريفية التي تحتوي على سجادات جدتي تيبر الجميلة. ثم انتشرت في ردهة الخدمة، وفصلتني عن منفذ الخروج الذي كنتُ أسعى إليه، أمامي مباشرة. رأيتُ أسفل بنطالي الجينز يحترق، من الكاحل حتى الركبة. رميتُ نفسي وسط النار لأفتح الباب.

«اخرجوا!»، صرختُ، مع أنني كنتُ أشك في أن يتمكن أحد من سماعي. «اخرجوا الآن!».

حين صرتُ خارجاً، ارتميتُ على المرج. تدحرجتُ حول نفسي لأطفئ بداية احتراق بنطالي.

كان الطابقان العلويان في منزل كليرمونت يتوهّجان بتأثير الحرارة، والطابق الأرضي يحترق بكامله. أما القبو، فيستحيل معرفة ما فيه.

«غات؟ جوني؟ ميرين؟ أنتم هنا؟».

لا جواب.

وأنا أكبت شعور الذعر، قلتُ في سرّي أنهم خرجوا قبلي بالتأكيد.

هدوء. كان كل شيء يجري على ما يرام. هكذا يُفترض.

«أنتم هنا؟». صرختُ من جديد وبدأتُ أركض.

دوماً لا جواب.

إنهم بالتأكيد في مستودع المركب، يعيدون الصفائح. لم يكن بعيداً، فركضت وأنا أصرخ أسماءهم بأعلى صوتي. أخذت قدماي الحافيتان ترنّان بشكل غريب على ألواح طريق النزهة الخشبي.

كان الباب مغلقاً. فتحته على مصراعيه، بضربة قوية.

«غات! جوني! ميرين!».

لا أحد. لعلهم سبقوني إلى كودلداون، وهم يتساءلون عمّا أفعله؟

هناك طريق يقود من مستودع المركب إلى كودلداون ويمرُّ من خلف ملعب التنس. أخذتُ أركض في الليل والصمت الغريب الذي يلفُّ الجزيرة. ورحتُ أردِّد مراراً وتكراراً: إنهم هناك. بانتظاري. وقلقون عليّ.

سنضحك نحن الأربعة لأننا فعلناها. سأبلِّل حروقي بالجليد وسننتهز فرصة أننا ما زلنا على قيد الحياة.

هذا أكيد.

لكن عند وصولي، كان المنزل غارقاً في العتمة.

لم يكن أحد ينتظرني فيه.

انطلقتُ كالسهم نحو كليرمونت وحين لاحَ لي المنزل، كانت النيران قد التهمته بالكامل، من الأرض حتى السقف. كانت نافذة البرج حمراء، ونوافذ الغرف أيضاً، ونوافذ الطابق الأرضي تسطع بوميض برتقالي. كانت الحرارة جهنمية.

ركضتُ حتى المدخل الجانبي وفتحتُ الباب. انبعث دخان كثيف. أصابتني نوبة سعال شديدة، فخلعتُ كنزتي وبنطالي الجينز المبلّل بالبنزين. دخلت وسط النار المتّقدة غير عابئة بالثمن واتجهت نحو درج المطبخ، الدرج الذي ينزل نحو القبو.

في منتصف الطريق انتصب أمامي جدار من اللهب. جدار.

لم يخرج غات. ولن يصعد ثانية.

عدتُ أدراجي وركضت للقاء جوني وميرين، لكن الأرضية الخشبية راحت تحرق باطن قدمَي.

التهب حاجز الدرج. أمامي، تداعى كل البناء وهو يقذف حزماً من اللهب.

تراجعتُ إلى الخلف.

لم يعد لدي أي وسيلة للصعود.

ولا أي وسيلة لإنقاذهما.

لم يعد لدي أي مكان

أي مكان

أي مكان

أي مكان ألوذ إليه

غير العدم.

82

أتذكّر المأساة كأنني أعيشها من جديد، وأنا جالسة على درجات ويندمير. لم أزل أحدّق في المكان الذي توارى فيه غات في الليل. يطفو إدراكي لتصرّفاتي في داخلي مثل دخان أسود وبارد يخنقني. أتشنّج وأتلوّى من الألم. ينتشر الضباب الجليدي من صدري نحو ظهري وقذالي. يجتاح جمجمتي، ويشلُّ عمودي الفقري.

البرد الرهيب للندم.

ما كان يُفترض بي أن أرشَّ المطبخ أولاً. ما كان يفترض بي أبداً أن أضرم النار في المكتب.

كم أنا بلهاء لأنني ركّزتُ على الكُتب. كان يمكن لأي شخص أن يخمّن أنها ستحترق بلمح البصر. أي شخص.

كان يفترض بنا أن نزامن موعد مغادرتنا الحريق.

كان يفترض بي أن أصرَّ على بقائنا معاً.

ما كان يُفترض بي أبداً الذهاب إلى مستودع المركب.

ولا الذهاب أبداً إلى كودلداون مباشرة.

لو أنني فقط عدتُ بأقصى سرعة إلى كليرمونت، لربما سنح لي الوقت أن أخرج جوني. أو أحذّر غات قبل أن يتحول القبو إلى جحيم. لربما وجدتُ أسطوانات الإطفاء ونجحت بشكل أو بآخر في إطفاء النيران.

لربما، لربما.

لو أنني فقط، لو أنني فقط.

كانت تراودني أحلام كثيرة من أجلنا: حياة متحرّرة من الإكراه والقسر والأحكام المسبقة. أحرار في أن نُحِب وأن نُحَب.

وعوضاً عن ذلك، قتلتهم.

أعزائي الكذّابين، أحبابي.

ماتوا. حبيبتي ميرين، حبيبي جوني، حبيبي غات.

ينتشر الضباب الجليدي حتى أطراف يدي. تتحوّل أصابعي إلى قطع جليد. تتشقّق وتسقط وتتناثر شظاياها على درجات الشرفة. تصعد التشقّقات على امتداد ذراعَي وكتفَي وعنقي. يتجلّد وجهي، ويتجمّد على تكشيرة ألم شبيهة بقناع ساحرة حاقد. حلقي غاص. ولم أعد أقوى على إصدار أي صوت.

ها أنَذا أتحوّل إلى جليد في حين أستحق أن أُحرق.

كان الأجدر بي أن أخرس بدل أن أتحدّث عن شجاعة الفعل

وتجاوزه. كان بوسعي ألا أنبس ببنت شفة. وأتقبل أقراصي المهدِّئة. وكان الهاتف سيفي بغرضنا جميعاً. كنا جميعاً سنحصل قريباً على رخصة القيادة. كنا جميعاً سنذهب قريباً إلى الكلية وكانت فيلّات عائلة سنكلير الفخمة ستبدو لنا بعيدة وبلا معنى.

كان بوسعنا أن نتحلّى بالصبر.

كان بوسعي أن أكون صوت العقل.

لعلنا حينئذ، لو احتسينا نبيذ الخالات، لنسينا مشاريعنا الكبيرة. لو ثملنا بسبب الإفراط في شرب الكحول، لكنا غفونا أمام التلفاز، غاضبين وعاجزين بالتأكيد، لكن دون أن نضرم النار في أي شيء.

لا يمكنني الرجوع إلى الوراء.

أزحف في البيت حتى غرفتي على بقايا أطرافي المتجمِّدة والمتشقِّقة، متخلية شيئاً فشيئاً عن أجزاء من جسدي المتجمّد ورائي. كعباي، ركبتاي. وحين أصبح تحت الأغطية، تصيبني تشنّجات وأنهار على وسادتي. أصابع. أسنان. فكّين. عظام ترقوة.

أخيراً، أخيراً، تتوقف الارتعاشات. وأبدأ في تدفئة جسدي والذوبان.

أبكي على خالتَي اللتين فقدت كل واحدة منهنّ بكر أولادها.

على ويل الذي فقد أخاه.

على ليبرتي وبوني وتافت الذين فقدوا أختهم الكبيرة.

على جدي الذي لم يرَ تلاشي قصره في اللهب وحسب وإنما شهد أيضاً موت حفيديه.

على الكلبَين، هذين الحيوانَين المسكينَين سيئَي التربية.

أبكي على نواحي الأناني هذا الصيف. على رثائي لذاتي. على مشاريعي المستقبلية.

أبكي على جميع الأشياء التي وهبتها والتي أفتقدها. وسادتي، كُتبي، صوري. أرتعش من سذاجة إحساني الزائف، ومن طلاء الفضيلة الذي أخفيتُ تحته إثمي، ومن الأكاذيب التي رويتها لنفسي، ومن العقوبات التي أنزلتها على نفسي وعلى أمي.

أنتحب ذعراً من فكرة أنني كنتُ عبئاً ثقيلاً على عائلتي، وأكثر أيضاً لمعرفة أنني المسؤولة عن هذه المأساة.

لم ننقذ فردوسنا، في نهاية المطاف. اختفى إلى الأبد، هذا على فرض أنه سبق ووجد يوماً. فقدنا براءتنا وصراحتنا قبل المشاحنات الفظيعة للخالات الثلاث وموت جدتي تيبر وهذيان جدي.

قبل أن نصبح مجرمين. وأشباح.

تتبادل الخالات القُبل والعناق ليس لأنهنّ تحررن من عبء كليرمونت ورموزه الباطلة، وإنما بسبب الحزن وبدافع التضامن. وليس لأننا حررناهنّ، وإنما لأننا حطمناهنّ، ولأن كل واحدة منهنّ تريد التشبُّث بالأخرى تحت وطأة الرعب.

جوني. كان جوني يريد أن يركض في الماراتون. أن يصمد كيلومتراً بعد كيلومتر ويثبت أن رئتيه لن تخذلاه. أن يبرهن أنه كان الرجل الذي تمنّى الجد أن يراه فيه، وأن يبرهن على قوته رغم قصر قامته.

امتلأت رئتاه بالدخان. لم يعد هنالك داعٍ ليبرهن على أي شيء. ولم يعد هنالك أي خط نهاية ليجتازه.

كان يريد أن يمتلك سيارة جميلة ويأكل كل قوالب الكعك المعروضة في واجهات محلات الحلويات. كان يريد أن يضحك، ويشتري تحفاً فنية ويرتدي ملابس جميلة. كنزات، شالات، ألبسة

صوفية مقلّمة. كان يريد أن يبني سمكة تونة بقطع الليغو ويعلّقها على الجدار كحيوان محنّط. كان يرفض أن يكون جدّياً، إلى حدٍّ مزعج أحياناً، إنما كان يحسن الاستثمار في الأمور التي تهمّه فعلاً. السباق. ويل وكاري. الكذّابون. حسّه بالعدالة. كان قد تخلّى بفرقعة أصابع عن خطته في التوفير الجامعي حتى لا يتنازل عن قيمه الشخصية.

أفكر في ذراعَيه القويَّين، وفي الخطّ الواقي فوق أنفه، أفكّر حين تسممنا معاً بالسماق السام وحين رحنا نحكُّ كالمجانين في الأرجوحة الشبكية. حين بنى لنا، أنا وميرين، بيتاً للدمى من الورق المقوى وحصى وجدها على الشاطئ.

جوناثان سنكلير دنيس، كنتَ ستغدو منارة في الليل لكثير من الناس.

كنتَ منارة. حتماً.

وأنا تخليتُ عنك. بأسوأ الطرق.

أبكي على ميرين التي كانت تحلم أن تزور الكونغو. لم تكن تعرف بعد ما تتمنى القيام به في حياتها ولا بماذا تؤمن؛ كانت لا تزال تستكشف طريقها، وهي واثقة أنه سيقودها إلى مكان ما. لن تعرفه أبداً، أبداً إلا بواسطة الصور والأفلام والقصص المختلقة لتسلية الآخرين.

كانت ميرين تتحدث كثيراً عن العلاقات الحميمة مع أنها لم تخض أي تجربة عملية. عندما كنا صغيرتَين، كنا نسهر غالباً إلى وقت متأخّر مساءً في أكياس نومنا تحت شرفة مدخل منزل ويندمير، نمزح ونأكل الكراميل. كنا نتشاجر على الدمى ونضع مساحيق تجميل ونحلم بالحب الكبير. لن تحظى ميرين أبداً بزفافها الجميل

مع باقات ورود كالشموس وعريس يحبها بما يكفي ليرتدي حزاماً من الكمّربوند الأصفر.

كانت سريعة الغضب. ومتسلِّطة. لكنها كانت تعرف كيف تسخر من نفسها. كان من السهل إخراجها عن طورها، وكانت تنزعج باستمرار تقريباً من أمها أو البنتين التوأم، قبل أن تتأسف بمرارة على كل ما قالته. كانت تحب أسرتها، أخوتها وأخواتها؛ تقرأ لهم القصص، تساعدهم في صنع كريمة البوظة وتقدِّم لهم كل الأصداف التي تجدها على الشاطئ.

لم يعد بإمكانها أن تعتذر لأي كان.

لم تكن تريد أن تصبح مثل أمها. لم يكن فيها شيء من أميرة، لا. كانت تريد بالأحرى أن تغدو مستكشفة، أو سيدة أعمال، أو سامرائية صالحة، أو صانعة بوظة، أو شخصاً يفعل شيئاً ما.

لكنها لن تغدو أبداً، بسبب خطئي.

ميرين، لا أقوى حتى على طلب المغفرة منك. لا توجد كلمة في السكرابل لتعبِّر لك عن مدى أسفي.

وغات، حبيبي غات.

لن يذهب أبداً إلى الكلية. هو من كان مفعماً بالفضول، وأسلوبه في طرح كل شيء للبحث، ليس بهدف العثور على إجابات وإنما ليفهم. لن يروي أبداً ظمأه للتعلُّم. لن ينهي أبداً قراءة أفضل مئة رواية في التاريخ والأدب، ولن يغدو أبداً الرجل العظيم الذي كان بمقدوره أن يكونه.

كان يريد أن يكافح ضدّ الشر. كان يريد أن يعبِّر عن غضبه. كان يضخّم الأمور، حبيبي غات الشجاع. لم يكن يريد أن يسكت حين نطلب منه ذلك، وكان يدعو الآخرين إلى الاستماع إليه.

ويستمع إليهم بدوره. وكان يرفض أن يستخف بالأمور، مع أنه كان دوماً أول من يضحك.

أجل، كان يضحكني. ويجعلني أفكر أيضاً، حتى عندما لا تكون لدي رغبة بذلك، وعندما أكون أكسل من أن أهتمَّ بما يقول.

تركني غات أنزف بين ذراعَيه، مراراً وتكراراً. لم يكن ذلك يزعجه. كان يريد أن يعرف لماذا أنزف. ويتساءل كيف يعالج جراحي.

لن يأكل شوكولاتة ثانية أبداً.

كنتُ أحبه، وأحبه الآن. على قدر ما أستطيع. لكنه كان محقاً. لم أكن أعرف كل شيء عنه. لن أرى أبداً شقته، ولن أتذوق أبداً طبخ أمه، ولن ألتقي أبداً أصدقاءه في الثانوية. لن أرى أبداً لون غطاء سريره ولا الملصقات على جدرانه. لن أتعرّف أبداً إلى الحانة الصغيرة التي يشتري منها سندويتش البيض المسلوق ليأخذها معه صباحاً، ولا إلى زاوية الشارع التي يربط فيها دراجته العادية بقفلَين ضدّ السرقة.

لا أعرف حتى إن كان يشتري سندويتش بيض مسلوق أو إن كانت هناك ملصقات على جدرانه. لا أعرف إن كانت لديه دراجة عادية أو غطاء سرير. يمكنني فقط أن أتخيّل موقف الدراجات على ناصية الشارع وقفلَين ضدّ السرقة، لأنني لم أذهب قط لعنده، ولم أرَ قط كيف كان يعيش، ولم أعرف قط غات الذي كان يعيش خارج بيتشوود آيلاند.

لا بدَّ أن غرفته فارغة الآن. لقد مات منذ عامين.

كان من شأن ما بيننا أن ينجح.

أجل، أنا واثقة من ذلك.

فقدتكَ يا غات، لأنني أغرمت بك غراماً يائساً ورهيباً.

أتخيّلُ أصدقائي الكذّابين أسرى الجمر، في لحظاتهم الأخيرة، والدخان يملأ صدورهم، وجلدهم محترق. وكم عانوا.

شعر ميرين مشتعل. جسد جوني راقد على الأرض. يدا غات، أصابعه المحترقة، ذراعاه المتصلبان بسبب اللهب.

على يديه كلمتان. على اليمنى: **غات**. وعلى اليسرى: **كادنس**.

بخطّي.

أبكي لأنني أنا الناجية الوحيدة. لأن علي أن أتابع الحياة من دون الكذّابين. لأنه سيترتّب عليهم أن يواجهوا النتيجة، أياً تكن، من دوني.

أنا، غات، جوني وميرين.

ميرين، غات، جوني وأنا.

كنا معاً، هذا الصيف.

لكن من غير أن نكون كذلك فعلاً.

كنا ولم نكن.

كل هذا خطئي، خطئي أنا، وحدي فقط، ومع ذلك يحبونني. رغم هذين الكلبَين المسكينَين، رغم حماقتي وتبجحي، رغم الجريمة التي ارتكبناها. رغم أنانيتي، رغم نواحي، رغم العبثية التي قيّضت لي أن أكون الناجية الوحيدة وعدم تمكّني من تقدير هذا الحظ حقّ قدره، بينما هم... هم لم يحالفهم شيء. لا شيء، لا شيء البتة، ما عدا أنهم أمضوا الصيف الماضي معاً.

قالوا لي إنهم كانوا يحبوني.

شعرتُ بذلك في قبلة غات.

في ضحكة جوني.
حتى ميرين هتفت بذلك قبالة المحيط.

أعتقد أنهم لأجل هذا عادوا.
كنتُ بحاجة إليهم.

83

تقرع ماما بابي وتناديني.
لا أجيب.
تعود بعد ساعة.
«دعيني أدخل، من فضلك؟».
«انصرفي».
«هل لديك صداع؟ أخبريني فقط إن كان هذا حالك».
«لا»، أقول. «شيء آخر».
«أنا أحبك يا كادي».
تكرّر علي هذه الكلمات دون توقف منذ مرضت، لكنني الآن فقط أفهم معناها.
أحبكِ مع أنني أتألم. مع أنكِ مجنونة.
أحبكِ رغم اشتباهي في أنك اقترفتِ ذلك.
«تعرفين أننا جميعاً نحبك، أليس كذلك؟»، تخاطبني من وراء الباب. «خالتك بيس، خالتك كاري، وجدك، والجميع؟ حضرت

بيس فطيرة التوت الشهيرة لأجلك فقط. ستخرجها من الفرن بعد نصف ساعة. في موعد إفطارك بالضبط. طلبتُ منها».

أنهض. أمشي حتى الباب وأفرجه سنتيمتراً واحداً.

«اشكريها نيابة عني. لكن لا يمكنني أن أنزل الآن».

«أنتِ بكيتِ»، تلاحظ ماما.

«قليلاً».

«أرى هذا».

«اعذريني. أعرف أنك حريصة على حضوري الإفطار».

«لا تعتذري يا كادي. فعلاً، أنا أطمئن عليك. لا داعي لأن تعتذري».

84

كالعادة، كان كودلداون خالياً لدرجة أن صوت وقع خطواتي يرنُّ على درجات الشرفة. يظهر جوني على عتبة الباب ويقفز فوق حطام الزجاجات بحذر. حين يرى وجهي، يتسمّر في مكانه.

«تتذكرين»، يقول لي.

أهزُّ رأسي.

«كل شيء؟»

«لم أكن متأكدة أنكم ما زلتم هنا»، أقول.

يمسك يدي. يده دافئة، وحتى حقيقية، رغم لونه الشاحب، وهيئته الشاردة، وعينيه الغائرتين. يبدو يافعاً للغاية.

عمره خمسة عشر عاماً فقط.

«لم يعد بوسعنا البقاء»، يشرح لي. «الأمر يزداد صعوبة».

أوافق من جديد.

«ميرين هي من يؤلمها ذلك أكثر، لكن أنا وغات نشعر به أيضاً».

«أين ستذهبون؟».

«عندما نرحل؟».

«أجل».

«إلى مكان لا تكونين فيه. إلى مكان نحن فيه الآن. إنه مثل...».

يأخذ استراحة، ويحك رأسه.

«مكان راحة. لا يشبه شيئاً، على أي حال. بصراحة يا كادي، أنت تعرفين أنني أحبك، لكنني مرهق. أود أن أتمدّد وأنتهي من هذه القصص. هذا الأمر يعود إلى الأيام الخوالي بالنسبة إلي».

أنظر إليه.

«ألوم نفسي كثيراً يا جوني».

أشعر بالدموع تسيل خلف عينَي.

«لا يد لك في الأمر. كنا جميعاً موافقين، تحمّسنا، ونتقاسم مسؤولية ما فعلناه. ليس عليكِ أن تتحملي هذا الوزر وحدك. ابكي، وأقيمي حدادك... لكن لا تحمّلي نفسك فوق طاقتها».

ندخل إلى المنزل وتخرج ميرين من غرفتها. ألاحظ أنها لم تكن موجودة بالتأكيد منذ دقيقة خلت، بالضبط قبل أن أتخطّى الباب. تأخذني بين أحضانها. شعرها الأشقر العسلي كامد، وشفتاها متشققتان.

«آسفة لأنني لم أستطع أن أتصرّف بشكل أفضل، يا كادي. لم

أحظَ إلا بفرصة واحدة لأكون هنا، و... لا أدري لماذا، لجأتُ إلى خجلي. لم أتوقف عن الكذب عليكِ».

«لا تقلقي بهذا الشأن».

«تمنيتُ لو كنتُ شخصاً متسامحاً، لكنني لم أزل أحمل غيظاً جارفاً في أعماقي. أنا من كنت أحسب نفسي نقية ومفعمة بالحكمة، كنتُ أغار منكِ وأحنق على بقية عائلتي. لم تسر الأمور كما هو مخطّط لها. لم يعد بوسعنا الرجوع إلى الوراء»، تختتم وهي تدفن وجهها على كتفي.

أطوقها بذراعي.

«كنتِ على سجيتكِ يا ميرين. وهذا هو المهم».

«يجب أن أرحل. لا يمكنني البقاء هنا وقتاً أطول. أنا عائدة إلى البحر».

لا. أرجوكِ.

لا ترحلي. لا تتركيني، ميرين، ميرين.

أنا أحتاجك.

هذا ما أرغب في قوله، والصراخ به. لكنني لا أفعل شيئاً من هذا.

وكان جزء مني يود أن ينزف على أرض الصالون الكبير عينها أو أن أتحول إلى بركة حزن صغيرة.

لكنني لا أفعل شيئاً من هذا أيضاً. أنا لا أتذمّر. ولا أبغي أن يشعروا بالأسى على مصيري.

لا. أبكي. أبكي وأنا أصافح ميرين، أقبّلها على خدها الدافئ وأرغم نفسي على تذكر كل تفصيل من تفاصيل وجهها.

ننزل نحو الشاطئ الصغير وكل واحد منا نحن الثلاثة يمسك يد الآخر.

غات هناك، ينتظرنا. يبرز ظلّه بعكس ضوء النهار على خلفية السماء الحمراء. هذه الصورة التي سأحتفظ بها له. يلتفت ويبتسم لنا. يهرع نحوي، يرفعني ويدور بي في الهواء كأن ثمة شيء يدعو للاحتفال. كأننا كنا ثنائياً سعيداً، عاشقَين على شاطئ.

لم أعد أنتحب، لكن دموعي تستمرُّ في السيلان. يفكُّ جوني أزرار قميصه ويناولني إياه.

«لتمسحي أنفكِ»، يقول لي بأدب.

تخلع ميرين فستانها الصيفي وتجدُ نفسها بلباس السباحة.

«لا أصدق أنك كلّفتِ نفسك عناء ارتداء لباس السباحة قصداً»، يقول غات، ويده لم تزل حول خصري.

«تتكلم عن مجنونة»، قهقه جوني.

«أعشق هذا الرداء»، تجيب ميرين. «اشتريته في إدغارتاون، الصيف الخامس عشر. أتذكرين يا كادي؟».

في الحقيقة نعم.

كان الضجر يقتلنا؛ استأجر الصغار دراجات ليقوموا بنزهة حتى واك بلافس، لكنهم لم يكونوا يعرفون إطلاقاً في أية ساعة يُفترض بهم أن يعودوا. كان لزاماً علينا أن ننتظرهم لاصطحابهم إلى الجزيرة في المركب. عندئذ، وحتى نقتل الوقت، اشترينا كاراميل، وشاهدنا الريح تهبُّ في خراطيم التهوية وتنتهي إلى فتح باب محل بيع التذكارات لنقيس أسوأ ألبسة سباحة ممكنة.

«مكتوب على مؤخرتها «مارثاز فاينيارد يا حبيبتي»»، أقول لجوني.

تلتفت ميرين. في الواقع لم تزل العبارة في مكانها.

«هذه اللحظة المناسبة»، تقول بنبرة لا تخلو من المرارة.

تتقدم نحوي، تقبّلني على خدي وتعلن:

«أظهري دوماً من اللطف ما يزيد عن اللزوم، يا كادي، وسيكون كل شيء على ما يرام».

«ولا تأكلي أبداً ما يفوق حجم أردافك!»، يهتف جوني.

يضمني لثلاث ثوانٍ بين ذراعيه ويلقي بحذائه بعيداً. ويدخل كلاهما الماء.

ألتفت نحو غات.

«ستنصرف، أنت أيضاً؟».

يوافق.

«أنا آسفة يا غات. ألوم نفسي كثيراً. لا يمكن لشيء أبداً أن يصلح ما فعلتُه».

يقبّلني. أشعر أنه يرتعش. أضمّه بين ذراعَي كأنه يمكن لهذه الحركة أن تمنعه من الاختفاء وتطيل أمد هذه اللحظة، لكن بشرته باردة، ورطبة من الدموع، وأعرف أن هذا وداع.

إنه لأمر رائع أننا تحابينا، حتى لو لم يدم هذا.

إنه لأمر رائع أن قصتنا وُجدت.

ثم يبتعد. رحيله يفطر القلب. لا، لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا. يستحيل أن نفترق إلى الأبد وحبّنا قوي إلى هذا الحدّ. يفترض بهذه القصة أن تنتهي نهاية جميلة.

لكن لا.

يتركني.

إضافة إلى أنه سبق أن مات، بالتأكيد.

انتهت القصة منذ وقت طويل.

يركض غات نحو البحر دون أن ينظر خلفه ويقفز، بكامل ملابسه، بين الأمواج.

يبتعد الكذّابون وهم يسبحون، يجتازون نهاية الخليج الصغير ويتابعون طريقهم نحو عرض البحر. الشمس في كبد السماء وتتلألأ على سطح الماء، لامعة وساطعة. فجأة، يغطسون -

أو شيئاً من هذا القبيل -

أو شيئاً من هذا القبيل -

ويختفون.

أبقى هناك، على الرأس الجنوبي من بيتشوود آيلاند. وأمكث على الشاطئ الصغير، وحيدة.

85

أنام أياماً بكاملها من دون شكّ. يستحيل أن أنهض.

أفتح عينَيّ وثمة ضوء.

أفتح عينيّ والوقت ليلٌ.

أبرح فراشي أخيراً. في مرآة حُجرة الحمّام، لم يعد شعري أسود. اتّخذ لوناً بنياً صدئاً، مع جذور شقراء ظاهرة. بشرتي يغطّيها النمش وشفتاي محترقتان من الشمس.

لستُ متأكدة من أنني أعرف هذه الفتاة في المرآة.

بوش وغرنديل وبوبّي يتبعونني خارج المنزل، يلهثون ويهزّون أذيالهم. في مطبخ منزل كليرمونت الجديد، تحضر الخالات

سندويتشات للنزهة. جيني تنظف الثلاجة. إيد يرتّب زجاجات عصير الليمون وبيرة الزنجبيل في براد صغير.

إيد.

مرحباً إيد.

يومئ لي بيده. يفتح زجاجة بيرة بالزنجبيل ويناولها إلى كاري. يفتّش البراد بحثاً عن كيس ثلج آخر.

بوني تدسُّ أنفها في أحد الكتب وليبرتي تقطّع البندورة إلى شرائح. قالبا كعكة، أحدهما مكتوب عليه «شوكولاتة» والآخر «فانيليا»، ينتظران في علب من الورق المقوى لمتجر حلويات على طاولة تحضير الطعام. مع تمنياتي بعيد ميلاد سعيد للتوأم.

ترفع بوني رأسها عن كتابها، عنوانه **ظواهر مجتمعية**.

«هل تشعرين أنك أفضل؟»، تسألني.

«أجل».

«لا يبدو هذا».

«أغلقي فمك».

«بوني هي الطاعون»، تصرّح ليبرتي، «ولن تتغير أبداً. لكننا سنمارس رياضة التزلج على الماء بالزوارق غداً صباحاً، إن كان هذا يناسبك».

«حسنٌ».

«نحن من سنقود المركب. ولست أنتِ».

«فكرة صائبة».

تضمّني ماما بقوة ومطولاً إلى أحضانها، مثلما تفعل حين تقلق عليّ، لكنني لم أقل شيئاً لها.

ليس بعد. ودون شكّ ليس قبل أن تأتي لحظة مناسبة.

على كل حال، هي تعرف أنني استعدت ذاكرتي.

كانت تعرف ذلك من قبل حين كانت تأتي وتطرق بابي، شعرتُ بذلك.

أتركها تقدم لي كعكة حفظتها قصداً من الفطور وكأس عصير برتقال.

أجد قلم حبر ناشف وأكتب شيئاً ما على يدَي.

على اليسرى: ما **يزيد عن اللزوم**. وعلى اليمنى: **من اللطف**.

في الخارج، تافت وويل يقومان بأفعال خرقاء في الحديقة اليابانية. يبحثان عن حصى غريبة. أساعدهما. يطالباني أن أبحث أولاً عن حصى تلمع أو عن حصى من شأنها أن تفيد في صنع سهام.

حين يناولني تافت حصوة بنفسجية، لأنه يتذكر أنها المفضلة لدي، أدسها في جيبي.

86

بعد الظهر، أقصد إدغارتاون مع جدي. تصرُّ بيس أن تصطحبنا إليها بالقارب، لكنها تغادر لتفرغ إلى عملها بينما نذهب نحن للتسوق. أجد أكياس نسيج جميلة لأجل البنتين التوأم ويصرُّ الجد أن يقدِّم لي كتاب حكايات الجنيات من مكتبة القرية.

«رأيتُ إيد يعود»، أقول له بالقرب من صندوق المحاسبة.

«أممم».

«أنت لا تحبه كثيراً».

«ليس كثيراً».

«لكنه موجود هنا مع ذلك».

«أجل».

«مع كاري».

«حسنٌ، أجل». يقطب حاجبيه. «والآن، توقفي عن إزعاجي، هل تسمحين؟ هيا بنا إلى محل الكاراميل».

وهذا بالضبط ما فعلناه.

إنه خروج رائع. لا يناديني إلا مرة واحدة ميرين.

نحتفل بعيد ميلاد البنتين التوأم في المساء ذاته، أثناء العشاء. هناك قالبا كعكة والهدايا. وقد استثاره السكّر تماماً، يخدش تافت ركبته عند سقوطه عن صخرة في الحديقة. آخذه إلى حُجرة الحمّام لأضع له ضماداً.

«كانت ميرين هي من تضع لي الضمادات دوماً»، يقول. «أعني، عندما كنت صغيراً».

أضغط ذراعه.

«هل تريدني أن أفعل أنا ذلك الآن؟».

«أوه، هذا جيد، عمري عشر سنوات».

في اليوم التالي، أعود إلى كودلداون وأفتح الخزانة تحت مجلى المطبخ.

أجد فيها اسفنجات ومواد تنظيف بعطر الليمون. لفافتان من المحارم الورقية. عبوة ماء جافيل.

أكنس حطام الزجاج وشرائط الزينة المتشابكة. أملأ أكياس

قمامة كاملة بزجاجات فارغة. أنظّف بقايا رقائق البطاطا. أفرك بلاط المطبخ اللزج. أغسل الأغطية.

أمسح الأوساخ عن زجاج النوافذ، أرتّب علب الألعاب في الخزانة وأجمع النفايات من غرف النوم.

أترك المفروشات على حالها، مرتّبة كما كانت ميرين تحب.

يحفزني دافع مفاجئ، فأتناول رزمة ورق وقلم حبر ناشف برأس مدبّب في غرفة تافت وأبدأ أرسم. لا تكاد الشخصيات تزيد عن تخطيطات هيكلية، لكن من الواضح أنها تشير إلى أصدقائي الكذّابين.

غات، بأنفه الرائع، يجلس مرتدياً سترة ويمسك كتاباً.

ميرين ترقص بلباس السباحة.

جوني يرتدي قناع غطس ويمسك سرطاناً بيده.

حين أنهي تحفتي الفنية، ألصقها على باب الثلاجة بجانب رسوماتي القديمة بأقلام التلوين لبابا وجدتي تيبر والكلاب.

87

كان يا ما كان في قديم الزمان، عاش ملك له ثلاث بنات فائقات الجمال. صارت البنات زوجات، وصار للزوجات أولاد، أولاد وسيمون، وسيمون جداً وكثيرون، ولكن للأسف، حدث لهم شيء ما.

شيء أحمق،

شرير،

رهيب،
شيء كان يمكن تفاديه،
شيء ما كان ينبغي أن يحدث أبداً
لكنه انتهى، مع ذلك، إلى الصفح عنه.
لقي هؤلاء الأولاد حتفهم في حريق - جميعهم، ما عدا واحد.
لم يبقَ سوى ناجية واحدة، وهي...
لا، هذا غير مناسب.
لقي هؤلاء الأولاد حتفهم في حريق، جميعهم ما عدا ثلاث بنات وصبيَّين.
بقي إذاً خمسة ناجين.
كادنس، ليبرتي، بوني، تافت وويل.
والأميرات الثلاث، أمهاتهنّ، انهرن تحت وطأة الوجع واليأس. أدمنّ على الشراب، وبذرن المال، وفقدن الشهية، وأصبحن مهووسات وموسوسات. وفي ألمهنّ، تعلّقت كل واحدة منهنّ بالأخرى، وسامحن بعضهنّ وانتحبن معاً. كان الآباء يعانون بشكل فظيع، هم أيضاً، حتى لو كانوا يعيشون بعيداً؛ أما الملك، فغرق في جنون لطيف لا تتبدّى منه شخصيته القديمة إلا من حين إلى آخر.
أما الأولاد، أنفسهم، فكانوا في حالة صدمة. أضناهم الشعور بالذنب لأنهم ظلوا على قيد الحياة، أضناهم الألم الذي يطرق جماجمهم والخوف من الأشباح، أضنتهم كوابيسهم وتشنّجاتهم الغريبة، كما أضناهم عقابهم لأنفسهم لأنهم نجوا بينما مات الآخرون.
الأميرات، الآباء، الملك والأولاد تفتتوا كقشور البيض،

محطمين ورائعين في آن واحد - لأنهم جميلون، وكانوا هكذا دوماً.
كان كل شيء يبدو
كما لو أن
كما لو أن
هذه المأساة دمّرت نهائياً عائلتهم.
وربما كانت هذه هي الحال.
لكن ربما لا.
كانوا يشكّلون عائلة رائعة. وعلى الدوام.

وكانوا يعرفون ذلك. في الواقع، ومع الوقت، ختم المأساة الذي كان يَسِمَهُم انتهى إلى أن يدمغهم بدمغة آسرة. دمغة غامضة، كانت مدعاة لافتتان أولئك الذين يراقبونهم من بعيد.

«البكر بين الأولاد ماتوا جميعاً في حريق، تهامس سكان بيرلنغتون، والجيران في كامبريدج، والأهل في المدارس الخاصة أسفل مانهاتن ومتقاعدو بوسطن. شبّ حريق على الجزيرة. ذات صيف. هل تتذكرون؟».

البنات الثلاث اللاتي كنّ فائقات الجمال، أصبحن أكثر جمالاً في نظر الآخرين.

وقلما فاتهم هذا التفصيل. ولم يفت آباءهنّ، حتى في ذروة انحطاطهم.

مع ذلك، الأولاد الذين نجوا،
كادنس، ليبرتي، بوني، تافت وويل،
يعرفون حقّ المعرفة، هم، أنه ليس في هذه المأساة ما يأسر.
يعرفون أنها لا تحدث في الحياة الواقعية كما على خشبة مسرح

أو بين دفتَي كتاب. فهي لا تقدم قصاصاً ولا مغزى أخلاقياً. وأهوالها لا تعزى إلى شخص واحد.

المأساة هي أمر فظيعٌ ومعقدٌ، أحمقٌ وغير مفهوم.

هذا ما تعلّمه هؤلاء الأولاد.

ويعرفون أيضاً أن جميع القصص

التي تحيط بعائلتهم

هي صحيحة وزائفة في آن معاً.

إنها روايات مختلفة أبدية حول الموضوع ذاته.

ولن يتوقف الناس أبداً عن روايتها.

اسمي الكامل هو كادنس سنكلير إيستمان.

أعيش في بيرلنغتون، في فيرمونت، مع أمي وكلابنا الثلاثة.

سأبلغ قريباً الثامنة عشر من عمري.

لدي بطاقة مكتبة مهترئة من كثرة الاستخدام، ومغلّف ورود يابانية مجفّفة، وكتاب حكايات وحفنة حصى بنفسجية رائعة. هذا كل شيء تقريباً.

أنا

مسؤولة

عن جريمة رعناء وحمقاء

تحوّلت

إلى مأساة.

صحيح أنني أغرمتُ بشخص مات، وكذلك شخصان آخران كانا الأقرب إلى قلبي من الجميع. هذا هو الشيء الجوهري الوحيد الذي يجب أن تعرفوه عني،

الشيء الوحيد الذي عرّفني لزمن طويل
مع أنني كنتُ أجهله أنا نفسي.
لكن لا بدَّ أن ثمة أشياء أخرى لتعرفوها.
وستوجد أشياء.

اسمي الكامل هو كادنس سنكلير إيستمان.
أتحمّل حالات صداع. ولا يمكنني أن أتحمّل الحمقى.
أحب اللعب على الكلمات.
أكابد.

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t__pdf

إ. لوكهارت

نحن الكذّابون

عائلة جميلة وثرية.

جزيرة خاصة.

فتاة لامعة ومكلومة؛ فتىً عاطفي وملتزم.

قصة حب.

أربعة أشخاص -الكذّابون- تجمعهم صداقة وثيقة.

حادث.

سرّ.

أكاذيب تتلو أكاذيب.

الحقيقة.

رواية رائعة يتصاعد فيها التوتر حتى يبلغ ذروته. نهاية مذهلة لا تتوقعونها. قراءة آسرة، ما إن تنتهون منها، حتى تستولي عليكم الرغبة في العودة إلى صفحاتها الأولى، للبدء بها من جديد...

❖ ❖ ❖

«رواية صادمة، جمال صارخ وذكاء مدوٍّ. **نحن الكذّابون** رواية لا تُنسى أبداً».

جون غرين

«عميقة ومثيرة ومؤثّرة، مشبعة بذكاء رهيب. إنها رواية تستحوذ عليكم من الصفحة الأولى وتأسركم».

روبن واسرمان

«رواية شجية ولامعة ومذهلة. إنها إ. لوكهارت في أوج تألّقها».

سارة ملينوفسكي

t.me/t_pdf

ISBN 978-9953-68-912-8

9 789953 689128

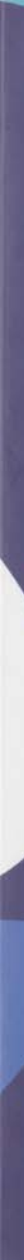

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
oca_casa_bey@yahoo.com

صورة الغلاف: Shutterstock ©